من الأعمال المجهولة

يوميات علي أحمد باكثير

في روسيا والجمهوريات الإسلامية وأوروبا



إعداد وتوثيق

د. محمد أبوبكر حميد

يوميات علي أحمد باكثير في روسيا والجمهوريات الإسلامية وأوربا

مشاهدات وأحاديث في السياسة والثقافة

إعداد وتوثيق:
د.محمد أبوبكر حميد

الناشر
مكتبة مصر
٣ ش كامل صدقى بالفجالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾

(٣ الجاثية)

٨١

يوم الجمعة ٢١ نوفمبر

إحدى صفحات اليوميات بخط علي أحمد باكثير



علي أحمد باكثير رحّالة الزمان والمكان

تحية الشاعر العظيم

ليهنك رودكي ان يكرمك الشعب ... فانك منه الروح والعقل والقلب

ألست حياة الشعب، منك استمدها ... نفائس فيها المجد والعز والخصب ؟

ألست له عقلاً ينير سبيله ... الى حيث يستهويه مطلبه الصعب ؟

الى حيث يستهويه إنشاء عالم ... يسود السلام فيه والخير والحب ؟

ألست له القلب الذي جاش بالهوى ... كأجمل ما غنى به عاشق صب

فأقبست شعب الطاجكستان جذوة ... من الحب يعلو نورها الدهر لا يخبو

بشعرك يارودكي، بشعرك وحده، ... بلغت مقاما لا تطاوله الشهب

أتتك وفود الشرق والغرب تحتفي ... بذكراك حتى وحد الشرق والغرب

يضمها في عيد ذكراك منهل ... من الشعر فياض هو الكوثر العذب

علي احمد باكثير

ستالين اباد
في ١٥ اكتوبر ١٩٥٨

Ali Ahmed Bakather

مقدمـــــــة

د.محمدأبوبكر حميد

سافر **علي أحمد باكثير** (١٩١٠ـ١٩٦٩م) أسفاراً عديدة في الزمان والمكان، وقد جعلت هذه الأسفار من حياته كلها غربة واغتراباً. فقد ولد في مدينة **سورابايا بإندونيسا** بعيداً عن وطنه **حضرموت باليمن**، ولما عاد إلى وطنه الأصلي صبياً صغيراً عاش في غربة أخرى بعيداً عن أمه وأبيه، ثم تحولت هذه الغربة إلى اغتراب في الوطن حين شب عن الطوق وتفتح عقله على أفكار رياح الإصلاح التي هبت على العالم الإسلامي بقيادة المصلحيْن الإسلاميين **جمال الدين الأفغاني**، و**محمد عبده** من خلال قراءاته واتصاله بتلميذيهما **محمد رشيد رضا**، و**محب الدين الخطيب**، فلما حاول فتح نافذة لنسمات من هذه الرياح في وطنه حاربه من أسماهم بالجامدين، ووضعوا في طريقه الأشواك لدرجة محاولة الحيلولة دون زواجه من الفتاة التي أحبها، فكان سفره الى أندونيسيا لبث شكواه لوالدته وإقناع والد الفتاة الذي يقيم هناك بالموافقة. وبالفعل ففي١٥من شعبان١٣٤٥هـ الموافق١٧من فبراير١٩٢٧م غادر مدينة سيئون (عاصمة السلطنة الكثيرية الحضرمية) التي تقع في قلب وادي حضرموت في رحلة شاقة على الجمال والحمير تستغرق أياما الى مدينة المُكَلاّ الساحلية (عاصمة الدولة القعيطية الحضرمية) وقد وصف هذه الرحلة في مسرحية (همام

أو في بلاد الأحقاف). وبعد أربعة عشر شهراً في موطن مولده عـاد الى حضرموت في ٢٥ من شوال ١٣٤٦هـ الموافق ١٥ من أبريـل ١٩٢٨م منتشياً بموافقة والد الفتاة على زواجه منها. ولكن لا تكاد أربع سنوات تمر على هذا الزواج السعيد حتى يفجع بموتها بعـد مـرض عضال، فيقرر الهجرة من وطنه نهائياً .

حمل الشاعر الحزين عصا التسيار وغادر حضرموت إلـى عدن في ٢٥ من يونيو ١٩٣٢م ولسان حاله يقول:

إذا نبـا بكـريمٍ مـوطن، فلـه

وراءه في بـسيط الأرض ميـدان

فأقام في **عَدَن** عاماً زار خلالها **الصومال** و**الحبـشة**، فأنـشد وخطب وكتب والتقى بشخصيات إصلاحية عديدة، ثم شـدته أشـواقه الروحية إلى الحرمين الشريفين فغادر **عدن** إلى **الحجاز** التي **وصـلها** في ٢٥ من مارس ١٩٣٣م فأدى فريضة الحج، واستشفى روحياً فـي الربوع الطاهرة، وعقد عرى صداقات متينه مع أدباء **الحجاز** الرواد.

وما كاد يُمضّي عاماً في **المملكة العربية السعودية** حتى غادرها إلى **مصر في ١٣ من فبراير** ١٩٣٤م محققاً حلمه الذي تمنـاه بعـد أن ضاقت به الحال في **حضرموت**، وعبر عنه في إحدى قصائده قائلاً:

سأرحل من بـلاد ضِـقت فيهـا — تلازمني بهـا أبـداً شَـعوبُ

فأجتـاز البحـار لأرض (جـاوا) — إلى حيث المقام بهـا يطيـبُ

وأعبر (مصر) حيث العلم حيـث — حضارة حيث يُحترم الأديـبُ

وحيـث الـشعر خفـاق لـواه — وحيث الضاد مرعاها خصيبُ

ولم يستطع الذهاب إلى **إندونيسيا (جاوا)** "حيث المقام بها يطيب" لوجود والدته بها، ولم تقدر له العودة لرؤيتها فظل بعيداً عنها منذ فارقها صبياً صغيراً حتى وفاتها ١٨من يناير سنة ١٩٥٣م.

وشعر **باكثير** بالاستقرار في **مصر**، وأدرك أنه حقق حلمه، فالتحق بجامعة فؤاد الأول ــ جامعة القاهرة حالياً ــ قسم اللغة الإنجليزية سنة ١٩٣٤م، والتقى بالأدباء الذين كان يحبهم، وأصبح من نجوم شعراء مجلة «**الرسالة**» الشهيرة وغيرها من الصحف مثل (**الأهرام**)، (**البلاغ**) و(**السياسة**) و(**الوادي**) و(**الجهاد**) في **مصر** آنذاك، وحقق فتحاً تاريخياً في الشعر العربي في هذه السن الباكرة حين ترجم مسرحية (**روميو وجوليت) لشكسبير** بالشعر المرسل المنطلق سنة ١٩٣٦م، ثم أعقبها بتأليف مسرحية (**أخناتون ونفرتيتي**) سنة ١٩٣٨م، وبهاتين المسرحيتين أصبح **علي أحمد باكثير** رائد الشعر الحر باعتراف كثير من كبار النقاد.

وما كاد يتخرج فى الجامعة سنة ١٩٣٩م حتى صار علماً من الشعر والمسرح والرواية في **مصر**، ولكن اتجاهه للمسرح أصبح الغالب عليه بعد ذلك. وابتداءً من سنة ١٩٤٢م شغلته قضية فلسطين فتابع أحداثها بمسرحيات قصيرة يكتبها أسبوعياً فكان الوحيد من أبناء جيله الذي حذر من النكبة قبل وقوعها وابتداء من سنة ١٩٤٧م أصبحت مسرحياته أمثال «**سر الحاكم بأمر الله**» و«**أبو دلامة**» «**سر شهرزاد**» وغيرها تتصدر المواسم المسرحية في **مصر**، فنال الجوائز في المباريات الأدبية، وأخرجت بعض رواياته للسينما، ونالت شهرة

واسعة مثل «**سلامة القس**» التي مثلتها أم كلثوم، و«**واإسلاماه**» و«**شادية الإسلام**». وظل **باكثير** يرتقي في سلم المجد والشهرة حتى أصبح علماً من أعلام الأدب العربي في العصر الحديث. في ٢٢ من أغسطس ١٩٥١م أمر مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء ورئيس حزب الوفد الحاكم بمنحه الجنسية المصرية تقديراً لدوره القومي والوطني في طرح قضايا مصر والاستعمار فى مسرحياته ورواياته وقصائده، فسلمها له فؤاد سراج الدين وزير الداخلية آنذاك بنفسه تقديراً له.

وشعر بالاستقرار في **مصر**، وكان لسان حاله ينطق بقول الشاعر:

وأحب أوطان البلاد إلى الفتى

أرض ينال بها كريم المطلب

فنال جائزة الدولة سنة ١٩٦٢م، ومنحه الرئيس جمال عبدالناصر وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى سنة ١٩٦٣م، وحصل على منحة تفرغ لمدة عامين كتب فيها «**ملحمة عمر بن الخطاب**» عامي ١٩٦٣ـ١٩٦٤م فكانت أطول عمل أدبي في تاريخ الأدب العربي.

وفي السنوات الأخيرة من حياته حاربه من كان يسميهم باليسار الانتهازي الذي سيطر على منابر الثقافة في **مصر** وخاصة المسرح، وأُبعد **باكثير** عن عرشه المسرحي، على حد تعبير صديقه الشاعر عبده بدوي. وفي هذه السنوات العجاف أحس بالغربة في **مصر**، فعاد إلى التجوال مرة أخرى وكثرت أسفاره. وحين أعلن استقلال وطنه الأصلي جنوب اليمن في ٣٠ من نوفمبر سنة ١٩٦٧م شدته الأشواق إليه بعد غياب دام ٣٤ عاماً، فوصل عدن في ٤ من

أبريل ١٩٦٨م، ومنها إلى حضرموت حيث مراتع صباه ورفاق فتوته وشبابه الأول، وغادرها في ٢٠ من مايو ١٩٦٨م إلى الكويت وفي نفسه غُصّة، إذ حذر في حديث له بإذاعة الكويت من سقوط عدن في أيدي اليسار الماركسي، وقد حدث ذلك بعد مغادرته ببضعة شهور وهي الشهور الأخيرة من حياته ولكنه لم يجد السلوة إلا إلى جوار ربه فأسلم الروح في العاشر من نوفمبر سنة ١٩٦٩م مخلفاً وراءه تراثاً أدبياً ضخماً يقرب من ثمانين كتاباً.

❁ ❁ ❁

لم تكن أسفار **علي أحمد باكثير** تقتصر على أسفاره في المكان، بل كان الأهم منها أسفاره في الزمان، فهو من أهم من ترحل بين العصور والحضارات، وسافر في أعماق التاريخ والأساطير، فمن حصاد تجواله في عصور ما قبل الإسلام وحضاراتها كتب «**مأساة أوديب**» من الأساطير الإغريقية، ومن التاريخ الفرعوني كتب «**أخناتون ونفرتيتي**»، و«**الفلاح الفصيح**» و«**الفرعون الموعود**» و«**أوزوريس**» ومن الأسطورة الأوربية المسيحية كتب «**فاوست الجديد**».

أما تاريخه العربي والإسلامي فقد تجول فيه على أحسن ما يكون التجوال روايةً ومسرحاً تأتي في مقدمتها ملحمته عن **عمر بن الخطاب** ومسرحيات «**هاروت وماروت**» و«**سر الحاكم بأمر الله**» ومجموعة «**من فوق سبع سموات**»، ووقف طويلاً في تجواله عن التاريخ السياسي الحديث للأمة العربية والإسلامية مع غزاتها وأعدائها، فكتب عن غزو لويس التاسع **لمصر** مسرحية «**دار ابن لقمان**»، وعن

حملة نابليون ثلاثية «**الدودة والثعبان**» و «**أحلام نابليون** «**ومأساة زينب**». وتجول في تاريخ اليهود عبر العصور **لفلسطين** في مسرحيات «**شيلوك الجديد**»، و«**إله إسرائيل**»، و«**شعب الله المختار**» و«**التوراة الضائعة**»، ولم يترك وطناً عربياً أو إسلامياً إلا وقف عنده في تجواله الفني والفكري، وعرض قضيته وتاريخه منتصراً له من إندونيسيا موطن مولده في أقصى الشرق التي كتب عن استقلالها مسرحية «**عودة الفردوس**» إلى المغرب العربي في أقصى الغرب الذي تابع جهاده ضد المستعمر بعدّة مسرحيات وأناشيد.

وفي الوقت نفسه لم ينعزل **باكثير** عن أحداث عصره الاجتماعية، بل واكبها بعدد من المسرحيات أشهرها مسرحية «**جلفدان هانم**» و«**الدكتور حازم**» و«**السلسة والغفران**» و«**قطط وفيران**» و«**الدنيا فوضى**» و«**قضية أهل الربع**» و«**أغلى من الحب**» و«**حبل الغسيل**»و«**عاشق حضرموت**».

وحين نجيء إلى رحلاته على مستوى المكان نجده قد زار الكثير من بلدان العالم العربي والإسلامي ودول أوربا. وما علمته عن زياراته من أحاديث أسرته **بالقاهرة**، ومن واقع جوازات سفره، وما تركه من ملاحظات في مفكرات جيبه التي عثرت عليها في مكتبه يمكن توثيقه بالترتيب التاريخي لكل سفر أو رحلة.

السفر الأول والأصعب ـ في حياته مغادرته إندونيسيا وطن مولده ـ إلى وطنه الأصلي **حضرموت** وهو في سن العاشرة من عمره سنة ١٩٢٠م، ثم كانت مغادرته **حضرموت** إلى **عَدَن** في ١٩٣٢/٦/٢٥م، بادئاً رحلة عمره ومكث في **عدن** عشرة شهور حافلة

بالنشاط الفكري والأدبي وأثناء وجوده في **عدن** سافر بحراً إلى مدينة **هرقيسة بالصومال** مع صديقه الأعز **الأستاذ محمد علي لقمان** رائد النهضة الفكرية والصحفية في **عدن** آنذاك، ثم زار **الحبشة**، واطلع على أوضاع الجالية الحضرمية الكبيرة في أديس أبابا.

ومن **عدن** سافر بحراً إلى **جدة** بادئاً رحلته **للمملكة العربية السعودية** التي استمرت قرابة عام، وقد نشرت جريدة «**صوت الحجاز**» خبر وصوله في عدد الاثنين ١١ من أبريل١٩٣٣م في الصفحة الأولى بعنوان: «**وصول شاعر حضرموت الأكبر**». وغادر **الحجاز** إلى **مصر** بحراً عبر **ميناء** ينبع على الباخرة **الطائف** بعد عام حافل أمضاه بين أدباء **المملكة العربية السعودية** التقى فيه **بالملك عبدالعزيز** وبولديه الأميرَيْن: **سعود** ولي العهد، و**فيصل** نائب الملك في **الحجاز** وترك في هذه المرحلة تراثاً أدبياً قيماً أهمه ديوان شعري بعنوان:«**صبا نجد وأنفاس الحجاز**» ومحاضرات ـــ مذكرات ـــ مراسلات مع الأدباء.

وصل باكثير مصر في ١٩٣٤م، واستقر في القاهرة ولم يغادرها إلا إلى السودان في رحلة سنة ١٩٤٦م مع مجموعة من زملائه بمدرسة الرشاد الثانوية بالمنصورة التي كان يعمل بها معلماً للغة الإنجليزية، فكان أن كتب عن السودان وقضاياه ثلاث مسرحيات قصيرة هي: (**ملك السودان**) نشرت في ١٩٤٦/١١/٩م و (**بالرفاء والبنين**) نشرت في ١٩٤٧/١/٢٥م و(**الحاجز المستحيل**) نشرت في ١٩٥٤/٣/٩م.

وفي سنة ١٩٥٤م سافر إلى **فرنسا** في بعثة دراسية لمدة شهرين مع عدد من أدباء **مصر** منهم **الشاعر صالح جودت، والروائي محمد عبدالحليم عبدالله** حيث غادر **القاهرة** جواً إلى **باريس** في ٢٤من يوليو١٩٥٤م، وعاد بحراً من **مرسيليا** إلى **الإسكندرية** في ٩ من أكتوبر١٩٥٤م. وكان من نتاج تلك الرحلة عدد من القصائد بعضها بالفرنسية التي أتقنها، كما ترجم أيضاً بعض مسرحياته إلى الفرنسية مثل (**سر شهرزاد**) و(**مأساة أوديب**) و(**هاروت وماروت**)، وصفحات من مذكرات ووجدانيات.

وفي سنة ١٩٥٦م ترأس وفد رسمي للأدباء المصريين زار **الاتحاد السوفيتي ورومانيا** ضم **د.شوقي ضيف**، و**محمد سعيد العريان**، و**عبدالرحمن الشرقاوي**، و**د.محمد مندور**، وغيرهم.

وفي أكتوبر ١٩٥٨ زار **الاتحاد السوفيتي** و**النمسا ورومانيا**، وكان الجزء الرسمي منها إلى **موسكو** و**الجمهوريات الإسلامية** التابعة للاتحاد السوفيتي آنذاك، حيث شارك في (**مؤتمر أدباء آسيا** و**أفريقيا**) الذي انعقد **بطشنقد** وبعد انتهائه غادر بمفرده إلى **النمسا ورومانيا**، وقد استغرقت هذه الرحلة النصيب الأكبر من هذه المذكرات.

وجدت هذه اليوميات في كراستين من كراسات «نوتة محاضرات» أحدها عنابي وثانيها أخضر غامق مقاس ١٦×٢٢,٥٠سم كتبها جميعها بقلم حبر أزرق غامق، وهو غير اللون الذي اعتاد أن يكتب به، وأقصد به اللون الأخضر الذي كتب به معظم مسودات مسرحياته.

وأظن أنه كتب هـذه اليوميـات لنفـسه دون نيـة نـشرها، وذلك يعود في رأيي لسببين: أولهما أنه لـم يكتبهـا بلغتـه الأدبيـة الرفيعة التي اعتدناها منه بل ترك نفسه علـى سـجيتها فـي كتابـة الوصف كأنه يكتب رسالة لصديق أو يتحـدث إليـه. وثانيهمـا أنـه روى في هذه اليوميات من التفاصيل الشخـصية ممـا لا يمكـن أن يرويه فيما لو كان في نيته نشرها. ويبقـى الاحتمـال الوحيـد فيمـا لو كانت لديه نية النشر لهذه اليوميات في كتـاب أنـه كـان سـيعيد كتابتها وينقحها ويحذف منها ما لا يلزم القارئ.

ولهذا كان منهجي في إعداد هـذه اليوميـات للنـشر القيـام بعدة خطوات: أولها قراءتها قراءة دقيقـة واعيـة ووضـع عنـاوين لموضوعاتها حتى يـسهل علـى القـارئ متابعتهـا. وثانيهـا عـدم التدخل بالحذف إلا في أضيق الحدود، وذلك بحـذف مـا اعتقـد أن الكاتب لن يبقيه فيما لو أراد إعداد هـذه المـذكرات للنـشر وذلـك لمعرفتي بتفاصيل حياته وطريقـة تفكيـره. وثالثهـا عملـت قـدر المستطاع التعريـف بـالإعلام والأمكنـة التـي وردت فـي هـذه اليوميـات. ومـن الـصعب التعريـف بهـا جميعـاً إذ أن بعـض الأسماء لا وجود لها في معاجم التراجم.

وأرى أنه لزاماً علي أن أعترف أنني لـم أسـتطع القيـام بكل ما يقتضيه إعداد هذه اليوميـات بـدافع رغبتـي الملحـة فـي

التعجيل بنشرها في هذه السنة التي يحتفل فيها الأدباء العرب والمسلمين بباكثير بإقامة الاتحاد العام للأدباء والكُتّاب العرب ورابطة الأدب الإسلامي العالمية مؤتمراً دولياً عنه بمقر اتحاد كُتّاب مصر بقلعة صلاح الدين بالقاهرة في القاهرة في الفترة من ١-٤ مايو ٢٠١٠م بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لميلاده ـ رحمه الله ـ.

وحسبي أن أضع هذه المادة بين يدي القراء للاستمتاع بتجربتها وبين يدي الباحثين لدراستها لأنها تضيف لوناً جديداً إلى أدب باكثير الغزير والمتنوع الألوان، وهو أدب الرحلات.

محمد أبوبكر حميد

مايو ٢٠١٠م

من طشقند إلى سمرقند

في ١١ من أكتوبر ١٩٥٨م انتهى رسمياً مؤتمر أدباء آسيا وأفريقيا الذي انعقد بطشقند بدعوة من اتحاد الكتاب السوفيات، وفي قاعة تشايكوفسكي[١] يوم انفضاض المؤتمر، حضرنا وليمة غداء أقامها لنا الوفد الصيني برئاسة الأستاذ ماوتون، وهو قصاص كبير، ومن أشهر قصصه (منتصف الليل) مترجمة إلى اللغة الإنجليزية، ومجموعة أقاصيص أخرى مترجمة إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وهو رجل وديع خفيض الصوت كثير التواضع كعادة الصينيين، وحتى في خطابه الذي ألقاه في الحفلة كان كأنه لا يجيد الخطابة. وقد ألقيت كلمات مناسبة في أثناء الطعام كعادة السوفيات إذ لا تخلو مآدبهم من خطب - من كلا الجانبين -، وذكر في خطابه بعض الصلات القديمة التي كانت تربط العرب بالصين، وقال:إنه هو نفسه من منطقة يونان التي سكنتها جالية من العرب.

---

(١) تشايكوفسكي (١٨٤٠ـ ١٨٩٣م): أعظم موسيقي البالية في روسيا وأشهرهم على مستوى العالم.

وفي أثناء هذه الدعوة جاءت لي وللأستاذ خليل هنداوي[١] دعوة من حكومة جمهورية طاجكستان لزيارة بلادها وحضور الاحتفال العظيم بذكرى مرور ألف ومائة سنة على وفاة شاعرهم الأكبر الذي يعتبرونه آدم الشعراء وأول شاعر كتب باللغة الطاجيكية وهو أبو عبد الله جعفر بن محمد رودكي[٢]. وكنا نعتزم زيارة جمهورية جورجيا فلم يسعنا إلا أن نقبل هذه الدعوة الشخصية، وقلنا

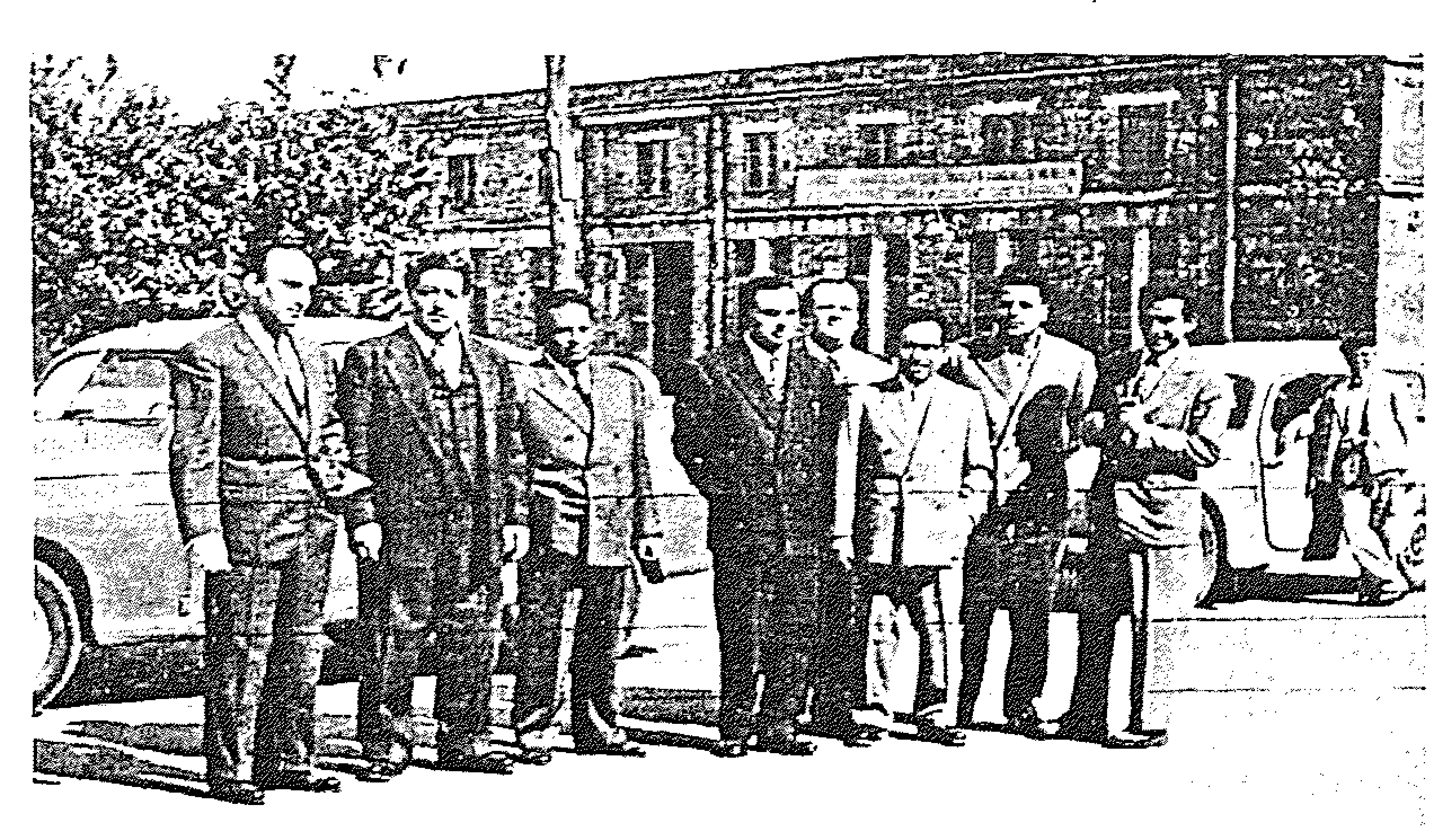
---

(١) خليل محمد هنداوي: (١٩٠٦ــ ١٩٧٦م) كاتب وشاعر وباحث وصحفي مواليد صيدا بلبنان ثم انتقل إلى سوريا حيث عمل بالتدريس. رأس اتحاد الكتاب بحلب، وقلما صدرت مجلة أو جريدة دون يكون له في صفحاتها نصيب. من مؤلفاته كتاب «صفحة من حياة رايس» ومسرحية «هاروت وماروت» وقصص «ارم ذات العماد»، و«دمعة صلاح الدين».

(٢) رودكي، أبو جعفر: (٩٤١) أول شعراء الفرس الذين عرف لهم ديوان. ولد في قرية رودك من قرى سمرقند، وحفظ القرآن وتعلم الموسيقى، وكان حسن الصوت، كفيفا. التحق ببلاط السامانيين، وخاصة نصر بن أحمد (٩١٣-٩٤٣)، وانتقل معه في رحلاته، وأثرى ثراء عظيماً. وتروي كتب التراجم قصته مع الأمير نصر الذي أخذ يتنقل بين بادغيس وهراة أربع سنوات، فاشتاق الجند ورجال الحاشية إلى بخارى حيث أولادهم، وطلبوا إلى رودكي أن يضع لحنا يحرك السلطان إليها: «فإن قلوبنا قد أفعمها الشوق إلى أولادنا، وأرواحنا بلغت الحلقوم حنينا إلى بخارى)، فقبل رودكي، ووضع قصيدته المشهورة: « ما يزال يهب علينا عرف جيحون، وما يزال يهب علينا عرف الحبيب»، ثم أخذ الرباب وشرع ينشدها في نغمة المشتاق، فلما بلغ رودكي: «أن الأمير وبخارى البستان، والسرو لا يزال متجهاً نحو البستان)، بلغ تأثر الأمير أن نزل عن التخت، وأسرع غير منتعل فركب فرس النوبة، وتوجه شطر بخارى. وقد ظل ديوان شعره غير مكتمل، جمع جزءاً منه ونشره سعيد نفيسي، مع دراسة مفصلة. ويقال إن رودكي نظم ترجمة فارسية لكليلة ودمنة. وقد شجع السامانيون رودكي، فقد عمدوا إلى إحياء الآداب الفارسية وإبراز اللغة الفارسية، فترجموا الآثار العربية الهامة كالطبري، وتاريخه وتفسيره، وشجعوا الشعراء، فكان أن أتيحت لهم عبقرية رودكي في هذا الميدان.

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ ﴾ (البقرة:٢١٦)، وهكذا تقرر سفرنا إلى طاجكستان في اليوم التالي لانفضاض المؤتمر.

وكنت قد توعكت ولزمت سريري يومين من أيام المؤتمر وأحدهما اليوم الذي خصصوه للراحة قبل إصدار القرارات. زارتني الطبيبة في خلالها ثلاث مرات، وأعطتني دواء يشبه الإسبرين كما أوصت بأن تعمل (كاسات هواء) مرتين كان لهما أحسن الأثر على صحتي، فخف عني أثر البرد الذي أصابني، والذي ظهر في صورة سعال شديد مع انحطاط في القوى. وكنت أخشى من تلبية دعوة طاجكستان أن يعاودني المرض إذ مازالت آثاره واضحة عندي إذ ذاك، ولكنني توكلت على الله ورأيت أن من الواجب تلبية الدعوة إلى هذه الجمهورية الإسلامية.



باكثير في رحلة سنة ١٩٥٦م لرومانيا وروسيا ويظهر معه محمد سعيد العريان ود.محمد مندور.

حــوار مــع مُلْحِــدة:

غادرنا الفندق في طشقند في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر إلى المطار، حيث ركبت طائرة متوسطة ذات محركين ذكّرتني بالطائرة التي سافرنا بها من طشقند إلى سمرقند في رحلتنا الأولى، وكانت الرحلة ممتعة لم نشْكُ منها شيئاً.

جلست إلى جانبي في الطائرة فتاة روسية تدعى إيليني على جانب من الجمال، ولها قسط من الأناقة غير كثير. وبالتحدث إليها عرفت أنها تعمل مترجمة في أثناء المؤتمر، وأنها تقيم في ستالين آباد(١) عاصمة طاجكستان حيث تعمل مدرسة لبعض اللغات الأجنبية واللغة البرتغالية بالذات، وأن أصلها من موسكو.

وتشعب الحديث بيننا باللغة الفرنسية. سألتني عن أعمالي الأدبية وعن حالة المسرح في مصر وعدد المسارح ..إلخ. فشرحت لها كل ذلك في إيجاز. وألقيت عليها أنا بدوري بعض الأسئلة، وكان أهمها أن سألتها: هل تؤمنين بالله؟ فأجابت بالنفي، فلم أظهر أي دهش، بل واصلت سؤالي عن السبب، فقالت: إن ذلك وهم من الأوهام وليس بحقيقة، وإنه يجب على الإنسان ألا يتعلق بمثلُ هذا الوهم لأنه يعطل من سيره نحو التقدم ويحول بينه وبين تقرير مصيره بنفسه... إلخ.

---

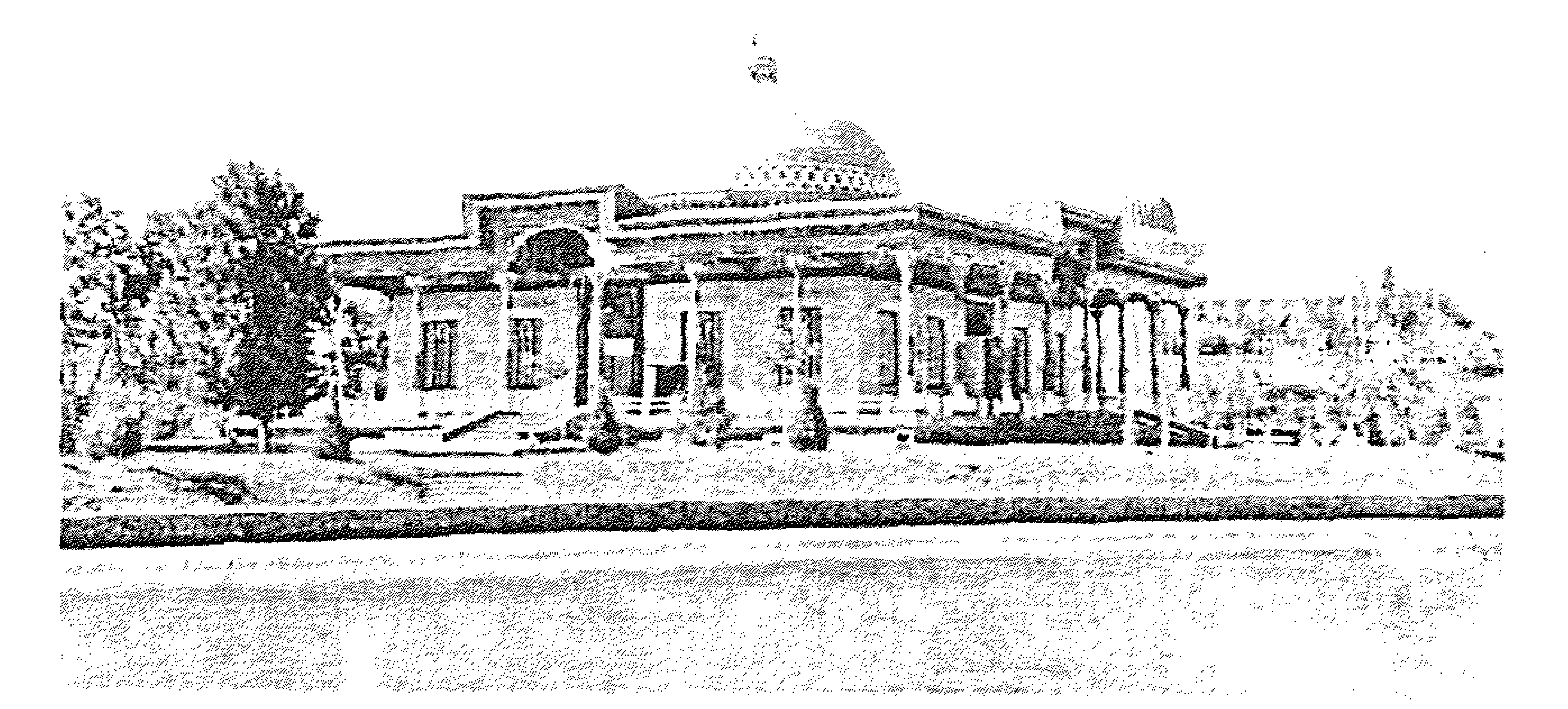
(١) ستالين آباد: اسمها الأصلي دوشنبه عاصمة طاجكستان وفي عهد الدكتاتور الشيوعي ستالين سنة ١٩٢٩م أطلق عليها اسم ستالين آباد. وعندما قاد خروشوف الحملة ضد الستالينية سنة ١٩٦١م أعيد للمدينة اسمها الأصلي. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٩١م أصبحت عاصمة جمهورية طاجكستان المسلمة المستقلة

فقلت لها: وما يدريك أنه وهم من الأوهـام وألا يكـون حقيقـة تجهلينها؟ انظري إلى قوة الكهرباء هل كان الناس يعرفونها قبل خمـسين سنة؟ فقالت: لا. فقلت لها: أليست اليوم حقيقة ملموسة؟ فكيـف نـستطيع اليوم أن نقطع بأن وجود الله وهم؟ وقلت لها أيضاً: ثم ماذا يمنع المـؤمن بالله من تقرير مصيره بنفسه؟ إنه مهما يعمل في طريق التقدم والرقي فلن يصطدم أبداً بإيمانه. إن الإيمان بالله لن يحول بينه وبين أن يفعـل مـا يريد. بل لماذا لا يعتقد هذا المؤمن بأن الله الذي أوجد هذا الكون وجعـل له سنناً ونواميس لم يظهر للإنسان منها إلا القليل، لأنه يريد من الإنسان أن يعمل ويجد لاكتشافها؟ أنا معك ياسيدتي في أن كثيراً من الطقوس الدينية ــ ومعظمها من صنع القسس ــ كانت في الماضي تحول دون التقدم ولا تتفق مع طموح الإنسان الجديد، ولكن ذلك ليس من جـوهر الدين الذي يتفق مع الإيمان بالعلم ويعده متمما للإيمان الله. ثم ختمـت قولي لها مداعباً: إني أعتقـد أن لينـين[١] لـو رأى النجـاح الـذي أحرزتموه اليوم لأطمأن إلى أنه من المستحيل القضاء عليه. ولما رأى بأسا أن يعترف بوجود الله، فليس في الإيمان بالله مـا يتنـاقض مـع تطبيق هذا النظام الاشتراكي المعمول به في بلادكم، بل يعززه ويقويه ويبارك خطاه. فضحكت الفتاة على شيء من التردد والحياء ففهمـت أن لسان حالها يقول لي: هذا لا يهمني كثيراً !

---

(١) لينين: (١٨٧٠ــ ١٩٢٤م) مؤسس الحزب الشيوعي في روسيا، وقائد ثـورة أكتوبر سنة ١٩١٧م التي أقامت أكبر دولة شيوعية كبرى في العـالم انتهـت بفشل تطبيق النظرية الشيوعية. وتفكك هذه الدولة ونهايتها على يـد الـرئيس جورباتشوف.

ولما لمست أن لديها رغبة في الاستمرار بالاستماع إلي ما، قلت لها: لندع الآن البحث في أن وجود الله حقيقة أم لا. أليس الإيمان بالله أصلح للبشرية من الكفر به؟ أليس في الإيمان باليوم الآخر - مثلاً- سلوان للإنسان يتقوى به في هذه الحياة القاسية القصيرة الأجل؟ سيعرف الإنسان على الأقل أنه سيجتمع يوماً بأبويه اللذين ماتا وبأحبائه المتوفين ! ألا ترين أنه من القسوة المؤلمة على الإنسان أن يعتقد بأن مَن يفارقهم من أحبائه لن يقابلهم أبد الآبدين؟ واستشهدت لها بقول فولتير[1] إذ يقول: «لو لم يكن وجود الله حقيقة لكان علينا أن نوجده»!



وعند مغادرتنا طشقند دار بيني وبين فتاة روسية ملحدة حوار عجيب..!

(١) فوليتر: (١٦٩٤ـ ١٧٧٨م) فيلسوف ومفكر فرنسي، وكاتب مسرحي نال شهرة كبيرة. أدت به أفكاره المتحررة من قيود الكنيسة إلى السجن، وعندما مات رفضت الكنيسة دفنه وفق الطقوس المسيحية. اطلع في آخر حياته على ترجمة القرآن الكريم وأعجب بالإسلام وكتب مسرحية عن الرسولﷺ بعنوان: «محمد» الأمر الذي زاد من غضب الكنيسة عليه.

لقاءات طاجكستان

واتصل بنا في الرحلة رجل كهل لا أذكر اسمه تبين أنه من الكتاب الروس الذين أحبوا بلاد طاجكستان منذ صغره، وعني بدراستها وبحث أمورها، وله مجموعة قصص بين طويلة وقصيرة عن حضارتها. قال لنا انه يعرف عنها أشياء كثيرة، وقد مسحها بالسير على الأقدام وبركوب الخيل وطاف بأرجائها وقراها قرية قرية منذ أكثر من ثلاثين عاماً، ظل خلالها يواصل زيارتها كل عام. والحقيقة أنه رجل لطيف ظريف يلذ له أن يتحدث عن طاجكستان بحب وشغف، وقد تطوع فشرح لي المناطق والجبال والأودية التي كنا نمر بها في الجو وارتفعت الطائرة إلى أكثر من أربعة آلاف متر ودارت حول الجبال العالية لاتقائها حتى أفضينا إلى وادٍ فسيح هو «وادي أسار» حيث تقع طاجكستان وعاصمتها ستالين آباد.

وما أن هبطت الطائرة بنا حتى وجدنا المستقبلين من الطاجيكيين يحملون لنا باقات الزهور فأعطوا كل واحد منا باقة. وحملتنا السيارات إلى نزل جميل تحيط به الحدائق من كل جانب مما يذكرني بذلك النزل الذي أقمنا به في طشقند في رحلتنا الأولى ، إلا أن هذا النزل أفخم وأجمل.

وكان معنا في الرحلة الأستاذ محمد صادق بحر العلوم[1] الشاعر العراقي الذي ظل سجينا في عهد حكومة عبدالكريم قاسم[2] المستبدة مدة طويلة، وقد حضر إلى المؤتمر في أواخر أيامه، وانضم إلى الأستاذ عبد الرزاق محيي الدين الذي رأس وفد العراق. والأستاذ بحر العلوم رجل صافي القلب طيب السريرة، ويشعر بشيء من الاستحياء، ولعل ذلك لما لحقه من الأذى الطويل، ولأنه لا يعرف أي لغة أجنبية فكان قليلاً ما يتحدث وإذا تحدث كان حديثه المفضل عن أخبار سجنه وتعذيبه، فهو يروي في ذلك نوادر كثيرة لا نهاية لها.

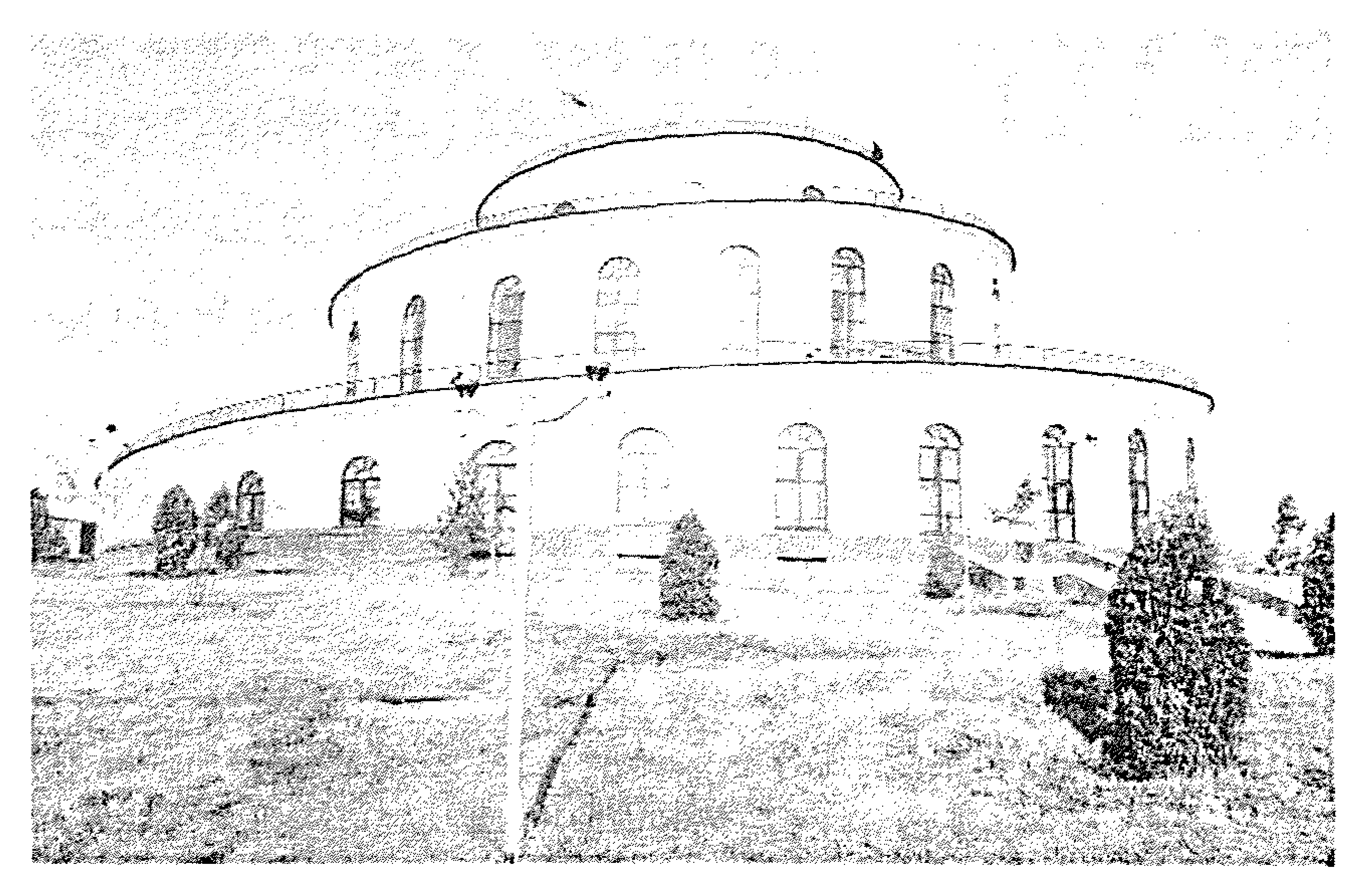
ونزلنا نحن الثلاثة في حجرة واحدة متسعة بها ثلاثة سرر، ومنذ وطئنا أرض طاجكستان شعرنا بارتياح كبير لصفاء الجو واعتداله فهو أقل برودة من جو طشقند، والحفاوة التي قوبلنا بها أعظم من الحفاوة في طشقند، لأن عدد الوفود هنا قليل بالنسبة لوفود طشقند فاستطاع المنظمون أن يحتفوا بنا أكثر، ويبالغوا في إكرامنا، فقد خصصوا مثلا سيارة خاصة لوفد الجمهورية العربية المتحدة، أي لي أنا والأستاذ الهنداوي، وسيارة أخرى لوفد الجمهورية العراقية أي للأستاذ بحر العلوم وحده.

---

(١) محمد صادق بحر العلوم (١٨٩٧ــ ١٩٧٩م)، باحث وقاضٍ من فقهاء الشيعة بالعراق، عاش بين النجف والبصرة وله عدة مؤلفات منها: (مصدر التشريع لنظام الحكم في الإسلام)، و (دليل القضاء الشرعي).

(٢) عبدالكريم قاسم (١٩١٤ــ١٩٦٣م) قاد الانقلاب على النظام الملكي في العراق في ثورة ١٤ من يوليو ١٩٥٨م وقتل الملك فيصل الثاني ونكل بالوطنيين والقوميين وسحلهم .انتهى حكمه بقتله وتمثيل الشعب بجثته سنة ١٩٦٣م.

وقد نزل معنا في المسكن نفسه وفد الصين، ووفد أنجولا، ووفد تشيكوسلوفاكيا، وألمانيا الشرقية، ورجل صحفي من البريطانيين يعمل مراسلاً لجريدة أمريكية في نيويورك، وهذا الصحفي قد زار مصر في أثناء مؤتمر التضامن الآسيوي الإفريقي، وهو يشكو كثيراً من انقطاع أخبار العالم عنه في أثناء إقامته بالاتحاد السوفياتي، ثم أخذ يعلل ذلك ويعتذر له بأن ذلك ربما يكون أفضل للرجل العادي حتى لا يثقل ذهنه بتفاصيل أخبار البلاد الأخرى، كما علق على ذلك بالنسبة لأمريكا قائلاً: إن الأمريكيين مثلاً متخمون بالأخبار والتفاصيل التي يغلب على أكثرها الكذب والتزوير، فلا أدري أهو ينقد الاتحاد السوفياتي أم يقرظه؟



في طاجكستان شعرنا بارتياح كبير لصفاء الجو واعتداله فهو أقل برودة من طشقند

وفي الوفد الصيني تعرفت على رئيسه الأستاذ ماوتون، وتعرفت بأحد الشخصين اللذين يمثلان أنجولا البرتغالية وهو شاب لطيف على جانب من الثقافة يدعى (viriato da cruy) فهمت من حديثه عن نفسه أنه لا يستطيع العودة إلى بلاده، وأنه يقيم الآن في ألمانيا الغربية في مدينة فرانكفورت، ويعمل في دار للترجمة والنشر ويقيم في بيت سيدة تعمل هي أيضاً مترجمة وتهتم بالأدبيات الإفريقية، ولما علم أن عندي نسخة من مسرحيتي (مأساة أوديب)[١] عرض علي متفضلاً أن يقوم هو بتوصيلها إلى الدار التي يعمل فيها لينظر في ترجمتها إلى اللغة الألمانية ونشرها في كتاب أو في إحدى الصحف قائلاً: إن ذلك قد يفتح لها الباب لإخراجها على أحد المسارح، فوعدته بتسليمه النسخة إلا أنني لقيت بعد ذلك شاباً آخر من ألمانيا الشرقية اسمه الدكتور يوسف شماخر أخذ يسألني عن آثاري الأدبية وهل عندي منها شيء؟ فلما أخبرته عن هذه المسرحية ألح علي أن أعطيها إياه ليترجمها هو أو يكلف أحداً بترجمتها في الدار التي يعمل فيها أيضاً من دور ألمانيا الشرقية، فتحيرت لأيهما أعطي المسرحية ولم أبت في ذلك حتى الآن[٢].

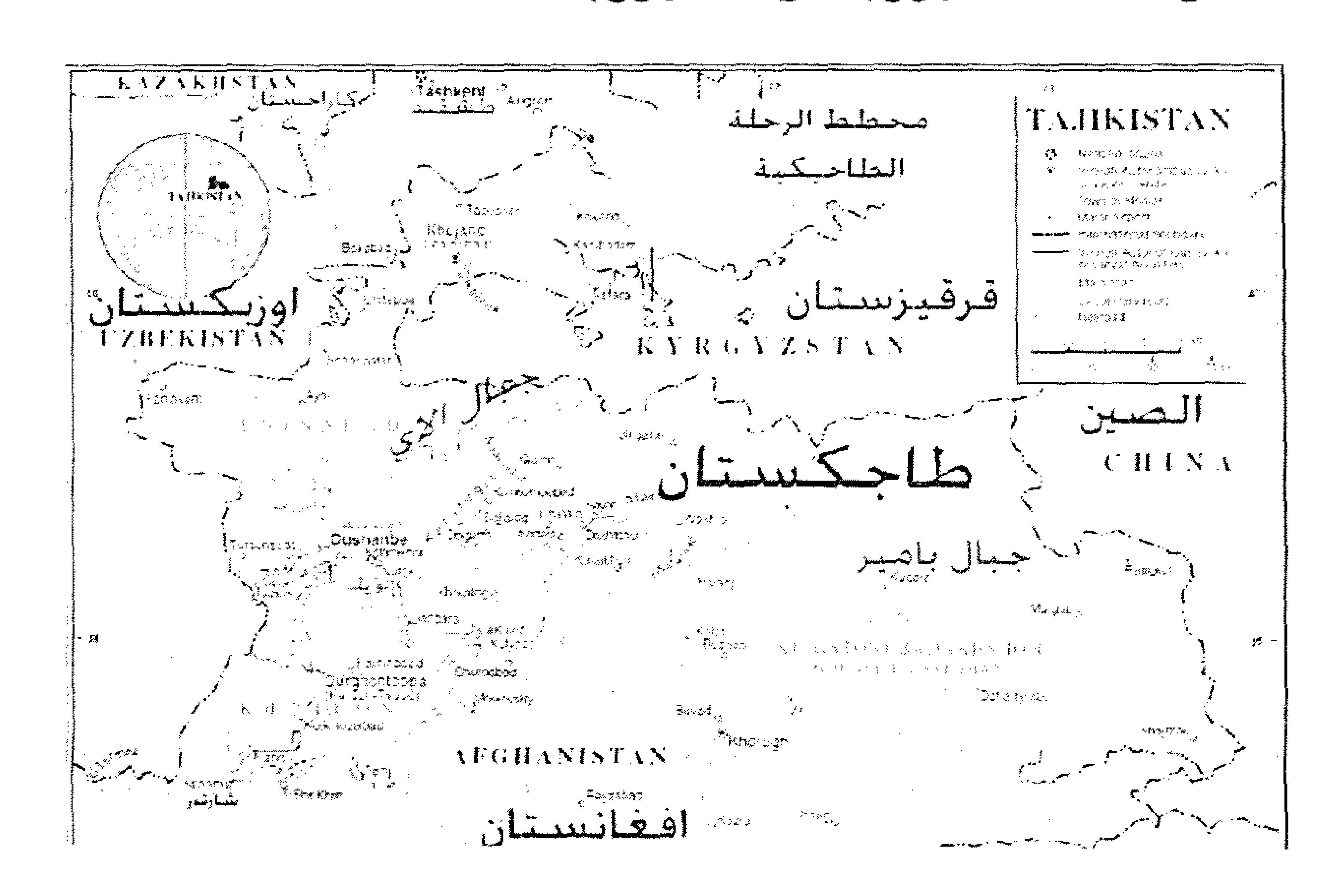
---

(١) مأساة أوديب: صدرت سنة ١٩٤٩م، أعاد فيها صياغة الشكل الأسطوري فنياً بعد أن حررها من عنصر الخرافة الوثنية، فجعل النبوءة التي تقول بقتل أوديب لأبيه وزواجه من أمه من تدبير الكاهن وليس من وحي الإله.

(٢) لم أجد بين أوراقه ما يدل أنه أعطاها لأحدهما ولكن هذه المسرحية ترجمها إلى اللغة الفرنسية بنفسه ولا تزال النسخة الفرنسية مخطوطة.

في مسرح ستالين آباد

وبعد أن استرحنا قليلاً وتغدينا ذهبنا في الساعة الثامنة إلى المسرح الكبير في ستالين آباد حيث شاهدنا قصة راقصة (باليه) باسم (باليه ليلى والمجنون)، مأخوذة طبعاً من القصة العربية الخالدة، وقد كتب القصة أحد أدباء طاجكستان، وقام بتلحينها موسيقار روسي كبير مولود في مدينة عشق أباد، إلا أنه تعلق بطاجكستان منذ تخرج من الكونسوفاتوار بموسكو فأخذ يجمع ألحانا فولكلورية حتى جمع منها نحو خمسمائة لحن ثم استوحاها في كثير من أعماله الموسيقيّة، وهذا الباليه يعتبر من أهم أعماله وقد نال جائزة ستالين واعتبر فنان الشعب، وهو أكبر لقب يحصل عليه الفنان في بلاد السوفيات وأقل منه درجةً لقب فنان الشعب لجمهورية من الجمهوريات.



شاهدنا الباليه فشهدنا عجباً عجاباً في الديكور المعجب والأداء والموسيقى التي بلغت حد الروعة، وفي التمثيل أيضاً وفي تحريك المجموعات وتوزيع الإضاءة بحيث استطعنا أن نفهم بسهولة قصة الباليه دون كلمة واحدة تنطق على المسرح وإنما يعبر عن كل شيء بالحركة وبالإيحاء.

وكان عدد الممثلين والممثلات والمؤدين كبيراً جداً لعله لا يقل عن مائة شخص ورأيت فيها أعاجيب من فن الرقص المعبر الجماعي والفردي، وعدنا من الحفل حوالي الساعة الحادية عشرة فتعشينا عشاء خفيفاً لطيفاً ثم ذهبنا إلى مراقدنا متعبين.

الطراز إسلامي والحروف عربية:

وفي اليوم التالي ذهبت في جولة سريعة حول المدينة، فزرنا دار كتبها، واستادها، والبحيرة الصناعية التي حفرها الشباب خارج المدينة لتكون مغتسلاً ومسبحاً لهم في الصيف حيث وصلوها بالنهر الذي يخترق المدينة. وقد نظرنا إلى الجبال العالية فوجدناها مكللة بالثلوج، ومع ذلك فقد قيل لنا: إن درجة الحرارة في الصيف تبلغ أربعين في الظل. والمدينة جميلة كثيرة الحدائق والأشجار على طول الطرق، ومساكنها منخفضة تشبه مساكن طشقند، والطراز فيها أيضاً طراز إسلامي إلى حد كبير لعله يشبه الطراز الفارسي، فقد اكتشفنا أن اللغة الطاجكية هي اللغة الفارسية نفسها مع تغيير بسيط في بعض الكلمات وفي النطق بحيث يمكن أن يتفاهم الذي يعرف الفارسية مع الطاجكيين بسهولة. وكان أول من كشف هذه الحقيقة صاحبنا الأستاذ

بحر العلوم الذي فوجئ بأنه يفهم لغتهم لأنه يعرف قليلاً من الفارسية، فاستغنى بذلك عن المترجم، ولاحظنا أيضاً أنهم لم يتركوا الكتابة بالحروف العربية على الرغم من أن الكتابة الرسمية بالحروف الروسية أسوة بغيرها من الجمهوريات، فكان كثير من الصحف والمجلات تصدر بالحروف العربية كما رأيت بعض اللافتات على الواجهات بهذه الحروف، فشعرت بارتياح كبير، ولكن الحروف التي تعلم في المدارس هي الحروف الروسية.

عند مدفن الشاعر رودكي:

وبعد أن تناولنا غداءنا مسرعين دلفنا إلى مكان الاحتفال بذكرى الشاعر رودكي في المسرح نفسه الذي شاهدنا فيه (باليه مجنون ليلى)، وقد امتلأت القاعة بالحاضرين، ووضعنا نحن مع رؤساء الوفود من الاتحاد السوفياتي وغيره على منصة الخطابة حيث سلطت علينا الأضواء الكاشفة وصفقت الجماهير ترحيباً بالضيوف، وألقيت كلمات التعريف بالشاعر والتحيات من الوفود، وكنت قد أعددت قصيدة قصيرة في الموضوع فلما نودي باسمي نهضت إلى المنصة فألقيتها بعد أن ارتجلت كلمة قصيرة في تحية الاحتفال باسم الجمهورية العربية المتحدة، وقد جاء المترجم الروسي السيد صيني مارون وهو مصري الأصل أبوه كان من سكان الإسكندرية فترجم القصيدة بعد إلقائي إياها إلى اللغة الروسية فصفق لي الحاضرون طويلاً، وطلبها مراسلو الصحف الروسية لنشرها في صحفهم وكان ذلك يوم ١٥ من أكتوبر ١٩٥٨م في ستالين آباد وهذا نصها:

ليهنكَ روكــي أن يكرّمــك الــشعب	فإنك منه الروح والعقــل والقلــبُ
ألستَ حياة الشعب، منك اســتمدها	تعانق فيها الجدُّ والعزُّ والخــصبُ؟
ألــستَ لــه عقــلاً ينيــر ســبيله	إلى حيثُ يستهويه المطلب الصعب؟
إلى حيثُ يــستهويه إنــشاءُ عــالمٍ	يسود السلامُ فيه والخيــر والحُــبُّ
ألستَ له القلبَ الذي جاش بــالهوى	كأجمل ما غنّى به عاشــقٌ صَــبُّ
فأقبست شعب الطاجكــستان جــذوةً	من الحُبّ يعلو نورُها الدهرَ لا يخبو
بشعرك يا روكــي، شــعرك وحــده	بلغت مقامــاً لا تطاولــه الــشعبُ
أتتك وفود الشرق والغرب تحتفــي	بذكراك حتى وُحّد الشرق والغــرب
يضمها في عيــد ذكــراك منــصلٌ	من الشعر فيّاضٌ هو الكوثر العذب

وقد لاحظت أن الجمهورية العربية المتحدة بل العــرب علــى العموم محبوبون في هذه البلاد أكثر من غيرهم من الوفــود وكــانوا يحيوننا دائماً بكلمة (سلام عليكم) كما لاحظنا أن عدد الكلمات العربية في اللغة الطاجكية أكثر من عددها في اللغة الأوزبكية، وقد جلس عن يميني في الحفل في صدر المجلس مندوب أفغانستان، وعلي يــساري الكاتب الروسي الكبير تيخونوف[١]، ومن حــسن حظــي أن وجــدت أفغاني يفهم العربية وإن كان فيها شيء من العسر، فاستطاع أن يشرح

---

(١) تيخونوف: (١٨٩٦ــ ١٩٧٩م) كاتب وشاعر وروائي روسي تأثرت أعمالــه الإبداعية الأولى بأحداث الحرب العالميتين الأولى والثانيــة، وقيــام الثــورة البلشقية في روسيا. رغم شهرته الكبيرة إلا أن شيئاً من أعماله لم يترجم إلــى العربية فيما أعلم.

لي كثيراً مما يدور في المجلس إذ لا يوجد جهاز ترجمة إلا باللغة الروسية فقط، وقد حدثني الأفغاني أن الشاعر رودكي معروف في الفارسية، وأنه يسمى آدم الشعراء لأنه أول من كتب باللغة الطاجكية (الفارسية المصفاة من الكلمات الأجنبية أي العربية) وعقب على ذلك قائلاً: هذا لقب لا داعي له، وقال: إن رودكي هذا نَظَم ثلاثمائة ألف بيت ولكن لم يبق منها غير ثلاثمائة بيت أو خمسمائة على الأكثر، وأن ابن الأثير[1] في تاريخه الكامل قد ذكره باختصار، وأنه كان يعيش في عصر المتوكل[2] وتوفي بعد ثلاثمائه أي في القرن الرابع الهجري، وأنه ولد في هذه النواحي، وتنقل بين سمرقند وبلخ، ولكنه لم يرحل إلى البلاد العربية، وأنه كُفّ بصره في آخر أيامه· واستمر الاحتفال حوالي ست ساعات جعلت في أثنائها استراحة قصيرة فشعرنا بالإرهاق، ولذلك لم أذهب إلى الحفلة الموسيقية في الساعة التاسعة، وفضلت البقاء بالمنزل حيث أكتب هذه الكلمات.

وفي اليوم الثاني نزلنا في ستالين آباد، فذهبنا إلى أكاديمية العلوم حيث عقدت جلسة خاصة للاحتفال أُلقيت فيها دراسات عن الشاعر رودكي سجلتها في المذكرة، وانتهت بشرح عن الرسام السوفياتي الذي رسم صورة للشاعر عن طريق دراسة جمجمته، وقد

(١) ابن الأثير: (١١٦٠ـ١٢٣٣م) مؤرخ عربي معروف صاحب كتاب (الكامل في التاريخ).

(٢) المتوكل (٨٢٢ـ ٨٦١م) عاشر الخلفاء العباسيين حكم من ٨٤٧ إلى ٨٦١م، عرف بمحاربته للمعتزلة وتمسكه بالسنة.

اشترك مع جماعة من العلماء والباحثين في اكتشاف قبر الشاعر بمعونة من الشاعر صدر الدين العيني الذي توفي سنة ١٩٥٣م، والذي يعد حجة ومؤسساً للأدب الطاجيكي الحديث، وهو الذي دلهم على موضع قبره في قرية صغيرة تلتقي فيها خمسة أنهر على بعد أميال من ستالين أباد، وتقع بينها وبين سمرقند.

وكان شرح الأستاذ ممتعاً جداً بواسطة الفانوس السحري، وكيف أنه درس أدب رودكي أولاً فعرف منه أنه كُفّ بصره في آخر أيامه وأنه سقطت أسنان فكه الأسفل كلها، فقال لنفسه: إذا وجدنا الجمجمة على هذه الهيئة بدون أسنان الفك الأسفل فإن ذلك علامة صادقة على صحة أن العظام عظامه، ونبشوا القبر ووجدوه مسجى على الطريقة الإسلامية (اللحد) مع وضع يديه إحداهما على الأخرى بهيئة المصلي، ولدهشتهم وجدوا هذه العلامة المميزة سقوط أسنان الفك الأسفل وآثار سمل في عينيه، مما قطع أن القبر قبر رودكي.

وقبل ذلك حاضرنا في الطريقة الألمانية لهذا الفن فن الرسم بواسطة الجمجمة، ولم يقتصر فن الرسم على وجهه فقط، بل رسم أيضاً صدره من فقار ظهره، وقد تبين أن عظامه نحيفة مائلة إلى الخلف، مما يدل على أنه عاش أعمى مدة طويلة، والأعمى في الغالب يرفع رأسه إلى ناحية الخلف، إلى آخر التفاصيل الممتعة في الاستنساخ والاستدلال على أن هذه العظام هي عظام رودكي.



ألقيت في طاجكستان كلمة الجلسة باسم سبعين مليوناً من العرب أي باسم الأمة العربية، قلت فيها: «إن سبعين مليوناً من العرب يحبونكم كما تحبونهم منذ جمعتكم بهم أواصر القربى في الإسلام ويذكرون إسهامكم العظيم في الحضارة الإسلامية ».

تحدثت باسم الأمة العربية

وفي المساء ذهبنا إلى حفلة رسمية أقامها رئيس جمهورية طاجكستان في قصر الحكومة الرسمي الذي بُني حديثا على سفح الجبل في مكان مرتفع جميل يطل على المدينة كلها، فكانت حفلة زاهرة، وقد أجلسنا نحن إلى جانب رئيس الحفلة وهو رئيس الديار نادر شاه دوت خدويوف، وهو طاجيكي من باميرا. أما رئيس الجمهورية فاسمه ميرزا رحمانوف مما يدل على عنايتهم بالجمهورية العربية المتحدة، وقد حضر الحفلة ما يزيد على مائة وخمسين شخصاً من الوفود ومن وجهاء البلد وأدبائه، وأُلقيت الخطب كعادتهم في أثناء المائدة، وقد توالت الوفود، وألقى الأستاذ خليل الهنداوي كلمة باسم الجمهورية العربية المتحدة، والأستاذ بحر العلوم باسم الجمهورية العراقية، ثم ألقيت أنا كلمة الجلسة باسم سبعين مليوناً من العرب أي باسم الأمة العربية جمعاء، قلت فيها: «إن سبعين مليوناً من العرب يحبونكم أيضاً كما تحبونهم منذ جمعتكم بهم أواصر القربى في الإسلام ويذكرون إسهامكم العظيم في الحضارة الإسلامية، ويودون لو أتيحت لهم الفرصة لحضور احتفالكم بشاعركم» ثم قلت: «لقد كان في الماضي شاعر عظيم دعا إلى المحبة والإنسانية والسلام هو شاعر طاجكستان الأول جعفر محمد رودكي والآن فلْندعُ نحن جميعاً إلى الإخاء والمحبة والسلام» واستمر الحفل إلى ساعة متأخرة بالليل.

في بيت مسلم

وفي صباح اليوم التالي ذهبنا بالسيارات إلى (وادي وحـــش)، حيث قام مشروع عظيم لإروائه بعد أن كان صـــحراء قاحلـــة، وقـــد أطلقت إليها المياه من نهر آمو (جيحون) فقام في هذا الوادي حـــوالي ٣٥ كولخوزًا زرنا إحداها وهو الكولخوز المـــسمى كولخوزجـــوركي وطفنا به، ثم تناولنا الغداء في منزل رئيس الكولخوز، وممـــا ســـمعنا شرحه أن الدولة تأخذ ١٠% من الإيرادات وأن تـــسعين فـــي المائـــة يصرف على مصالح الجماعة في مستشفى ومدرسة... إلخ.

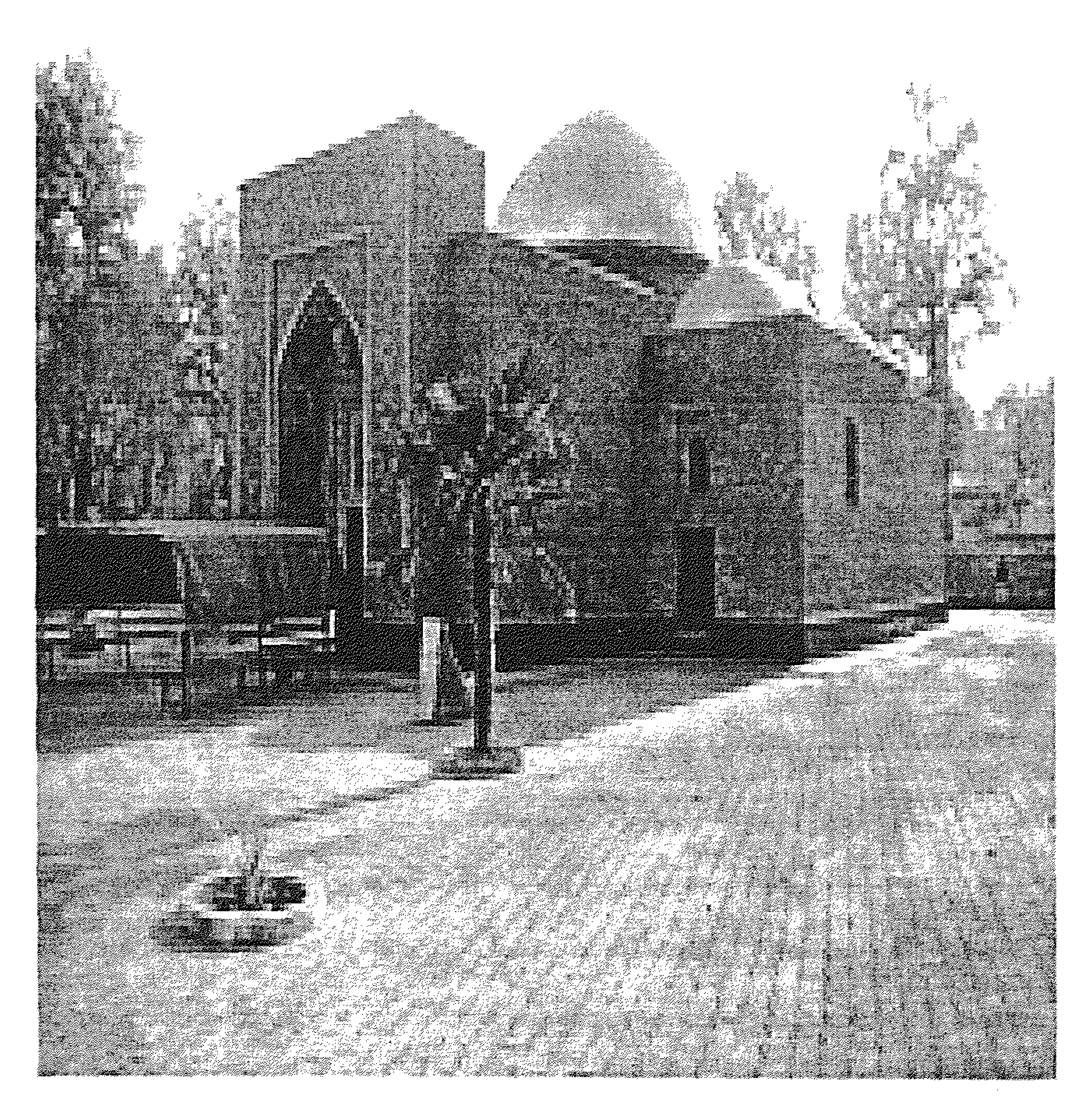
وكان إيراد الكولخوز في العام الماضي (١٩٥٧م) ٣٢ مليـــون روبل، ومما رأيناه منابت شجر الليمون، حيث حفـــرت خنـــادق طويلـــة لزرع أشجار الليمون يمكن أن تغطى أو تسقف بالزجـــاج فـــي الـــشتاء لحمايتها من برد الشتاء القارص، وقد جنينا ثمار الليمون وهو كبير الحجم جداً أكبر من البنزهير المعروف لدينا، والعجيب أننا وجدنا الوادي لايزال يحمل الاسم العربي (وادي وحش) هكذا يسميه أهل البلاد، والمسافة بين هذا المكان وبين البلد تقطعه السيارة في أكثر من ساعتين.

ولم نكد نستريح قليلاً في المثوى حتى استعجلونا للذهاب إلى بيت رئيس أكاديمية العلوم في ستالين أباد وهو السيد الدكتور ساخان عمروف، وقد استقبلنا على بابه السيد نازرشاه رئيس الوزارة نفسه، وجلسنا علـــى مائدة كبيرة حافلة بما لذ وطاب، ودُعي إليها حـــوالي عـــشرين مـــدعوا ومدعوة من علماء طاجكستان وأدبائها وفنانيها، وقد اهتم الداعي بالعلماء خاصة وهم شبان لا يتجاوز أكبرهم سنا الخامسة والأربعين.

والمنزل جميل جداً، والمائدة مثل طراز البيوت والمساجد منقوشة بالنقوش البديعة على الطراز الشرقي القريب جداً من أذواقنا، وكنا متخمين من مائدة الكولخوز فلم نستطع أن نأكل إلا قليلاً على سبيل المجاملة للمضيف الذي كان يدور على المدعوين طوال الحفلة لا يستقر في مكانه إلا قليلاً، ويقدم للضيوف الألوان لوناً بعد لون مما اضطرنا إلى تناول شيء منه مجاملة له، وكذلك تفعل زوجته سيدة البيت، وكان يقول إذا حاولنا الامتناع: «هذا لون صنعته زوجتي بيدها وإنني سأغضب وستغضب زوجتي إذا لم تتناول منه»!

وأُلقيت على المائدة الخطب كالعادة، وقد ألقيت أنا كلمة صغيرة نوهت فيها بالعلماء الحاضرين، وأننا معشر الأدباء نشعر بالضآلة حيالهم لأنهم أنفع منا للمجتمع، وقلت: إن كانت بطوننا قد امتلأت وشبعت فلا نستطيع أن نأكل من هذا الطعام الطيب الذي قدمه المضيف إلينا فإن أرواحنا لحسن الحظ لا تشبع... لا تشبع من إنسانيتكم ورقتكم ولا تشبع من هذه الوجوه الجميلة.

وفي نهاية الحفل قدم إلينا المضيف طواقي طاجكية مثل الطواقي الأزبكية، وذلك بأن خلع على كل واحد طاقية وهو يعتذر ويقول: إنها هدية متواضعة جداً لقصد التذكار، وقدمت إليه عند الخروج مصحفاً فقبله بأدب واحترام، وقال: إننا جميعاً بدأنا دراستنا بالقرآن، وهو رجل كهل متواضع إلى أقصى الحدود وأنيس بشوش، وهو قريب الملامح من المصريين لا تكاد تفرقه عنهم.



المساجد منقوشة بالنقوش البديعة على الطراز الشرقي القريب من أذواقنا

مسرحية عن رودكي:

وانطلقت بنا السيارات إلى مسرح رودكي حيث تعرض فيه مسرحية (عز جاز) الشاعر الكبير، ألفها شاب في الثلاثين تقريباً يُدعى أولونج زاده، وكان حاضراً فشرح كثيراً مما غمض عليّ في الرواية، والرواية لا بأس بها بالنظر إلى أنها رواية بيروقراطية وقد حكت حياة رودكي من شبابه إلى شيخوخته. حيث كان يعمل في بلاط أمير هراة شاعراً ممتازاً مقرباً من الشاه، وكان قد وقع في حب جارية تملكها الملكة زوجة الشاه، وكان ذلك سبباً لنكبته فيما بعد إذ اتهم بالاتصال بالثوار القرامطة الذين كانوا يقومون بحركة سرية لتحريض العامة على الدولة فَسُمِلَت عيناه وبقي أعمى يعلّم المريدين الأدب والشعر. وكان هذا كله في عهد شاه آخر غير الشاه الذي كان يقرّبه، وصودر بيته وما يملك فخرج يهيم في الشوارع يهدي الناس ويقول في ختام المسرحية: إن ذهبت عيناي فإني الآن بصير بقلبي، وإن نُزع مني بيتي فإن بيتي في الشارع مع الشعب. أما الإخراج فرائع جداً استخدمت فيه الأضواء ببراعة فائقة، وكذلك الديكورات جميلة وثمينة جداً، وتستخدم الستائر الرقيقة لتغيير المناظر بسرعة. ويؤخذ على المسرحية أنها طويلة جداً تتقطع مشاهدها مراراً كثيرة.

تحت قبة سمرقند:

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي يوم ١٧ من أكتوبر ذهبنا إلى سمرقند على أمل أن نزور بُخارَى أيضاً، فوصلنا في ساعة وعشر دقائق، ونزلنا الفندق وتناولنا الغداء، ثم انطلقنا إلى حيث تقوم آثار سمرقند المعروفة فزرناها، وهي نفس الآثار التي زرناها من قبل. والواقع أن هذه الآثار في حاجة إلى العناية والترميم ولاسيما تلك القبة العالية لجامع (سي خانم) التي لا توجد قبة جامع أعلى منها، وقد تحدث بهذا الرأي أيضاً الأستاذ راجا أناند الكاتب الهندي المعروف قائلاً: إن هذه الآثار تمهيد للفن الذي بلغ أوجه في الهند في تاج محل، فلولا آثار سمرقند هذه ما وجدت آثار الهند، يقصد آثار الدولة المغولية في الهند. وتحدث المهندس عن عبقرية أكبر[١] حديثاً مستفيضا.

وفي طريقنا إلى سمرقند تعرفت أيضاً بالسيدة الشاعرة برايجوت، وهي سيدة في الخامسة والثلاثين، جميلة ترتدي الزي الهندي الأنيق. وعلمت منها أنها تكتب الشعر والقصة القصيرة وأدب الأطفال، وجمعت شيئاً من الفولكلور الهندي،

---

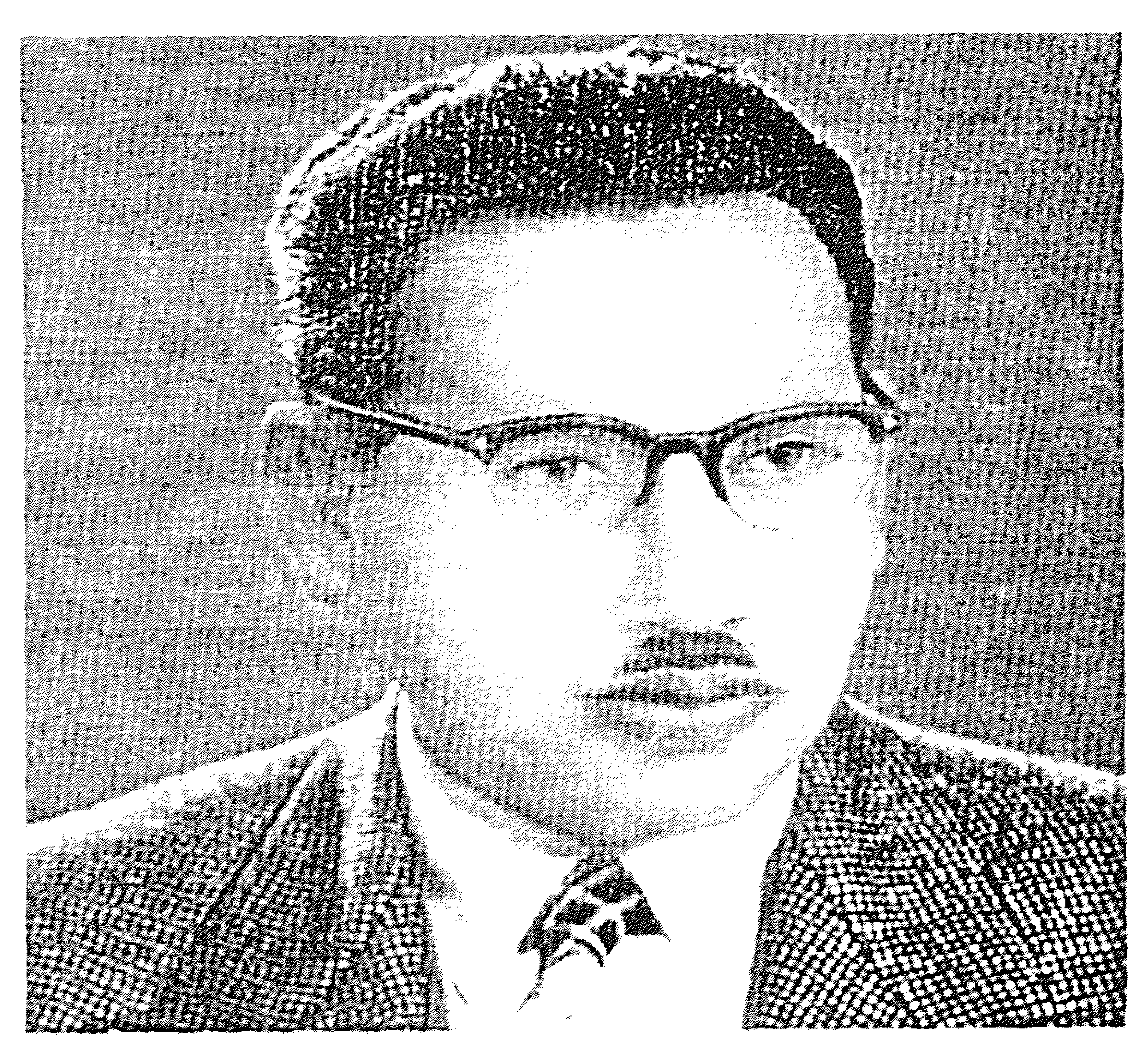
(١) أكبر: (١٥٤٢ــ ١٦٠٥م) إمبراطور الهند المغولي حكم ١٥٥٦ إلى ١٦٠٠م أعظم الأباطرة المغول اسمه الأصلي جلال الدين ولقب أكبر لأعماله العظيمة، استعاد حكم البلاد بعد أن تمزقت في عهد والده. رغم أنه كان أمياً إلا أن بلاطه كان غاصاً بالعلماء انحرف عقدياً سنة ١٥٨٢م حين أعلن ديناً جديداً أسماه «الدين الإلهي» انتهى بوفاته. ويقترن اسم أكبر بوزيره أبو الفضل الذي كتب سيرة بليغة عن أكبر وإصلاحاته وأعماله.

وهي تكتب باللغة البنغالية، وتكتب أحياناً بالفارسية. وقد أعطتني قصيدة لها مترجمة إلى الإنجليزية ففهمت منها أنها تميل إلى الشعر الغنائي مع التصوف وحب الحياة، وعرفتني أنها مغرمة بالشعر وأن زوجها كان يلومها أحياناً حين يراها منهمكة في كتابة الشعر لساعات طويلة.

وفي سمرقند قيل لنا: إنه لا توجد طائرة تحملنا منها إلى بخارى، وأن علينا أن نذهب إلى طشقند أولاً، ثم منها إلى بخارى. فاستقر رأي الهنود وغيرهم على عدم الذهاب إلى بخارى والسفر إلى موسكو، فأسفنا أشد الأسف؛ لرغبتي الشديدة في زيارة هذه المدينة القديمة.

وبتنا ليلة في طشقند بعد أن قطعنا المسافة بينها وبين سمرقند في ساعة بالضبط، ومن العجيب الذي يستحق أن يذكر أننا برحنا سمرقند في تمام الساعة السابعة والنصف، وقد وصلنا طشقند أيضاً في السابعة والنصف، وذلك بالطبع لفرق الوقت بينهما.

وتحدثت في الطريق مع الكاتب الهندي المعروف ملا راج أناند طويلاً وهو غزير العلم والمعرفة، ولا عيب فيه إلا أن نطقه الإنجليزية رديء جداً ومن الصعب على مخاطبه متابعته في الحديث.



Ali Ahmed Bakathir

Ali Ahmed Bakathir levele a szerzőhöz

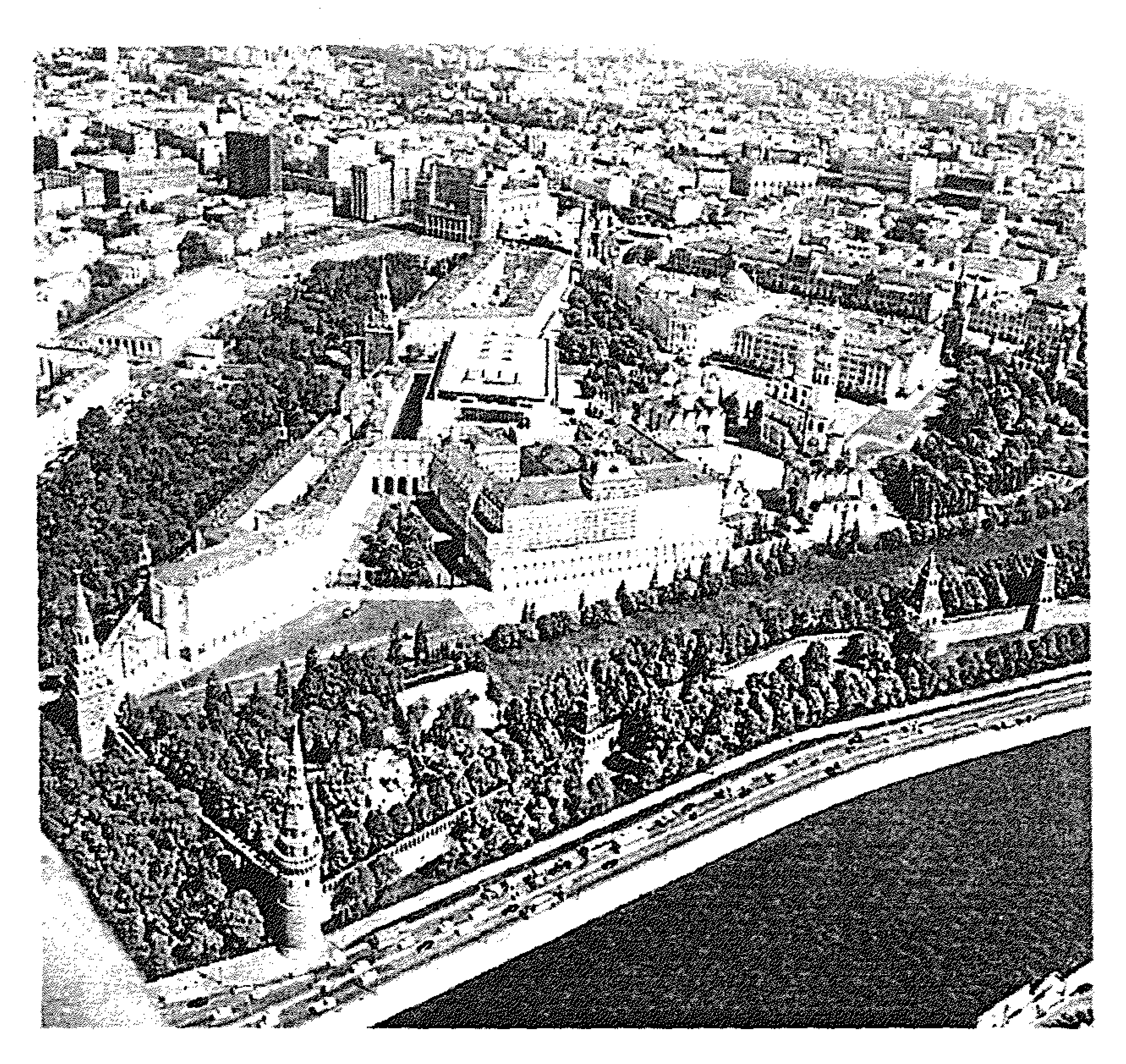
صورة باكثير وإهدائها نشرها المستشرق المجري المسلم عبدالكريم جرمانوس (١٨٨٤-١٩٧٩م) في كتابه (الأدب العربي) عن ذكرياته مع أدباء مصر.

في موسكـــــــو

وفي صباح اليوم التالي حملتنا الطائرة النفاثة الجت مرة أخرى إلى موسكو لارأسا كما جئنا من موسكو إلى طشقند من قبل، بل عـن طريق تفليس عاصمة جمهورية جورجيا. وقد علت الطـائرة ونحـن نجتاز جبال القوقاز العالية حتى تجاوز علوها أحد عشر ألـف متـر، وشعرنا برهبة حين نظرنا من النافذة الزجاجية فرأينا طائرتنـا فـوق السحاب، ومع ذلك فقد رأينا في أقصى الأفق تلك الجبال الهائلة كأنهـا أعلى من طائرتنا،وقد شعرنا بشيء خفيف من ضيق النفس كان له أثر سيئ بعد ذلك على نشاطنا.

وهبطت الطائرة بمطار تفليس، وكانت جورجيا تحتفل منذ أيام بمرور ألف وخمسمائة سنة على تأسيس مدينة تفليس (تبلـيس)، وقـد حضر الاحتفال بعض زملائنا من أعضاء الوفد، وتمنينا لـو أمكننـا زيارة المدينة، ولكن الوقت كان أضيق من أن يسمح بذلك خاصـة أن المدينة تبعد عن المطار ثمانية عشر كيلو متراً، فمكثنا فـي المطـار ساعة ونصف ساعة، ثم عاودنا السفر، فوصلنا موسكو فـي السـاعة الثالثة والربع بتوقيت طشقند أي الساعة الثانية عشرة والربع وقد بدت لنا رائعة من الجو، ونزلنا في فندق لينين غراد وهو فندق جديد، ولكنه بُني على الطراز الروسي، فبدا كأنه قديم، وهو فندق جميل وخدمته في الطعام ممتازة.

وفي الساعة السابعة مساء ذهبنا لتلبية دعوة وجهت إلى جميع أعضاء الوفود الذين شهدوا مؤتمر طشقند من قبل اتحاد الكتاب السوفيات في قاعدة تشايكوفسكي، وهناك بين الوفود المتزاحمة التقينا بقية أعضاء وفدنا الذين تفرقوا بعد المؤتمر في طشقند، فمنهم من ذهب إلى جورجيا ومنهم من رجع إلى موسكو فأقام بها، ومنهم من ذهب إلى بلغراد.



موسكو يتوسطها الكرملين كما بدت لنا الجو

وبعد أن أُلقيت الكلمات في هذه الحفلة عن أثر مؤتمر طشقند... الخ، من قبل الوفود ومن قبل الأدباء الروس، أقيمت حفلة متنوعة في القاعة، فشهدنا عجباً من التلاميذ الصغار والتلميذات الصغيرات من فرقة الطليعة يعزفون على الآلات الموسيقيّة كأنهم فنانون محترفون، ومنهم جماعات تنشد وتغني وجماعات ترقص، وكانوا في أعمار متفاوتة، فكان قائد الأوركسترا وهو رجل كهل يؤلف بين أصوات هذه المجموعات، وأداء هؤلاء الأطفال، هو أجمل ما في الحفل.

وفي الليلة التالية أقامت السفارة المصرية حفلة استقبال بمناسبة حضور الفريق عبد الحكيم عامر(١) صديق جمال عبدالناصر الحميم ومبعوثه إلى موسكو، ولذلك حرص الزعيم الشيوعي المسيو خروشوف(٢) على حضور هذه الحفلة مع عدد كبير من الدبلوماسيين الروس، ولكني لم أحضر هذه الحفلة، إذ لم تبلغني الدعوة إلا بعد انقضائها، وذلك لأننا نزلنا في فندق شقراء بينما نزل بقية أعضاء الوفد في فندق أوكرانيا، وبين الفندقين مسافة كبيرة فلم نتمكن من التلاقي إلا بصعوبة.

---

(١) عبدالحكيم عامر: (١٩١٩ــ ١٩٦٧) من الضباط الأحرار الذين قادوا الثورة المصرية في ٢٣ من يوليو ١٩٥٢م، من أقرب أصدقاء جمال عبدالناصر إليه وكانت هذه الصداقة مؤهله الأساسي في المناصب القيادية التي تولاها. فشل في قيادة الجيش المصري نحو النصر، ويقال إنه مات منتحراً بعد هزيمة قواته أمام إسرائيل سنة ١٩٦٧م.

(٢) خروشوف: (١٨٩٤ــ ١٩٧١) حكم الاتحاد السوفيتي في الفترة من ١٩٥٣ – ١٩٦٤م قضى فيها على آثار ستالين وحارب فكرة عبادة الفرد.



عبدالحكيم عامر مع جمال عبدالناصر في لقطة مُعبِّرَة

أوبرا من قرغيزيا:

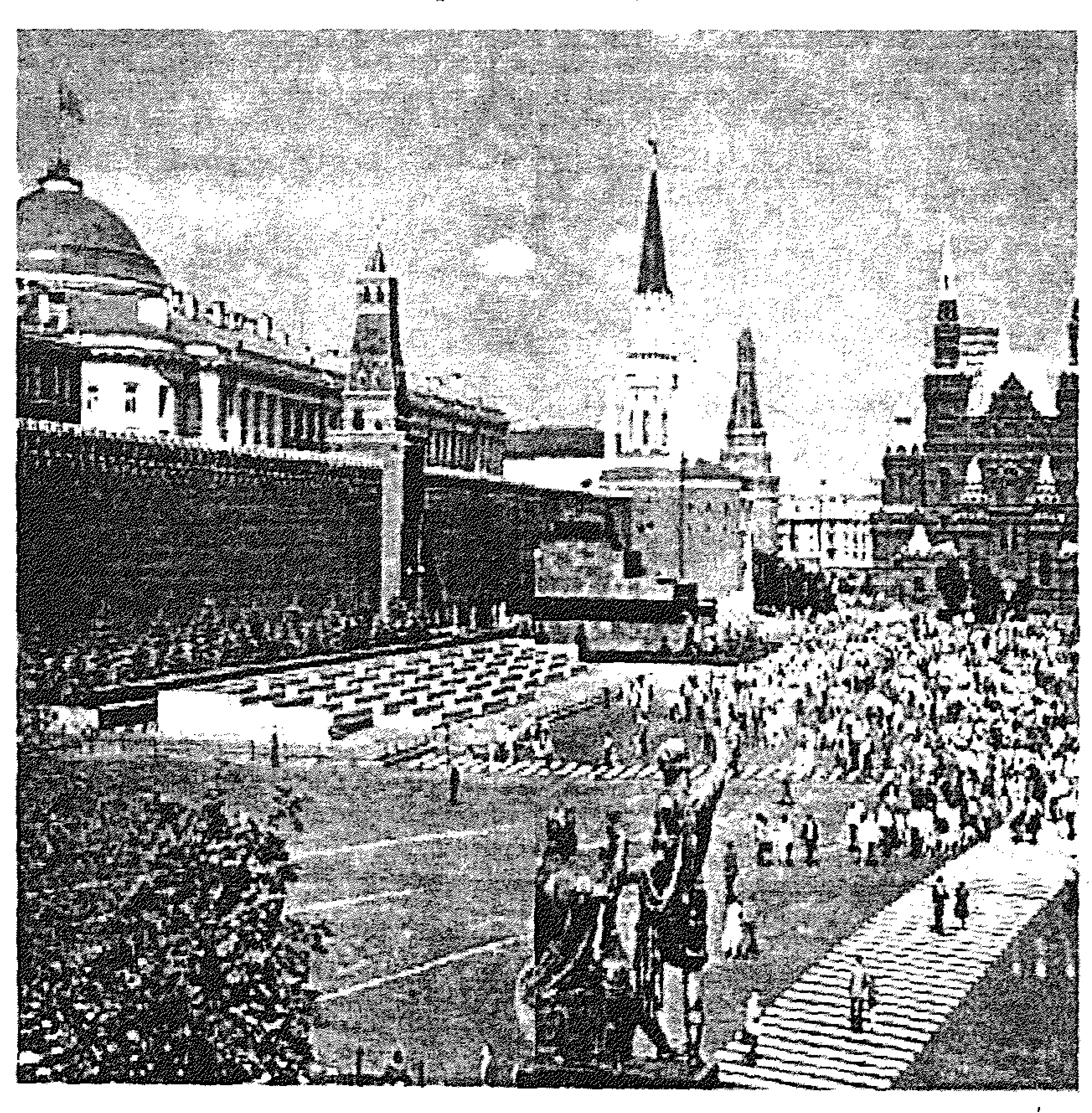
وذهبنا في تلك الليلة إلى مسرح ستانسلافسكي لحضور أوبرا قرغيزيا، أي من عمل فناني جمهورية قرغيزية من الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفياتي، وقد أعجبتني الأوبرا على وجه الإجمال، ولاسيما الموسيقى والديكور والإخراج، أما القصة فبطلها رجل يدعى تولتورين (toltoryn) كان شاعراً وخصمه رجل من الإقطاعيين، حاول أن يكتب فلم يفلح، إذ أصر على مهاجمة مَنْ ظلمه، فدبر له حيلة فقبض

عليه وألقاه في السجن، وفي السجن، حرّض المسجونين على الثورة فثاروا وانتهت الأوبرا بخلاصهم عند بدء الثورة الروسية، وقد لفت نظري أن النساء في قرغيزيا يلبسن عمائم كبيرة جداً كأنها قبب موضوعة على رؤوسهن، ولعل هذا الزي هو الزي القديم للقرغيزيات، ولا أدري هل بقي هذا الزي حتى الآن أم بطل؟

وأجمل ما في هذه الأوبرا المنظر الأخير فيها فهو آية في الإبداع لم أر له مثيلاً من قبل، فقد رفعت الستارة عن سهول سيبيريا بما فيها من أشجار، ومنارها تدور على المسرح حتى كأنك ترى سهول سيبيريا حقيقة لأن المشاهد تتغير في كل لحظة، فيبدو قسم من أقسامها، كل ذلك في حركتين سريعتين إحداهما من اليمين إلى اليسار والأخرى من اليسار إلى اليمين حتى تنتهي المشاهد بمنظر السجن وكان الانتقال منها إليه يفوق حد الرؤى.

ويتم ذلك في مسرح لعرض فنون وآداب جمهورية قرغيزيا جريا على العادة الفنية المتبعة في الاتحاد السوفياتي، حيث يخصص لكل جمهورية موسم خاص في العام أو أكثر تعرض فيه أحسن نتاجها الفني في عاصمة الاتحاد، وقد بلغني أنهم في العام القادم ١٩٥٩م سيتخذون بدلاً من هذه العادة أن تعرض الجمهورية أحسن نتاجها في عاصمتها الخاصة، وتدعو الناس من سائر الجمهوريات لمشاهدتها، ويظهر أن الهدف من ذلك ألا تتعطل المسارح في موسكو مدة من الزمن.

وفي الليلة التالية ذهبنا إلى قصر الكرملين حيث دعينا والوفود إلى حفل استقبال أقامه خرشوف تكريماً لوفود مؤتمر طشقند، وكنت قبل ذلك قد قررت أن أشاهد (مسرحية هاملت) لشكسبير، وكنت فرحاً بذلك كثيراً غير أن الحفلة أرغمتنا على العدول عن الذهاب، وقد خطبت إلى رؤساء الوفود أمام خرشوف في الكرملين.



ذهبنا إلى قصر الكرملين حيث دعينا إلى حفل استقبال أقامه خرشوف

بحيرة البجع والملك لير

وفي الليلة التالية شاهدنا باليه بحيرة البجع jac aux ciygne التي ألف موسيقاها تشيكوفيسكي فكان التمثيل رائعاً، وطالما سمعت هذه الموسيقى من قبل، ولكني في هذه المرة فهمت مراميها عن طريق الحركة الصامتة بالجسد، فقد كانت تلك الحركة هي المفسر لها تفسيراً دقيقاً.

وفي الليلة التالية يوم ٢٤ من أكتوبر ١٩٥٨م ذهبنا لمشاهدة مسرحية (الملك لير) لشكسبير في مسرح بلدية موسكو، وكان ممثل الدور الأول رائعاً جداً وصورته لا يمكن أن تبرح الذهن أبداً بلحيته السابغة البيضاء ورأسه الكبير وعينيه الواسعتين والطيبة والسذاجة الباديتين في أساريره، ثم التنهدات العميقة عمق البحر، بعد أن تبين عاقبة عمله الساذج، وكذلك الشاب الذي قبل دور المهرج، أما الممثلون والممثلات الآخرون فتمثيلهم لا يلفت النظر كثيراً.

وفي الساعة الثانية عشرة والنصف من صباح اليوم التالي ركبنا إلى مطار موسكو تصحبنا فتاة مثقفة في الفرنسية وأدبها تدعى إنا سفيبشيفا، وفي المطار اعترضتنا عقبة إذ جاوزت حاجاتنا ٣٠ كليو جراماً فطالبونا بدفع مبلغ مائتي روبل على الزيادة، وأطلعناهم على التذكرة الخاصة بالزيارة التي عندنا فقالوا: إنها لا تجدي لأن الشركة لم تعتمدها في موسكو وأخيراً اضطر اتحاد الكتاب إلى دفع المبلغ عني وعن زميلي الأستاذ خليل الهنداوي.



ركبنا إلى مطار موسكو تصحبنا فتاة مثقفة في الفرنسية

يومان في براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا

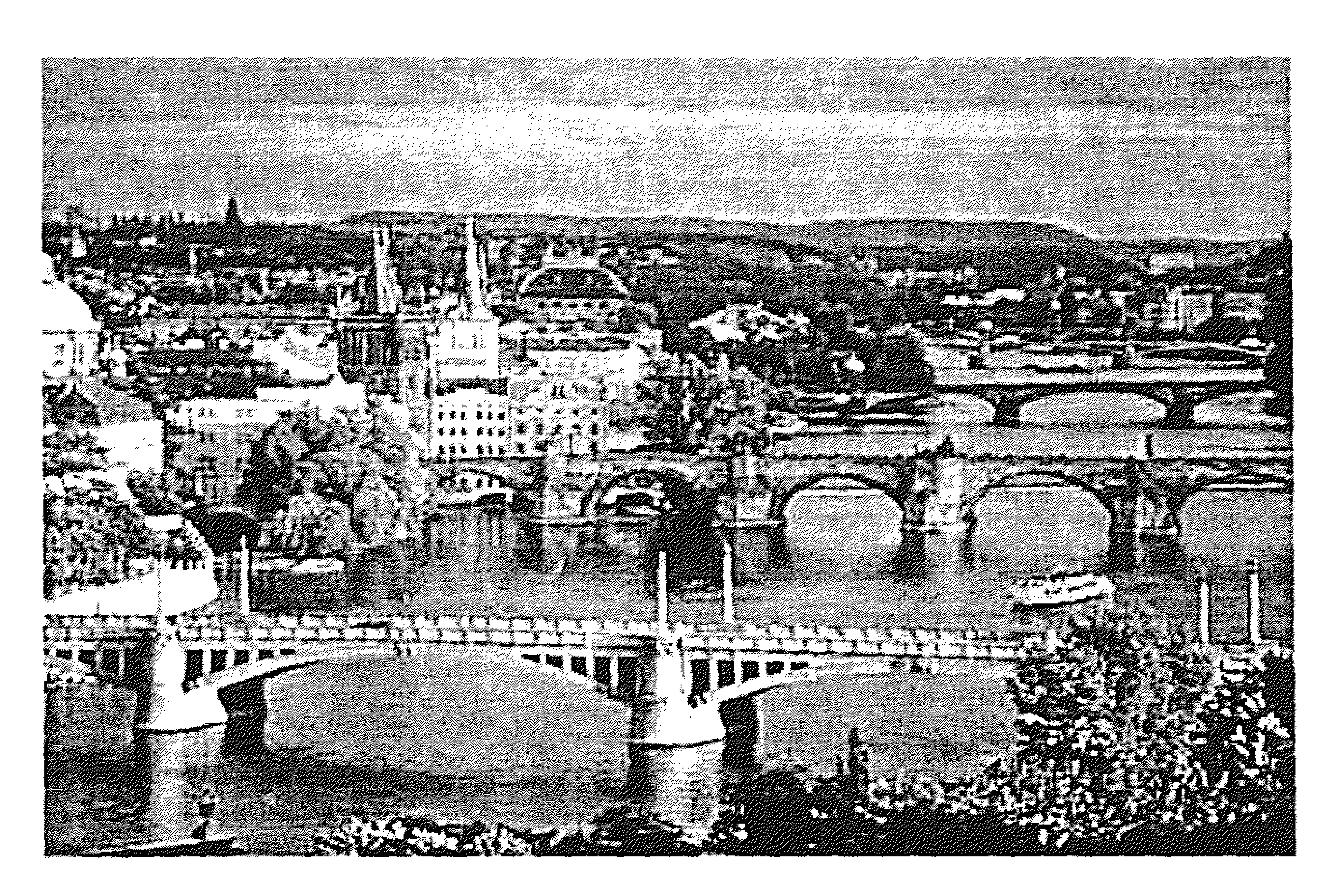
واستقللنا الطائرة من طراز (تو ١٠٤) فوصلنا براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا بعد ساعتين. وفي براغ قيل لي: إنني لا أستطيع أن أذهب إلى فيينا في النمسا إلا بعد يومين. كما أخبروني أن عليّ أن أدفع نفقات الإقامة على حسابي فنزلت في (فندق إنترناشيونال) وهو يقع في أطراف المدينة مما يلي المطار يشرف على المزارع، ومن خلفها رابية خضراء تزينها المباني البيضاء منتشرة هنا وهناك، والخدمة في الفندق لا بأس بها ولكن أجر المبيت وحده مرتفع فهو ٥٣ كورونا أي ما يقرب من جنيهين مصريين لأنهم صرفوا لنا الجنيه المصري بثمانية وعشرين كورونا مثل الروبل، ثم علمت من بعض الطلبة المصريين الذين صادفتهم هناك أنهم مستعدون أن يعطوني ٤٠كورونا عن الجنيه الواحد. وبعد أن استرحنا قليلاً وتعشينا ركبنا الترام إلى المدينة فوصلناها في حوالي نصف ساعة في طريق دائري يدور حول المدينة.

وكان من حسن حظنا أن تعرفنا بطريق الصدفة في الترام بسيدة كبيرة السن تطوعت لخدمتنا وإرشادنا وتفريجنا على معالم المدينة، وعلمنا منها أنها كانت في مصر إلى سنة ١٩٢٩م، حيث اشتغلت فنانة تغني مع أخت لها جميلة جداً تدعى آدنى أرتنا صورتها

مع صورة أختها، وكانتا تعملان في مصر، والسيدة اسمها جوسكا كلمينتوا (joska klimentova)، ولكنها تدعى باسمها الفني جيوري دي تيرو (jemory de terro) وهي تهتم على الدوام بذكر مصر، وتتحدث بحنين واشتياق عن الأيام التي قضتها في ربوع وادي النيل، حتى لتكاد الدموع تطفر من عينيها، بل إنها لتحدثنا عن عشاقها من المصريين ولاسيما رجل مليونير يقال له علي عبد القادر شريف من أهالي إسكندرية. وحدثتني أن الأمير فؤاد (الملك فؤاد)(١) كان يجري وراءها، وهي الآن متزوجة من مهندس في براغ، وقد استأذنت حين لقيناها لأول مرة أن تذهب إلى بيتها لتخبر زوجها أنها ستمضي الأمسية معنا لتفرجنا على براغ، وسألتنا أن ننتظرها في محطة الترام فانتظرناها، وأشفقنا أن تكون أخلفت الموعد، وهممنا بالذهاب خشية أن يضيع الوقت في الانتظار إلا أنها أقبلت تُغُذ السير كأنها فتاة شابة، وبعد أن تجولنا في شوارع المدينة جلسنا في مقهى فاحتسينا القهوة التركية اللذيذة التي لم نذق مثلها منذ فارقنا الوطن. وفي هذا المقهى عثرنا على الطالبيْن المصريين: فتحي شريف، وعبد الحكيم عبد العزيز القطان فكان سرورنا عظيماً.

---

(١) الملك فؤاد الأول: (١٨٦٨ـ ١٩٣٦) حكم مصر في الفترة من ١٩٢٢م إلى ١٩٣٦م وخلفه الملك فاروق في الحكم.



وصلنا براغ فقيل لي: إنني لا أستطيع أن أذهب إلى فيينا إلا بعد يومين

على درج العشـــاق!

وفي اليوم التالي سافر الأستاذ خليل هنداوي إلـى زيـورخ، وبقيت يوماً آخر في براغ، وكنت على موعد من السيدة المشار إليهـا في الساعة الثالثة بعد الظهر فقضيت الصباح في التجول وحدي فـي المدينة وفي شراء بعض الحلي الصناعية، وكان يرافقني شـابان مـن التشيك أحدهما يعرف قليلاً من الإنجليزية، وحـضرت الـسيدة فـي الساعة الثالثة ففرجتني على براغ القديمة. والواقع أن المدينة القديمـة تستحق المشاهدة، فهناك القصر الهائل الواقع على ربوة تشرف علـى المدينة كلها وحولها الكنائس الفخمة ذات النقوش الأنيقة وهي كثيـرة،

ثم نزلنا في دَرَج تاريخي عتيق يقال: إن العشاق كانوا يتلاقون على هذا الدرج، وطالما غنّى شعراؤهم بذكريات هذا الدرج إلى أن وصلنا مرة أخرى إلى وسط المدينة حيث جلسنا في مقهى نتحدث، وفي المقهى اتصلنا بصديقي الأستاذ هوفمايستر بالتليفون فدعاني لزيارته في منزله، فكانت السيدة العجوز هي التي أوصلتني إلى بيته مشياً على الأقدام.

وقابلني هوفمايستر بترحاب في مَرْسمه الذي يبدو كأنه مَعرِض أو مُتحف من الصور الكاريكاتورية وغيرها من التحف من مختلف بلاد العالم التي زارها، وأراني بعض التحف المصرية، كما أراني أيضاً نسخة لكتاب بعنوان من (قمة الأهرام)، واعتذر بأن أهل بيته في رحلة قصيرة وأنه هو وحده في البيت، وحاول أن يعمل لي قهوة فمنعته، وقلت له: إنني أريد أن أتحدث إليك لا أن أشرب القهوة وحدثني أنه حاضر كثيراً عن مصر وهو جوّال في البلاد لا يكاد يستقر، يقيم المعارض الفنية في كل بلد يزوره، وسألني عمن يعرف من المصريين مثل: يحيى حقي[1]، وفتحي رضوان[2]، ومكثت عنده حوالي ساعة.

---

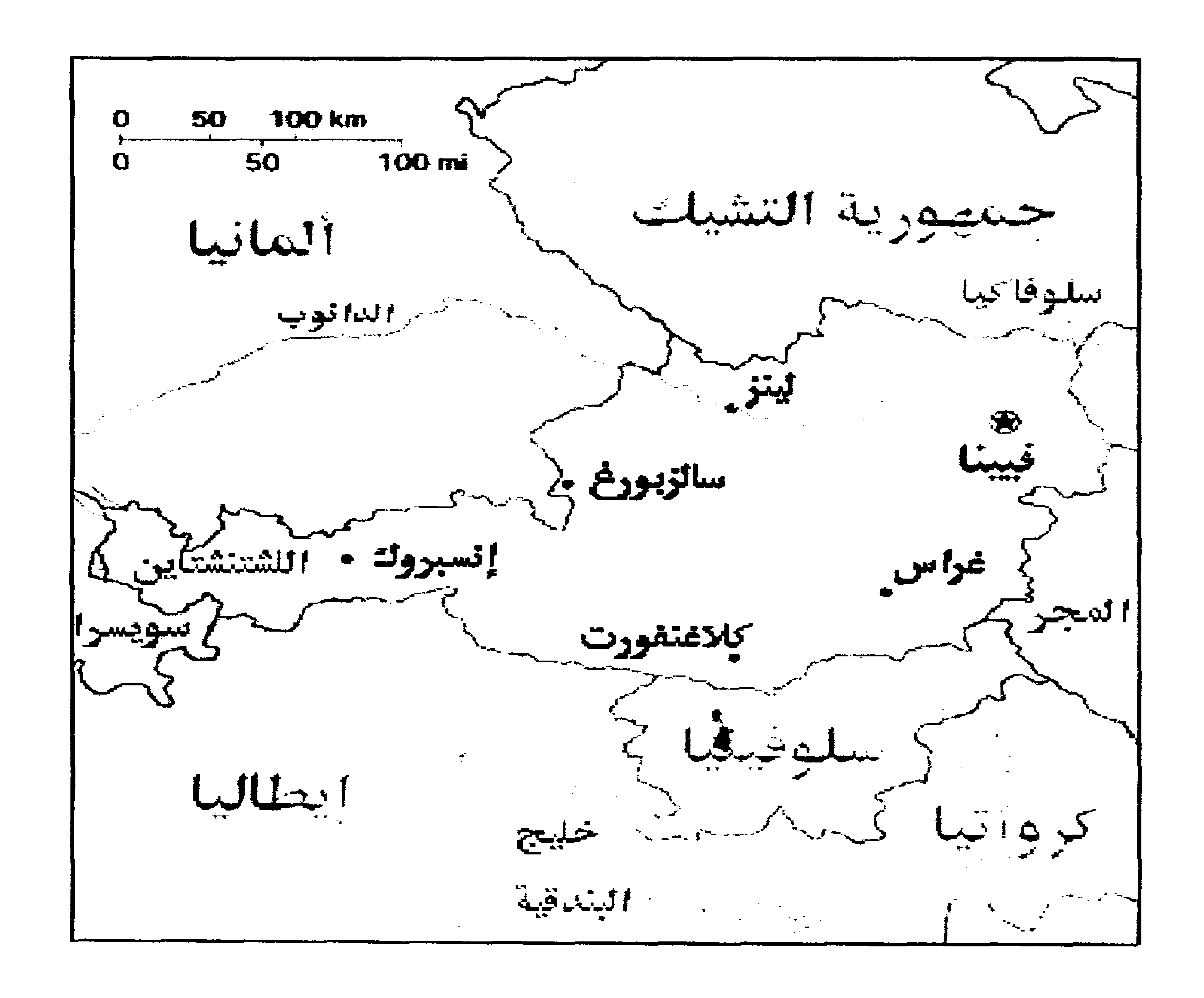
(١) يحيى حقي: (١٩٠٥ ـ ١٩٩٢م) من أهم كتاب القصة القصيرة في مصر، تقلب في السلك الدبلوماسي المصري، ثم عين مديراً عاماً لمصلحة الفنون حيث كان باكثير ونجيب محفوظ من أهم موظفيها. رأس تحرير عدة مجلات.

(٢) فتحي رضوان: (١٩١١-١٩٨٨م) مفكر وسياسي وكاتب مسرحي وقصصي مصري، يعد من رجال الحركة الوطنية قبل الثورة المصرية، وبعد الثورة عين وزيراً للإرشاد القومي، وله أكثر من أربعين كتاباً.

إلى فينا عاصمة النمسا

وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي ركبت الطائرة إلى فيينا، وبعد أن أقلعت في الجو حوالي ساعة رجعت بنا إلى براغ لعطل أصابها فحمدنا الله على أن كفانا شر ما تخبئه الأيام، ولم يكن في الطائرة غيري وغير كندي من كوبك واثنان آخران. وهذا الكندي لطيف المعشر ولكنه مضحك في إعزازه للمال وفي نقد الاتحاد السوفياتي إذ كان قد زاره وهو في رحلة يطوف فيها حول العالم، وتبين أنه لا يعرف إندونيسيا ولا يعرف أن هناك أمة وبلداً يسمى إندونيسيا بالمرة، فعجبت لضحالة ثقافته، وهو يتكلم الإنجليزية والفرنسية ويلحن فيهما كثيراً إلا أنه طيب القلب ساذج، وقد ضحكت الفتاة الموكلة بالجوازات في المطار حين سمعته يحدثها عن مقدرته على الطواف حول العالم بفخر واعتزاز مضحكين.

ومما يدل على طيبته أنه لما استقبله صديق له في فيينا بمقتضى برقية أرسلها إليه أوصاه بي خيراً، وقال: هذا السيد رفيقي في السفر، ولكن الصديق لم يكترث كثيراً بوصيته بل اكتفى بأن قال لي: أوصيك أن تذهب إلى مكتب الشركة وتستفهم عن الفنادق التي تعجبك وسيخبرونك عنها وعن أسعارها فلم يستطع صاحبنا أن يصنع شيئا فودعته وانصرف مع صديقه.



سحـــر فيينــا :

ما إن هبطت الطـــائرة أرض المطـــار، بـــل مـــا إن دنـــت الطائرة من المدينة ولاحـــت معالمهـــا مـــن الجـــو حتـــى شـــعرت بفـــيض مـــن الـــسرور يغمرنـــي لا أدري مـــا ســـببه، فـــالحقول الخضراء المحيطة بها، ونهـــر الـــدانوب يلمـــع تحتنـــا كأنـــه حيـــة بيضاء هائلة تتلوى من بعيد، وكما أنهـــا جميلـــة فـــإن أهلهـــا علـــى خلق كريم جميل فلا تفتيش في المطار، ولا حتى ســـؤال عمّـــا فـــي

الحقائب، بل أتموا الإجراءات اللازمة في سهولة ويُسر وسرعة، ثم جاءت سيارة الشركة الحافلة لتحملنا إلى المدينة. فصرفت خمسة جنيهات مصرية بمبلغ ٢٢٥ شلنا تساوياً بواقع ٤٥ شلنا للجنيه الواحد، ولما ركبنا السيارة طلب منا السائق ١٥ شلنا ثمن إيصالنا إلى مقر الشركة الواقع قريبا من ميدان دار الأوبرا المشهورة التي تعتبر ــ بحق ــ سُرّة البلد، ونزلت بفندق قريب من سرة البلد ولكنه قديم عتيق، فأنزلوني في حجرة بها حوض لغسل الوجه بماء ساخن وماء بارد، ولكنها ليس بها حمّام، وكانت هذه أول مرة أقيم في حجرة ليس بها حمام غير أن جمال المدينة شغلني عن التفكير في هذا النقص.

وغسلت وجهي ثم خرجت إلى المدينة أتجول في شوارعها وأنا أتلفت يمنة ويسرة حتى لا يضيع مني الاتجاه، وكنت أنظر إلى اللافتات والمباني أتخذ منها علامة أهتدي بها عند العودة، وبينما أنا ماش في اتجاه معين إذ اعترضني الدرج الذي يخترق الميدان تحت الأرض وخرجت من أحد المخارج فإذا بي أضعت الاتجاه ولم أدر أي ناحية أيمم، ولما طال بي التعرف دون نتيجة اضطررت أن أسأل ضابط بوليس فدلني على الاتجاه الذي أضعته من قبل.

والمدينة حقا ساحرة فشوارعها كبيرة واسعة تكاد تتشابه أو تتماثل في جمالها ونظافتها ورشاقة مبانيها، ولم أر مدينة قط في مثل هذا التكامل العجيب.



ما إن دنت الطائرة ولاحت معالم فيينا من الجو
حتى شعرت بفيض من السرور يغمرني

رجال الملحقية الثقافية المصرية:

وفي اليوم الثاني بحثت عن عنوان الملحق الثقافي للجمهورية العربية المتحدة في فيينا، وكنت قد أخذت العنوان من الطالبيْن المصريين ببراغ، فاهتديت إليه بسهولة لأنه في نفس القسم (القسم الرابع) الذي يقع فيه فندقي، ففيينا تنقسم إلى أقسام تبلغ العشرين، وتلقاني في المكتب الأستاذ محمد علوي عبد الهادي، وهو شاب لطيف يقول: إنه لقيني وقد قدمني إلى السيد مدير المكتب الأستاذ محمد

عبد المنعم حافظ وهو من خريجي القسم الإنجليزي في كلية آداب القاهرة وقضى مدة في إنجلترا بعد ذلك، وهو يتكلم الإنجليزية بطلاقة وله معرفة طيبة بالأدب العربي، وقد استقبلني بترحاب وأنس، وبالغ في تقديري والحفاوة بي، وأعربت له عن رغبتي في زيارة معهد الدراسات الشرقية في المدينة بعد ما سمعت عنه من أحد الطلبة به وهو الأستاذ الذي لقيته في مكتب الأستاذمحمد علوي عبدالهادي، وهو شاب في حوالي الخامسة والعشرين كان قد تخرج فى كلية دار العلوم، وقدم إلى فيينا لتحضير الدكتوراه على نفقته الخاصة، ولكنه لم يعط إجازة دراسية بمرتب من وزارة التربية والتعليم إذ كان يشتغل مدرسا، وهو شاب جاد مجتهد في دراسته، وقد حدثني عن أستاذه الدكتور جوتشلك وما إن سمع الأستاذ محمد حافظ عبدالمنعم باقتراحي حتى بادر بدعوة الآنسة السكرتيرة وكلفها بالاتصال حالاً بالدكتور جوتشلك الذي رحب بزيارتنا وحدد الساعة الثالثة موعداً للمقابلة في المعهد نفسه، فما كان من الأستاذ حافظ إلا أن دعاني لتناول الغداء معه، ثم يرافقني إلى المعهد، فتركته وذهبت في عجل إلى الفندق حيث أحضرت معي ما بقي من نسخ كتبي أي رواية (وا إسلاماه) والمحاضرات عن (فن المسرحية من خلال تجاري الشخصية) ونسخة من القرآن الكريم لأهديها إلى الدكتور جوتشلك، أما الأستاذ حافظ فقد أهديته أيضاً مصحفاً وحُقّا من موسكو ففرح بهديتي ووضع الحق على مكتبه كتذكار وفرح بصفة خاصة بالمصحف وقال إنه نسي أن يأخذ مصحفاً معه حين سافر من مصر، وقد تناولت الغداء في أحد الفنادق الفخمة في فيينا، وهو فندق برستول في ميدان الأوبرا.

والأستاذ حافظ رجل كامل في علمه وسلوكه، ويمتاز بـأخلاق عالية وبالاهتمام الشديد بشؤون الطلبة العرب في المدينة، وفي الجلسة التي حضرتها في مكتبه لاحظت أنه كتب إلى وزير التربية والتعليم كتابين أحدهما يتعلق باستقدام الدكتور جوتشلك ليلقي بعض المحاضرات في جامعة القاهرة، والثاني خاص بترشيحه ليكون عضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية وهو محبوب جداً من الطلبة.



في المساء اشتركت في رحلة حول المدينة ويدعى هذا البرنامج باسم (فيينا في الليل)

في معهد الدراسات الشرقية:

ولقينا الدكتور جوتشلك في المعهد وتحدثنا معه عن أمور شتى في الأدب القديم، ولقد لاحظت أنه متمكن من اللغة والنحو العربيين، وقرأت مجمل تاريخ حياته العلمية فإذا هو ضليع في التاريخ الإسلامي أيضاً، ولاسيما تاريخ الأيوبيين والمماليك، وله كتب في ذلك. وقد جر الحديث إلى ذكر الدكتور بشر فارس[1] فأثنى على معرفته بتصحيح الكتب القديمة ومعرفته بطبيعاتها المختلفة، وقال: إنه من أحد الأفذاذ في ذلك وعيبه الوحيد أنه لم يقتصر على هذا الفن، بل أراد أن يكون كاتباً أديباً وما أحسبه نجح في ذلك.

واستطرد بحديثنا عن محاولاته لإخراج مسرحياته في مسارح فيينا حتى إنه كلف أحد الكتاب بترجمة بعضها إلى الألمانية تمهيداً لذلك، وإنه لم يبخل على ذلك الكاتب في الأجر، وكلف الدكتور جوتشلك بالسعي لدى مدير المسارح حتى نجح في جعل مسرحية تخرج في أحد المسارح المتواضعة في فيينا، ولكنه كان شديد الطموح فأراد أن تخرج له مسرحية في المسرح القومي (مسرح الدولة)، وأخذ الدكتور يذكر على سبيل النقد غروره وطمعه فيما لا سبيل إليه، ولكنه قال إنه عرض مسرحية مترجمة إلى الألمانية على مدير ذلك المسرح فكان الجواب الرفض. ثم استطرد يذكر أن الوزير المصري المفوض

---

(١) بشر فارس: (١٩٠٧ــ ١٩٦٣م) أديب لبناني ولد وعاش حياته كلها في مصر، تخرج من جامعة السوربون في باريس، له عدة أبحاث بالفرنسية، وأصدر بالعربية عدة مسرحيات واهتم بدراسة التصوير العربي الإسلامي.

السابق الأستاذ حسن فهمي كان يكره الدكتور بشرفارس، وقال: لعل ذلك ناتج عن أن الوزير كان صديقاً لتوفيق الحكيم[1] وكان يسعى إلى أن تمثل لتوفيق الحكيم مسرحية في فيينا غير أنه لم ينجح في مسعاه، وفرّجنا الدكتور على المعهد وأقسامه ولقينا هناك بعض الطلبة العرب وبينهم آنسة تدعى انشراح العمري قيل لي: إنها تدرس الموسيقى في فيينا، وقد سلمت علي وزعمت أنها كانت تقرأ لي، وسألتني إن كان معي كتاب لتقرأه فاعتذرت لها ووعدتها بإرسال بعض الكتب إليها.

ثم قدمني الدكتور جوتشلك إلى بقية أساتذة المعهد وإلى عميده أيضاً، ولهذا العميد ابنة تدرس في جامعة القاهرة أظنها تدرس الفن الإسلامي.

وسألت الدكتور جوتشلك هل توجد لديه كتب من الأدب المصري الحديث؟ فأجاب بالنفي، ورجاني أن أعمل على أن تُرسل إليه عدد من الكتب فوعدته خيراً، وينبغي أن أحث المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب أن يحقق هذه الرغبة، والواقع أن وجود كتب مصرية في هذا المعهد مما ينوّر حركة اللغة العربية فيها.

---

(١) توفيق الحكيم: (١٨٩٨ ـ ١٩٨٧م) أشهر كتّاب المسرح العربي، من أعماله:(أهل الكهف) و(عودة الروح) و(تحت شمس الفكر الفكر) و(عصفور من الشرق) و(سجن العمر) و(قالبنا المسرحي) و(محمدﷺ). وختم حياته بإصدار (مختصر تفسير القرطبي).

الإمبراطور الزاهد:

وفي اليوم التالي الأربعاء ٢٩ من أكتوبر١٩٥٨م قمت برحلة حول المدينة عبر الأوتوبيس الذي يسمى أوستروبيس بواسطة شركة خاصة بالرحلات في فيينا، وقد تجولت بنا السيارة في أنحاء المدينة وكان الدليل يشرح لنا ما نراه بلغات مختلفة على حسب الأعضاء الموجودين في السيارة، وانتهت الرحلة بزيارة القصر المشهور وهو قصر بناه والد الإمبراطورة ماريا تريزا[1] وهو قصر كبير جداً فيه مايربو على ألف حجرة. وتجولنا في القصر وشاهدنا الحجرات

---

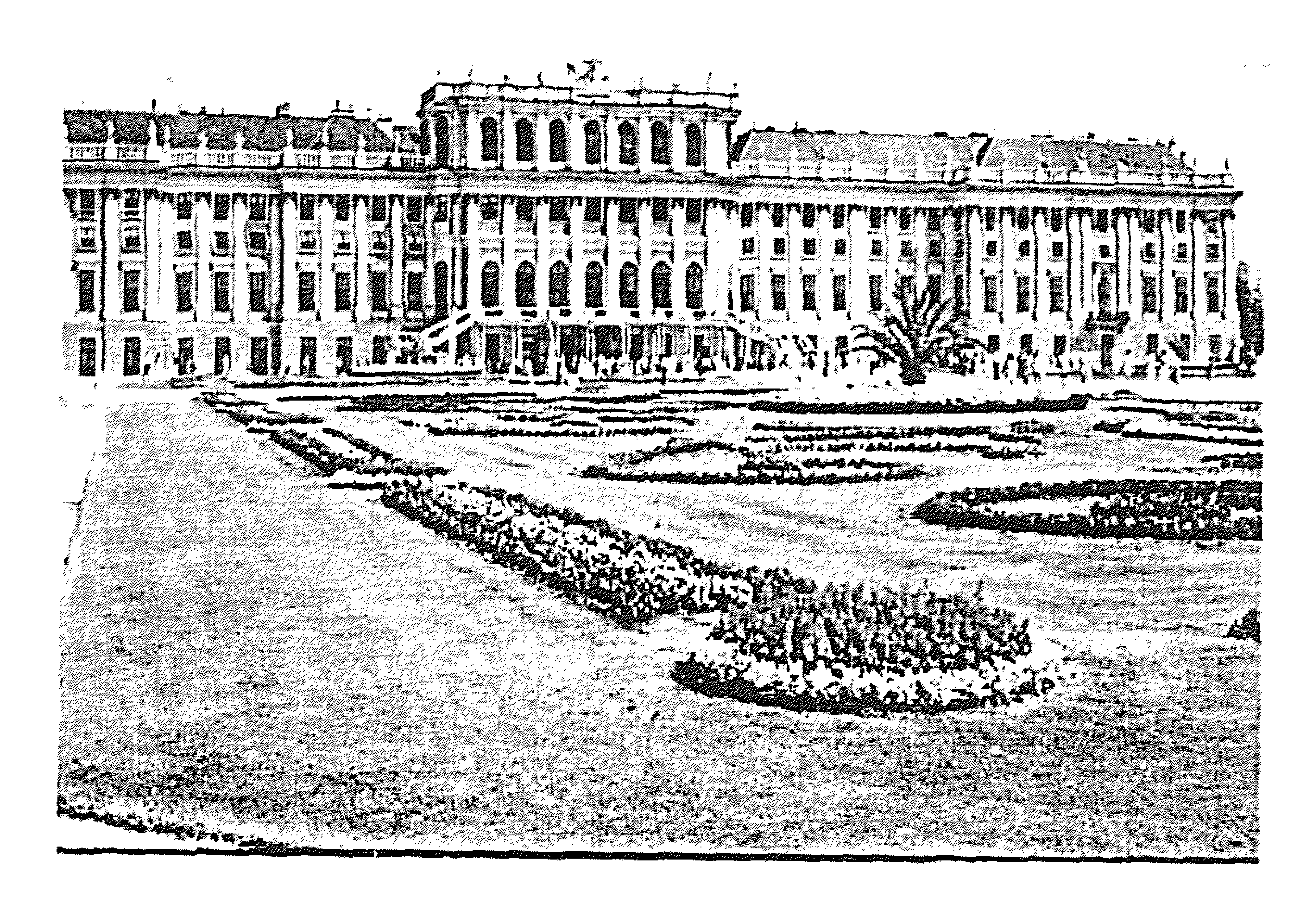
(١)ماريا تيريزا: (١٧١٧ــ ١٧٨٠م)ملكة بوهيمياً (١٧٤٠ــــ ١٧٨٠م) الابنة الوحيدة للإمبراطور شارك. جابهت عند اعتلائها العرش حلفاً أوروبياً، واستولى فريدريك ملك بروسيا على سيليزيا، مما أدى إلى نشوب حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ــ ١٧٤٨م) وانتهت باستيلاء بروسيا على معظم سيليزيا. وحصلت على انتخاب زوجها إمبراطورا للدولة الرومانية المقدسة ١٧٤٥م. اندلعت حرب السنين السبع (١٧٥٦ــ ١٧٦٣م) التي أنهكت قوى النمسا، ولم تفقد ماريا تيريزا أرضا في هذه الحرب، ولكنها فقدت زعامة النمسا للدويلات الألمانية. أشركت ابنها جوزيف (خلف أباه في لقب الإمبراطور سنة ١٧٦٥م) معها في حكم ممتلكاتها. كانت قوية الشخصية، وأحبها شعبها لاهتمامها بشؤونه، وإدخالها سلسلة من الإصلاحات الزراعية والضرائبية، ولكنها كانت محافظة النزعة، كاثوليكية شديدة الورع، وزوجة مثالية. (أنجبت ١٦ طفلاً). كان بلاطها أنقى بلاط في أوروبا خلقاً وأدباً. وصارت فيينا أبان حكمها مركزاً للفنون والموسيقى. وظفر جلوك وموتسارت. ومن أطفالها مارى كاولين التي أصبحت ملكة نابولي، ومارى انطوانيت التي صارت ملكة فرنسا.

المختلفة بصورها ومتاعها من مخلفات ملوك النمسا، وتوجد طرز مختلفة في هذه الحجرات وبعضها على الطراز الصيني، وتفرجنا قبل ذلك على مقبرة العائلة الإمبراطورية فكان الدليل يشرح لنا الصور التي أمامنا في القصر وأصحاب أو صاحبات هذه الصور، وقد أفادنا بأن الملك جوزيف الثاني[1] آخر ملوك النمسا الذي حكم ستين عاماً[2] كان متواضعاً جداً وزاهداً ومتدينا اقتصر من القصر على أربع حجر فقط لسكنه ولاستقبال ضيوفه وترك الحجر الأخرى لا يستعملها.

---

(١) جوزيف الثاني (١٧٤١ـ١٧٩٠م): إمبراطور وملك بوهيميا وهنغاريا، وهو ابن ماريا تيريزا. اشترك في حكم ممتلكات آل هابسبرج مع أمه من ١٧٦٥م حتى وفاتها ١٧٨٠م، وخلف أباه بوصفه إمبراطورا ١٧٦٥م. كان مصلحاً ثورياً ومستبدا ولكن تعجله ونفاد صبره قللا من فائدة كثير من أعماله وخدماته في أثناء حياته، لم يفلح في تحقيق هدفه الخاص بإلغاء الامتيازات الوراثية والكهنوتية للنبلاء وكبار رجال الكنيسة، ولكنه ألغى نظام موالي الأرض والمكوس الإقطاعية على الفلاحين التعساء، ومكنهم من شراء الأرض بثمن رخيص ومنح رعاياه قسطاً كبيراً من التسامح الديني. وفي سنة ١٧٨١م، ألغى التعذيب في التحقيقات القضائية، وجعل قانون العقوبات يتسم بالإنسانية، وأنشأ درجتين في استئناف الأحكام القضائية. اتخذ تدابير وإجراءات غير محبوبة لدى الكهنوت فحظر على الطوائف الدينية إطاعة القواد الأجانب، وأغلق دور الطوائف المذهبية التي تقضي وقتها في التأمل، ولم يثنه عن إصلاحاته الدينية زيارة البابا بيوس السادس له. أخفقت مشروعاته في فرض ضريبة واحدة على الأرض وتقديم الطعام والعلاج مجاناً للمعدمين.

(٢) الصحيح أنه حكم خمسة وعشرين عاماً.

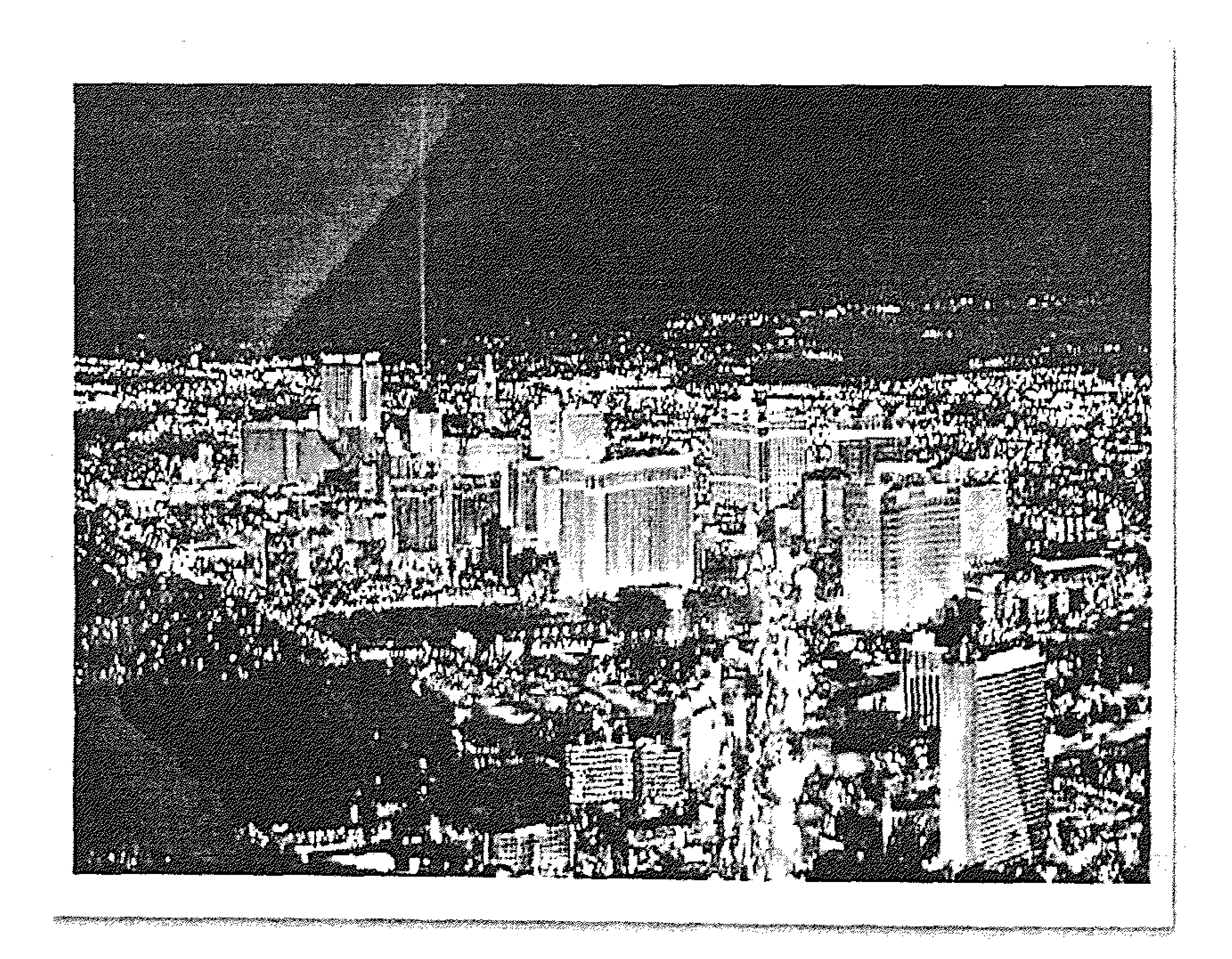


تجولنا في القصر وشاهدنا الحجرات المختلفة بمتاعها من مخلفات ملوك النمسا

فيينـــــا في الليـــــل

وفي المساء من اليوم نفسه اشتركت في رحلة أخــرى حــول المدينة ويدعى هذا البرنامج باسم (فيينا في الليل) وكانت رحلــة جــد ممتعة إذ طفنا طوفة سريعة بمدينة فيينا بالليل، ثم ذهبنــا إلــى تلــك الأرجوحة الدائرية المتلألئة بالنور ليلاً حتى ركبنــا إحــدى عرباتهــا فدارت العجلة فإذا نحن نرتفع.

يتبقى دعوة الدكتور شوماخر إلى مصر لإلقاء محاضرات عن بريخت لأنه متخصص في دراسته وفي الدراما الأمريكية على العموم، وكان يلقي المحاضرات بالفرنسية التي لا يجيدها تماماً ولكنه يستطيع إلقاءها. كما أنه سيكتب كتاباً عن مصر إذا أقام فيها مدة، وسيكون الكتاب مفيداً لدعاية مصر، كما كتب من قبل كتاباً عن الصين إذ زارها في ١٩٥٦م وهذا الكتاب تم إهداؤه لي، وقد طلبت منه أن يكتب مجملاً عن تاريخ حياته العلمية.



تجولت بنا السيارة في أنحاء فيينا
وكان الدليل يشرح لنا ما نراه بلغات مختلفة

جولة في ميونخ

في يوم الخميس ٣٠ من أكتوبر ١٩٥٨م قررت الذهاب إلى ميونخ لرؤية الدكتور شوماخر، ولنتفرج على الحقول والغابات التي تفصل بين المدينتين، ولرغبتي في زيارة مدينة ألمانية حُصلت على تذكرة ذهاب وإياب بثلاثمائة شلن. وبعد ظهر هذا اليوم بينما كنت أصرف نقودي في البنك تعرفت بفتاة طيبة ساعدتني في التحدث إلى رجال البنك، ولما علمت أنني من مصر أبدت لي شيئاً من المودة، وخرجنا من البنك معاً، وتجولنا في المدينة وهي تقول لي: عندي ساعة من الوقت أستطيع أن أمضيها معك إذا شئت لأفرجك على شوارع المدينة، وقالت لي: إذا كنت ترغب في زيارة معالمها أو متاحفها فأنا مستعدة لمصاحبتك، وتبين لي أنها تحب الأدب والقراءة وعلى إطلاع واسع على الشؤون الأدبية.

أمريكية تتمنى وإنجليزية تشكو!

وفي صباح اليوم التالي يوم الجمعة ٣١ من أكتوبر ١٩٠٨م ذهبت إلى محطة القطارات في الساعة الخامسة والنصف، واضطررت لركوب عربة أجرة خشية أن يفوتني القطار، وهناك ركبت القطار الذاهب إلى ميونخ، وكنت حصلت قبل ذلك بيوم تذكرة ذهاب وإياب بمبلغ ثلاثمائة شلن. وفي القطار جلست بين سيدة إنجليزية



تجولنا في ميونخ وهي تقول لي:
عندي ساعة أن أمضيها معك لأفرجك على شوارعها

وفتاة أمريكية، وتحدثت إليهما في كثير من الشؤون، أما الفتاة الأمريكية فهي تعمل في السفارة الأمريكية بفيينا، وتريد أن تزور بعض أقاربها في ميونخ وهي تأمل أن تنتقل يوما ما إلى القاهرة، وأما السيدة الإنجليزية فهي تعمل لحساب جمعية من جمعيات البر تعنى بمساعدة اللاجئين المقيمين في الأكواخ في النمسا، وحدثتني عن هؤلاء المساكين، ومنهم جماعات هربوا من يوغسلافيا وألبانيا وغيرهما، وأن الحكومة النمساوية تعينهم بالمال، ولكنها لا تستطيع أن تجد لهم عملاً، ثم إن هنا مشكلة قلة المساكن. وهي سيدة فاضلة يعجب من يستمع لحديثها كيف تكون هي من الإنجليز! وحدثتني عن إنجلترا عجباً حين

سألتها عن مشكلة التعصب الجنسي ضد الملونين إذ قالت: إن ذلك من عمل الجيل الجديد الذي لم يتلق قسطاً من التربية، أما بقية الشعب البريطاني فإنه لا يشعر مثل هذا الشعور بل يعارضه، واستطردت تقول: إنهم في إنجلترا يشكون من السطحية في كل شيء: في التعليم، وفي الأدب، وفي الفن.

وصلت إلى ميونخ حوالي الساعة الواحدة، وكان أول عمل قمت به أن توقفت أمام لافتة إعلان تحمل أسماء الفنادق وتلفوناتها، وأيها يكون أقرب إليها، ولكنني لم أجد فندقا واحداً بسرير مفرد، فاضطررت أن أقيم في بنسيون تديره امرأة متزوجة وتقوم بالعمل فيه آنسة تدعى إليزابيث، ويقع البنسيون في شارع موزارت قريباً من ميدان جوته. وهكذا تجد الشوارع في هذه المدينة بأسماء كبار الكتاب والفنانين والموسيقيين فشارع ليسنج، وشارع شالمر، وشارع بتهوفن.. إلخ، ولم تجد صاحبة البنسيون حجرة بسرير مفرد، فأعطتني حجرة بسريرين على حساب حجرة بسرير واحد وكان الأجر تسعة ماركات في الليلة الواحدة مع فطور الصباح. ومع ارتفاع هذا السعر إلا أنه هو الجاري في ميونخ، على أنني أُعطيت في الواقع شقة بأكملها لا يشاركني فيها أحد ورزمة المفاتيح، معي مفتاح الباب الخارجي ومفتاح الشقة ومفتاح الحجرة وهي مجموعة في طوق واحد، وللمفاتيح أزرار شددته، وجعلت المفاتيح في الطوق الجلدي كأنه شنطة صغيرة من الجلد.

مع رجال الصحافة والمسرح:

واتصلت على الفور تليفونيا بالأستاذ الدكتور فيليب شوماخر الذي لقيته في ستالين أباد بطاجكستان، وأعطيته النسخة الفرنسية من كتاب (مأساة أوديب)، إذ أعرب لي عن رغبته في ترجمتها إلى الألمانية وهو صاحب جريدة مشهورة في ميونخ توزع حوالي عشرين ألف نسخة أو تزيد، تدعى Deulseke woche، وقد سمعت صوته في التليفون فما كاد يصدق أنني في ميونخ حقا، واعتذر ذلك الحين بأنه مشغول في جريدته وضرب لي موعداً في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي ليلقاني في الفندق، فانتظرته في الموعد فإذا هو قد جاء ومعه اثنان من أصدقائه الصحفيين والكتاب، أحدهما يعمل في نفس الجريدة التي يتولى رئاسة تحريرها الدكتور شوماخر ويدعى الأستاذ فرانز بوتز، والثاني يتولى تحرير صحيفة أسبوعية تدعى (بانوراما) خاصة بالفنون والآداب ويدعى الأستاذ يورجن بكلمان، والأول يرأس تحرير الشؤون الخارجية لجريدة (ديتش واش) وهو يتكلم الفرنسية بطلاقة أما الثاني فيحسن الإنجليزية فرحبت بهم في الفندق، وجلسنا نتحدث حوالي ثلاث ساعات وقصصت عليهم تلخيص (مأساة أوديب)، وكنت أتحدث إلى الأستاذ بوتز بالفرنسية فيترجمها لصاحبه بالألمانية، ووجدت الثلاثة على جانب كبير من الذكاء، فكانوا يتابعون القصة بشغف عظيم لم أجده في أحد من قبل وأعجبوا بها وقالوا كيف لم تمثل هذه المسرحية حتى الآن، وعرضوا علي أن أقابل ناشراً كبيراً في ميونخ للاتفاق معه بصددها، ثم أخذوا يتشاورون في

تنظيم برنامج لي في ميونخ، وكان أن اتفقنا على أن أشاهد (ماكبث) لشكسبير تلك الليلة مع السيدة بكلمان، زوجة الأستاذ بكلمان وأنها ستنتظرني على باب المسرح في شارع مكيمليان.

وفي اليوم التالي أنا مدعو إلى بيت الدكتور شوماخر في الساعة السابعة ونصف فأنتظره في الفندق فيأخذني معه إلى بيته.

سيدة مثقفة، وجولة مفيدة:

وفي الموعد المحدد: الساعة الثانية والربع كنت على باب المسرح المشار إليه ومعي عدد من جريدة (بانوراما) لتعرفني السيدة، كما أن بيدها هي أيضاً عدد من نفس الجريدة، وهي آية التعارف بيننا، فلم أشعر إلا بسيدة تقترب مني وبيدها الجريدة فسلمت علي، فإذا هي تعرف اسمي وهي سيدة في نحو الخامسة والعشرين نحيفة رشيقة القوام غير معنية كثيراً بهندامها، عليها أمارات الجد في شيء من اللطف والدماثة.

وبعد تبادل التحيات ذهبت لتحصل على تذاكر الدخول والناس أفواج يشترون أيضاً التذاكر فأعياها ذلك ولم تستطع أن تحصل على شيء بعد أن وقفنا حوالي ساعة في الانتظار وكذلك بقية الحاضرين، وأبدت أسفاً شديدا لهذه النتيجة إلا أنني طيبت خاطرها، وقلت لها: لا بأس سأراها في وقت آخر. ثم رأت أن تفرّجني على المدينة فتجولنا فيها نشاهد آثارها الفنية القديمة من كنائس وأحياء وغيرها، وتسلقنا برجاً عالياً في إحدى الكاتدرائيات، وكان البرج عالياً جداً حتى بلغت القمة فإذا المدينة كلها تحت أقدامنا.



صعدت البرج عالياً حتى بلغت القمة فإذا ميونخ كلها تحت أقدامنا

وقد هالني اتساعها مما لم أتمكن أن أشهد من قبل، وأخذت تشرح لي أحياء المدينة وتاريخها، وجلسنا على مقعد في القمة ثم نزلنا من البرج. وواصلنا تجوالنا في أحياء أخرى وفي محلات بيع التحف، ثم دعتني إلى مقهى فخم في أحد الأحياء الراقية فصعدنا السلم إليه لأنه في الطابق الثاني وجلست تحتسي القهوة، وقالت بكل بساطة، إنني جائعة لأنها لم تتمكن من تناول الغذاء، وسألتني إن كنت أريد أن أتناول شيئا فاعتذرت بأنني شبعان، وقد أبت إلا أن تدفع الحساب بنفسها، ثم واصلنا تجوالنا حتى بلغنا المسرح الكبير، وهو أحد

مسرحين قوميين حيث تمثل فيه مسرحية (فاوست) لجوته[1]، وحاولت كذلك أن تحصل لنا على تذاكر فأعجزها أيضاً، فما كان منهــا إلا أن قادتني إلى المقهى المشهور في ميونخ المسمى (هوف بروس هاوس)، وهناك تناولنا كذلك شيئا من الطعام وكان مكتظا بالناس وبه دكـاكين لبيع السجائر والبطاقات وغيرها، ومكثنا هناك حتى الساعة العاشـرة، فاستأذنت للقيام، وأوصلتني إلى الترام الذي يوصلني إلى ميدان جوته، وكان المطر يتساقط غزيراً في الطرق، فلم تبال بذلك، ولـم تطمـئن حتى ركبت الترام، وفي الأماكن التي جلسنا فيها تحدثنا كثيراً في شتى الأشياء، وحدثتني عن نفسها فإذا هي قد زارت الأردن وسورية مرتين بصفتها مراسلة لصحف عديدة في ميونخ، وقد كتبت فصولاً ضـافية عن سياسة الأردن وعن ملكها الملك حسين[2] ووزرائهـا. واكتـشفت أنها تعطف على القضية العربية صدقاً، وتدرك وجهة النظر العربيـة في المسائل المختلفة ولاسيما في مسألة إسرائيل.

---

(١) جوته: (١٧٤٨ـ ١٨٣٢م) أعظم شعراء الألمان، كاتـب مـسرحي ومفكـر وفيلسوف، تعد مسرحيته (فاوست) من أشهر أعماله نشرت سنة ١٨١٩م لـه ديوان يسمى (الديوان الشرقي للمؤلف الغربي) متأثرا فيه بـالقرآن الكـريم، وأشيع بأنه شوهد يصلي ويقرأ القرآن ويصوم وأثر عنه قوله:«إن كان هذا هو الإسلام فكلنا مسلمون»!

(٢) الملك حسين بن طلال (١٩٣٥-١٩٩٩م): سياسي محنك يُعد من دهاة القـادة العرب في العصر الحديث. اعتلى العرش في الأردن سنة ١٩٥٢م. وكـان شريكاً أساسياً في معظم الأحداث الكبرى التي شهدتها المنطقة العربيـة فيمـا يخص قضايا الحرب ومشروعات السلام مع إسرائيل منذ قيام الثورة المصرية حتى وفاته.

التسلط الأمريكي والمداهنة الألمانية:

ولما قلت لها على سبيل المجاملة: إننا نحن العرب نحب الألمان كثيراً من زمن قديم: قالت لي بصريح العبارة: «ولكن لا أكتمك أن الألمان مع الأسف الشديد لايبادلونكم هذه المودة اليوم فإن حكومتهم واقعة تحت سيطرة الحكومة الأمريكية، وهي تحرص على دولارات أمريكا فالجرائد والصحف في ألمانيا كلها تناصر أعداء العرب وتشيع إرجافات وأكاذيب عن العرب»، ثم حدثتني عن الأمريكان وكيف أنهم أفسدوا ألمانيا، وعرضت علي أن تصحبني إلى أحد المقاهي الخاصة بهم، فرحبت بالعرض وزرنا مقهى تعرفه وتعرف صاحبه اليهودي من روسيا، فإذا المقهى خاص بالأمريكان في ملابس مدنية، وبينهم عدد من الفتيات الألمانيات قالت لي بكلمات عنهن: إنهن جميعاً من المومسات، وقد تأثرت كثيراً لتأثرها وأنا أشاهد تلك الزهرات الشابة مضطرة إلى مصانعة هؤلاء الأوباش الذين يختلفون في سلوكهم كل الاختلاف عن الألمان في مفاهيمهم، فهنا العربدة وبذيء القول والمغازلة العلنية، وهناك السكون والأدب والنظام. وكانت زيارة هذا المقهى وشرب القهوة فيه خاتمة المطاف، وقد استوضحتني كثيراً عن السياسة المصرية، فاجتهدت أن أعطيها فكرة صحيحة، وهي تقول: هذا هو الحق لا ما يذيعه أعداؤكم عنكم فيما تنشره الصحف الألمانية عندنا مع الأسف.

طلاب مصريون:

وفي صباح اليوم التالي يوم الأحد تجولت وحدي في المدينة أشاهد حوانيتها المليئة بالحوائج الجميلة. وكان تجوالي في ميدان كارلي، وهو أهم ما في المدينة، وبه المتاجر الفخمة، ومن سوء حظي أن هذا اليوم يوم عطلة تقفل فيه الحوانيت، وكذلك اليوم الذي قبله إذ صادف عيد الموتى عند المسيحيين.

وبهذه المناسبة فإن ميونخ مدينة كاثوليكية وأهلها معظمهم متدينون. وبينما أنا أتجول إذ أبصرت ثلاثة من الشبان عرفت أنهم من مصر، فبدأتهم بالسلام فسلموا علي باشتياق. ولما عرفوا اسمي زادت حفاوتهم بي لأنهم قرؤوا بعض أعمالي. ودعوني لشرب الشاي في بيتهم، فذهبت معهم حتى وصلنا إلى البيت الذي يحتلون فيه حجرة صغيرة فيها سريران، وهم عبد العزيز عجور، وكمال رضوان، وأسامة عبد الحميد الغزالي، وصنعوا لنا الشاي وقدموه مع الكعك، ثم أخذوا لي صورة معهم، قالوا: إنهم سيعتزون بها. وشرحوا أحوال المدينة وأحوال الشعب الألماني ونظرته إلى القضايا العربية تبعاً لسادتهم الأمريكان الذين يغدقون عليهم الدولارات. وفهمت منهم أنهم يقومون برسالة كبيرة في شرح وجهة النظر العربية لهم، واقتربت الساعة السابعة والنصف فأوصلوني إلى ميدان جوته مشياً على الأقدام وكنا نتحدث طول الطريق.

في بيـــت شوماخـــر:

وفي الساعة السابعة و٥٣ دقيقة وصـل الـدكتور شـوماخر فأخذني معه في سيارته الخاصة، وعرفني في بيته بالـسيدة زوجتـه وهي سيدة جميلة محترمة تميل إلى البدانة وتـشبه ملامحهـا ملامـح الإيطاليات· وأخذنا نتحدث أنا وزوجها فإذا هي تخرج ثم تعود وبيدها ألبوم صور لابنها الصغير الذي لم يزل فـي المهـد، ثـم أعطتنـي صورتين منها، وبقينا في بيت الدكتور شوماخر حتى منتصف الليـل فأوصلني عائداً إلى الفندق.

وفي الصباح (يوم الاثنين) الذي قررت فيه السفر عائداً إلـى فيينا كلمني بالتليفون الأستاذ بوزه، وقال: إنه يود لو أمكث يوماً آخـر في ميونخ لأن الأستاذ رئيس دار النشر والطبع (لا أذكر اسـمه الآن) قد وصل من رحلة طويلة هذا اليوم فهو في حاجة إلـى الراحـة، ولا يستطيع أن يعمل، فلو بقيت إلى الغد لأمكن تدبير مقابلة بيني وبينـه، وقال: إنه سيبعث إليه نسخة الكتاب ليقرأها ولكني قدرت أنه لن يتمكن من إتمام قراءة الكتاب حتى لو بقيت إلى اليـوم التـالي، فقـررت أن أرجع إلى فيينا وليكن لدى الناشر المذكور فترة طويلة كافيـة لقـراءة الكتاب وتدبره، ويكون الاتصال والمكاتبة من القاهرة.

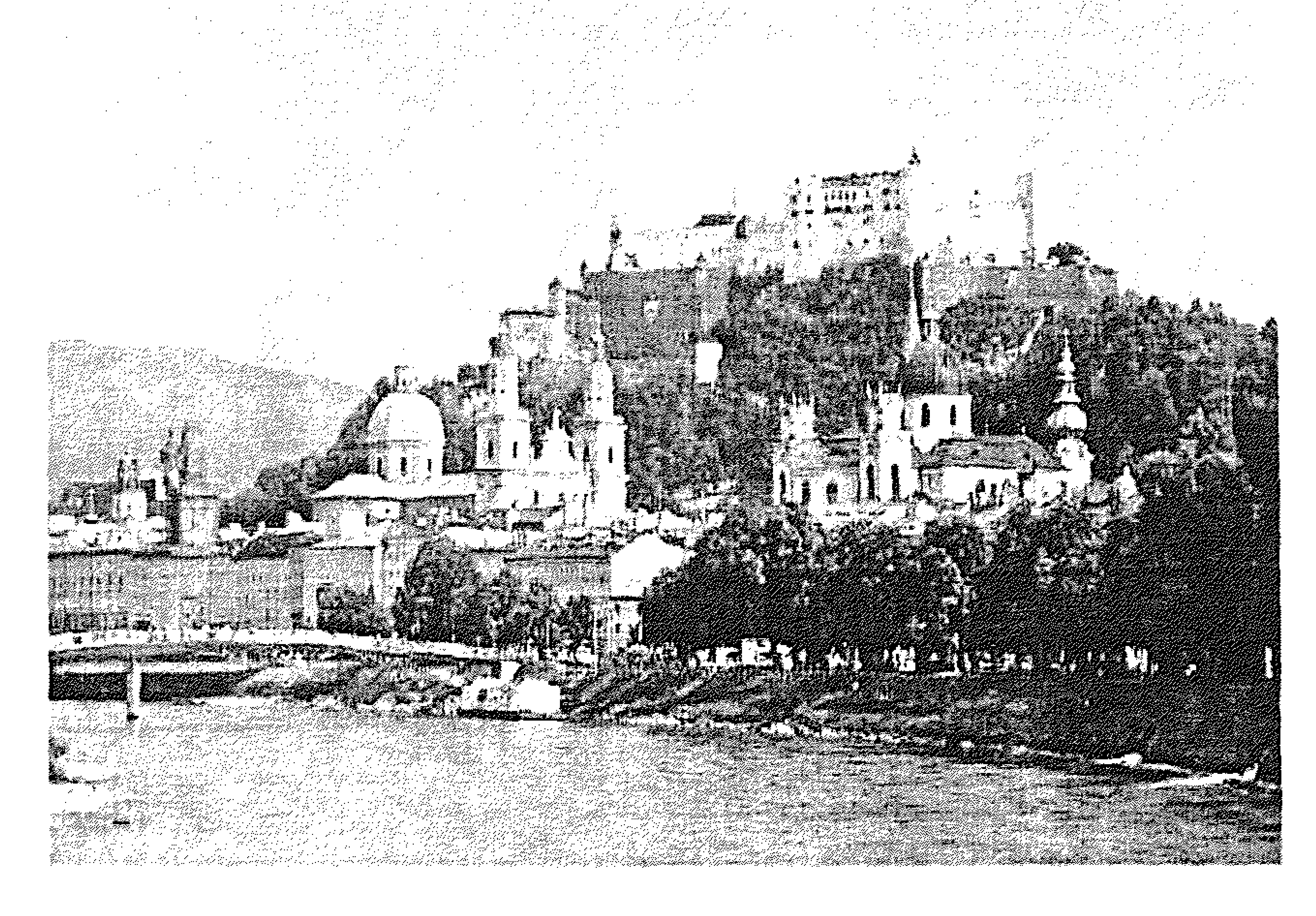
وكنت قد أوصيت السيدة بكلمان بكتابة مجملة عن تاريخ حياتهـا العلمية والثقافية لأعرضه على المسؤولين في القاهرة تمهيداً لتعيينها مدرسة للغة الألمانية بها، فحضرت السيدة إلى الفندق وجلسنا في بهـو الاسـتقبال وطلبت لها قهوة، وسلمتني ما معها مما كتبته عن تـاريخ حياتهـا باللغـة

الإنجليزية على أن أطبعه على الآلة الكاتبة في القاهرة.

وتذكرت زهريات جميلة رخيصة في دكان بشارع ليوبولد القريب من شارع هولفزلرن فاقترحت على السيدة بكلمان أن تصحبني لشراء هذه الزهريات فوافقت بدون تردد، وكان المطر يتساقط بغزارة فركبنا الترام ثم اضطررنا إلى المشي مسافة طويلة تحت رذاذ المطر حتى بلغنا الدكان المشار إليه فاشتريت أربع زهريات صغيرة خفيفة الحمل وعند دفع الحساب أعوزني مبلغ صغير من النقود الألمانية (حوالي مارك ونصف) فدفعته السيدة عني وأنا أذوب حرجاً، ثم أعطتني أيضاً أجرة الترام من الفندق إلى المحطة عند سفري منها قبل أن أتمكن من صرف نقودي في بنك المحطة فشكرتها وأنا في غاية الحرج وشيعتني إلى منتصف الطريق إلى الفندق ثم ودعتني بتحية جميلة.

مأزق في القطار:

ووصلت إلى الفندق ولم يبق على قيام القطار غير ساعة واحدة، ومن حسن حظي وأنا خارج من الفندق أن حضر الدكتور شوماخر ليسلمني هو الآخر مجملاً عن تاريخ حياته العلمية والأدبية؛ لأنه هو الآخر يود لو يتمكن من الإقامة قليلاً في مصر، فيتمكن من الكتابة عنها كما فعل حين زار الصين الشعبية، فكتب عنها كتاباً كبيراً وأهداني نسخة منه. والواقع أنني أنا الذي اقترحت عليه ذلك فقبل الاقتراح بارتياح، وكانت معه سيارته فحملني فيها إلى المحطة، فصرفت النقود في البنك، وذهبت ألتمس الغداء، فتغديت في مطعم المحطة على عجل.



شرحوا أحوال المدينة وأحوال الشعب الألماني ونظرته إلى القضايا العربية

كان معي على المائدة طالب تبين لي أنه من تركيا يدرس الهندسة في ميونخ وهو لا يعرف غير الألمانية، فكنا نتفاهم بالإشارة إلى أن حضر ألماني يعرف الإنجليزية فكان الواسطة بيننا، وهذا التركي ينوي أن يزور القاهرة في طريقه عائداً إلى تركيا، فألقى علي أسئلة عن النقد، وحضر وقت دفع الحساب فإذا بالنقود التي عندي ناقصة ماركا واحدا فحرت في أمري، وعرضت على الخادمة علبة

سجائر فاخرة تشتريها لتقوم مقام المارك فأبت أن تقبل، ووقت القطار قد أزف، فكان الذي أنقذني من الورطة هو ذلك الطالب التركي، إذ قال: إنه سيدفع المارك عني، وعرضت عليه علبة السجائر مقابل المارك فلم يقبل، وأصر على أن يدفع عني بدون مقابل، فأكبرت خلقه وشهامته، وعدوت أحمل حقيبتي الصغيرة عدواً حتى بلغت القطار، وهو على وشك أن يبدأ السير.

وغيرنا القطار في سالسبورج وكدت أقع في مشكلة كبيرة لا يعلم غير الله عاقبتها، إذ بقيت في القطار عند سالسبورج ظناً أن القطار ذاهب إلى فيينا، وخلا القطار من الركاب غيري فاستوحشت من الوحدة وذهبت أنظر في المقاصير الأخرى لا أجد أحداً فوجدتها خالية كلها إلى أن عثرت على فتاة جميلة تجلس وحدها في مقصورة فاستأذنت عليها وكلمتها بالإنجليزية فردت بالقبول، فذهبت أحمل حقيبتي إلى المقصورة، وما أن جلست قليلاً أتحدث إليها هل هي ذاهبة إلى فيينا (وكان هذا هو السؤال المهم عندي) فدهشت إذ أجابت بالنفي، فقلت لها. مستوضحاً أيضاً: أتريدين أن تنزلي في محطة قبل فيينا؟ قالت: لا، هذا القطار لا يذهب إلى فيينا، فصعقت. وقالت: انزل إذن قبل أن يتحرك القطار، ويظهر أنها تعرف الفرنسية أيضاً إذ سألتني هل تعرف الفرنسية فلما أجبتها بالفرنسية. قالت واأسفاه كان ينبغي أن تكون رفيقي في هذه الرحلة، فإني أحب أن أتحدث بالفرنسية؛ فودعتها وأنا أشكرها لإنقاذي من المصير الذي كان ينتظرني لو واصلت السفر في هذا القطار، فضحكت وضحكت لضحكها!



سألتني هل تعرف الفرنسية فلما أجبتها بالفرنسية
فضحكت وضحكت لضحكها...

العـــودة إلـى فيينـــا

نزلت من القطار، وعرفت طريقي إلى موقف القطار الـذاهب إلى فيينا، وكان لم يحضر بعد، فانتظرت نحو نصف ساعة إلى أن جاء فركبت واستمرت الرحلة حوالي ست ساعات، وكان رفقائي شابيْن ألمانيين وشابة ألمانية، وليس بينهم من يعرف غير الألمانية، فكنا نتفاهم بالإشارة، ولما تجاوزنا الساعة التاسعة أرخوا ستائر المقصورة ليناموا، فتضايقت أنا من ذلك. إذ توقعت أن يحدث شيء بينهما وبين الفتاة، ولكن لم يحدث غير نجوى صامتة خفية بين الفتاة وأحد الشابين، وعضني الجوع في القطار فكان من حسن الحظ أن اشتريت بعض الكعك من محطة ميونخ فالتهمته التهاما وأنا لا أشعر بالشبع.

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف تماماً وصلنا فيينا والمطر يتساقط بغزارة، فعرفت طريقي إلى الترام الذي يوصلني محطة وست بانهوف إلى حي الأوبرا حيث أسكن قريباً منها، وحمدت الله على سلامة الوصول، وقبل وصولي إلى الفندق دخلت مقهى يدعى (أرابيا) فتناولت قدح شاي به، ثم توجّهت إلى الفندق ولم ألبث أن نمت من التعب.

وفي الصباح اتصلت بمكتب لشركات الطيران أسأل عن الأخبار، ثم تجولت قليلاً في المدينة، وتناولت غداء في المطعم المتواضع بشارع الخاتم الكبير كلفني حوالي ستة عشر شلنا نمساوياً، والغداء عبارة عن شربة لا بأس بها وطبق من لحم العجل المسلوق مع بطاطس وبسلة.

حوار مع ملحدة ألمانية:

وكنت على موعد في الساعة الثانية في مساء هذا اليوم مع فتاة نمساوية اسمها هرمينة نس تعرفت إليها صدفة في البنك، حين كنت أصرف بعض النقود، رأتني لا أستطيع التفاهم مع الصراف فتطوعت لمساعدتي، وسألتني عن بلدي، فقلت لها: مصر. فأبدت عطفاً، ثم قالت: هل زرت المدينة؟ قلت لا، زرت بعضا منها.

وخرجنا من البنك معاً، فتجولنا في بعض الشوارع، ثم دخلت مقهى، فشربنا القهوة. وهناك اعتذرت بأنها ستذهب إلى عملها في محطة الإذاعة، وأنها على استعداد لتصحبني في وقت آخر. فقلت لها: إنني مسافر غداً إلى ميونخ أقيم فيها ثلاثة أيام. فقالت: خذ أربعة أيام على سبيل الاحتياط وموعدي معك يوم الثلاثاء في الساعة الثانية أمام البنك الذي تلاقينا فيه.

وحضرت في الموعد أو بعده بدقائق فوجدتها واقفة تنتظرني فتبادلنا التحية، سرنا نتجول في المدينة، وهي تقول لي: إنك أديب - عرفت ذلك لما أخبرتها أنني قادم من موسكو بعد حضوري مؤتمر

طشقند – وينبغي أن أفرجك على الأحياء القديمة في المدينـــة، فلعلهـــا تعجبك وتثير شيئاً عندك، وكذا ذهبنا إلى فيينا القديمة وتمـــشينا إلـــى كنائسها وأهمها كنيسة سان ستيفن الكبيرة، ويرجع تاريخها إلى القرن الخامس عشر أو الرابع عشر وقد هدمتها القنابل في الحـــرب، ولكّـــن بقيت جدرانها الخارجية فأصلحوها بعد الحرب، ومنها كنيسة صـــغيرة جداً، قالت: إنها أقدم الكنائس كلها.

وفي إحدى هذه الكنائس لما وقع بصري على بعض السيدات وهن يغمسن أيديهن في الماء المقدس ظننت أنها ستفعل مثلهن، ولكني دهشت، إذ أشارت إليّ قائلة: هل أنت مؤمن أم كافر؟ قلت لها: مؤمن – مؤمن بالله الخالق العظيم الذي خلق الكون والناس جميعاً لا فـــرق بين شرق وغرب وبين دين ودنيا فابتسمت. قلت لها: وأنتِ؟ قالت: أنا كافرة. قلت لها: لماذا؟ لعل ذلك من أثر الحرب وأهوالها التي أشاعت القلق في النفوس والشك والريبة، قالت: ربما، إن أبي قتل في حـــدود روسيا وهو يقاتل في الميدان.

وأخبرتني أنها وحيدة أبويها وأن أمها مازالت تعـــيش معهـــا، قلت لها: هل فكرت في الكون وفي الطبيعة؟ وهـــل درســـت الفلـــسفة واللاهوت فوصلت إلى هذه النتيجة؟ قالت: كلا، قلت لهـــا: إذن فـــإن كفرك هذا على غير أساس، فضحكت، وهي تقول: إنني مادية. ولـــم أفهم قصدها إلا بعد ذلك، حين جلست في مقهى قديم اختارته بالـــذات لقدمه بعد أن شككت في تحول المقاهي القديمة الجميلة الساكنة إلى ما يسمى espresso أي مشارب حديثة.



مصر والسعودية القيادة الإسلامية والسياسية في العالم العربي والإسلامي

وفي هذا المقهى حدثتني أنها كانت شيوعية وعضواً في الحزب الشيوعي لمدة إحدى عشرة سنة، ثم كفرت بالشيوعية عندما وقع حادث المجر فلم تستطع أن تحتمل تصرف السوفيات، فعرفت حينها لماذا هي لا تؤمن بالأديان.

وجرى حوار عن السيدة مريم العذراء ونحن نتجول في بعض الكنائس، إذ بصرنا بصورتها مزينة بالشموع، فقلت لها: إننا نسميها بالعربية مريم. قالت: هل لها ذكر في كتبكم؟ قلت لها: نعم، إنها مذكورة في القرآن فعجبت! قلت لها: إن في القرآن سورة مخصصة لها اسمها سورة مريم، وإننا نتلوها آناء الليل وأطراف النهار وإن القرآن أعطى لها وصفا رائعاً لا يوجد له نظير حتى في الإنجيل فزاد عجبها. وأخذت أترجم لها بعض الآيات في ذلك، وكان ذلك قبل أن أعرف أنها غير مؤمنة، وفي أثناء مشينا على كورنيش فرع الدانوب ويسمى ساحل فزانزجوزيف، عادت فسألتني: هل الموجود في القرآن مثل الموجود في الكتاب المقدس؟ قلت لها: نعم يوجد كثير في القرآن يطابق ما في الكتاب المقدس، ولكن هناك فروق أساسية بين الدينيْن، فالإسلام لا يؤمن إلا برب واحد، وأن عيسى عليه السلام نبي مرسل وليس ابن الله، ثم إن الإسلام لا يعترف بالواسطة بين الله وبين عبده، فعجبت من هذه النقطة، وسألت: ألا يوجد عندكم قسس ورجال دين؟ قلت: لا. فقالت: هذا حسن – قالت: والمساجد؟ – قلت: هي بيوت الله يصلي فيها الناس ولكن لا يشترط على المسلم أن يصلي فيها بل يمكنه أن يصلي حيث يشاء وأينما يكون، غير أن الصلاة في المسجد أفضل ليتاح للمسلمين الاجتماع والنظام.

وفي ساحل فرانز جوزيف صعدنا في دَرَج إلى الجزء العالي من المدينة، فعجبت من هذه الظاهرة، فشرحت لي أن الدانوب كان يغمر هذا الجزء من الأرض وأن الساحل كان يبدأ من هنا. إن هذه الكنيسة (تشير إلى كنيسة في الربوة) تسمى كنيسة الصيادين والبحارة لوقوعها على الساحل، وكان الصيادون والبحارة يعشقون هذه الكنيسة.

أثــر الدعايــة الأمريكيــة:

وفي المقهى المشار إليه سابقاً تحدثنا في السياسة، فوجدتها مخدوعة بعض الشيء بالدعايات المضادة لسياسة حكومة الثورة في مصر، إلا أنها على شيء من الاعتدال وجعلت أشرح لها الأمور على حقيقتها فلم تكد تصدق ما أقول. ويظهر لي أن الدعاية الأمريكية قد تمكنت منها حتى لقد ساورني الشك في أنها ربما تعمل لحساب الأمريكيين، فالدولارات الأمريكية تعمل عملها في هذه البلاد.

وقد حدث لي مثل هذا غير مرة ففي القطار إلى سالسبورج لقيت فتى مايكاد يبلغ العشرين ما إن علم أنني من مصر حتى بادرني يسأل: ما رأيك في ناصر؟[1] يقصد الرئيس جمال عبدالناصر، قلت: ناصر من كبار رجال العالم وهو زعيم العرب، وقد حررنا من الاستعمار وفتح لنا الطريق لمستقبل زاهر والرأى للجماهير العربية التي تحيط به لكل مكان. فأخذ يردد «الزعيم القاتل» إنه هتلر الثاني[2]، فأخذت أشرح له بطلان هذا الزعم، وطال الحوار بيني

---

(١) جمال عبدالناصر: (١٩١٨ـ ١٩٧٠)، قائد ثورة ٢٣ من يوليو ١٩٥٢م بمصر وأشهر زعماء العالم العربي في عصره وأكثرهم قوة وسلطاناً وتأثيراً على الجماهير.

(٢) هتلر: (١٨٨٩ـ ١٩٤٥م) دكتاتور ألمانيا وزعيم الحزب النازي ومؤسس الرايخ الثالث، عين رئيساً للوزراء سنة ١٩٣٣م، وفي سنة ١٩٣٤م أصبح رئيساً للجمهورية، فنكل بالشيوعيين وطردهم من وظائف الدولة، وأحرق =

وبينه وهو يستمع إليّ في عجب وإعجاب، وقال يا ليتني أتكلم الإنجليزية بطلاقة مثلك، وبدا عليه شيء من الاقتناع. ولما علم أنني قادم من موسكو طفق يسألني ويردد المزاعم الأمريكية أيضاً عن الاتحاد السوفياتي وعن الحياة فيه، وقال: إنني لا أستطيع أن أتذكر خروشوف إلا وفرائصي ترتعد من ذلك الرأس الذي يشبه المطاط، فأخذت أشرح له حقيقة الحال في الاتحاد السوفياتي، وحضر موعد نزوله من القطار فقال لي: أواصل السفر معك لأستمع إلى حديثك فقد استفدت كثيراً: قلت له لا بأس أن نفعل ذلك، قال: فإني أعدك من اليوم فصاعداً أن أقرأ مختلف وجهات النظر ولا أقتصر على الصحف الغربية.

=

اليهود وآبادهم وشتت شمل من بقي منهم. قادت سياسة الفوهرر الخارجية ذات الطابع العدواني إلى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ـــ ١٩٤٥)، ولقيت هذه السياسة تشجيعاً من جانب الحكومة البريطانية في بادئ الأمر. فقد عقدت هذه الحكومة معه اتفاقية نقضت أحكام معاهدة فرساي، وتساهلت معه في شأن إعادة تسليح الراين، وأغضت عن ضمه النمسا ثم تشيكوسلوفاكيا. أعلن هتلر الحرب على بولندا في أول سبتمبر ١٩٣٩، وسرعان ما اندلعت ألسنة النيران في أوروبا، وخاصة حينما أعلن الحرب على روسيا ١٩٤١م، ونصب هتلر نفسه قائداً للجيش الألماني، مما أدى إلى نتائج وخيمة. تآمر بعض كبار الموظفين العسكريين والمدنيين على اغتياله بوضع قنبلة تحت مقعده، ولكن المؤامرة قمعت بصرامة بالغة على يد هتلر قائد الشرطة الأكبر. خرت الجيوش الألمانية سريعة أمام هجوم الحلفاء على ألمانيا من كل ناحية (١٩٤٤ـ ١٩٤٥م)، فانتحر هتلر في ٣٠ من أبريل ١٩٤٥م في برلين مع زوجته إيفا براون التي كان قد عقد قرانه عليها حديثاً، وعين الأميرال دونتز خلفاً له، فسلم للحلفاء دون قيد أو شرط، بعد تعيينه بأيام قلائل.



سألوني ما رأيك في عبدالناصر فقلت:
الرأى للجماهير التي تحيط به في كل مكان

مع الآنسة هرمينة تحت الأرض:

نعود إلى حديث الآنسة هرمينه نس، ومن الغريب أنها تقيم في بيت يقع قريباً جداً من مكتب الملحق الثقافي المصري في شارع أرجنتينا، فالمكتب رقم ٢١، وبيتها رقم ١٣.

وتشعّب الحوار فتناول مشكلة إسرائيل وسألتني: ماذا تعتقد في إسرائيل؟ قلت لها: أعتقد أنها دولة مفتعلة لأن الدول اليوم لا يمكن أن تقوم على أساس الدين، فاليهود لا تجمعهم غير رابطة الدين، فهم من جنسيات مختلفة، وقد تكوموا في فلسطين بعد أن طردوا أهلها العرب، فهم يعيشون في العراء والمخيمات في حالة يُرثى لها، وعددهم يبلغ مليون نفس، ومع أن هذا الدستور هو الذي زرع إسرائيل في قلب الأرض العربية.

وذكرت لها خطر ازدواج الولاء الذي سيكون وبالاً على اليهود في العالم، قالت: ولكن ناصر يقول: إنه سيرمي اليهود في البحر، قلت لها: هذا كذب افتراه الاستعمار على ناصر، ولم يصدر مثل هذا من ناصر قط، ويجب أن تعلمي أن ناصر أحصف وأدهى من أن يتفوه بمثل هذه الكلمة، فهو يعلم قبل أي واحد غيره أن مصير إسرائيل الفناء إن عاجلاً أو آجلاً، وليس من سياسة ناصر أن يتيح للدول فرصة التدخل في الشرق الأوسط لو أنه هاجم إسرائيل، فأظهرت كثيراً من الاقتناع بهذا البيان.

وقلت لها: إنني كتبت مسرحية في هذا الموضـــوع عنوانهـــا (شعب الله المختار)[١] وهنا تحول الحديث مـــن الـــسياسة إلـــى الأدب فحدثتها عما صنعت في ميونخ مع أصدقائي الألمان بها، ولما علمـــت أنني سلمتهم نسخة من مسرحيتي (مأساة أوديب) سألتني أن ألخص لها فكرتها الأساسية ففعلت، فأعجبت بالموضوع. وتبين لي بالطبع أنهـــا على اطلاع بالآداب القديمة، وكانت قد أحضرت معهـــا نـــسخة مـــن جريدة نيويورك هيرالد تريبيون فيها مقال عن الكاتب الروسي الذي نال جائزة نوبل هذا العام عن قصة (الدكتور جيفاكو) واسمه باسترناك[٢].

(١) شعب الله المختار: مسرحية كتبها سنة ١٩٥٨م عن خطر الهجـــرة اليهوديـــة إلى فلسطين مثلت على مسرح حديقة الأزبكية ســـنة ١٩٥٨م، إخـــراج كـــرم مطاوع.

(٢) باسترناك: (١٨٩٠ـــ ١٩٦٠). شاعر وكاتب قصصي روسي، اشـــتهر بكتابـــه (دكتور زيفاجو) (١٩٥٧م). نال باسترناك جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٥٨م وقد قبل الجائزة، ثم اضطر إلى رفضها تحت ضغط الحكومة السوفيتية آنـــذك. وقـــد حرمت السلطات كتاب (دكتور زيفاجو) في الاتحاد السوفيتي سابقاً. كان الكتاب قد طبع أولاً في إيطاليا، ثم ترجم لاحقاً إلى اللغة الإنجليزية، وإلى عدة لغات أخرى. وزيفاجو هذا طبيب روسي مر بتجربة قاسية، وعانى من الفوضى أثنـــاء فتـــرة الثورة في بلاده، ولم يكن يقبل الحكم الشيوعي، وكان يحاول أن يعثر على السعادة في الحب وجمال الطبيعة. على الرغم من أن أشعار باسترناك قد ساندت ثـــورتي روسيا (١٩٠٥و١٩١٧م) إلا أنه لم يكن راضياً عن كثير من المبادئ الـــصارمة التي فرضها الحزب الشيوعي، وخلال الثلاثينيـــات والأربعينيـــات مـــن القـــرن العشرين منعت الحكومة السوفيتية السابقة نشر معظم كتابات باسترناك. فعاد إلى ترجمة الأشعار والتمثيليات التي كتبها كتّاب أجانب، مثل جوهان فـــون جوتـــه، ووليم شكسبير. وفي عام ١٩٥٧م فصل اتحاد كتاب روسيا باسترناك من عضوية الاتحاد؛ وأدى ذلك إلى عدم إمكان طبع أعماله في الاتحاد السوفييتي. وفي عـــام ١٩٨٨م طبع كتاب (دكتور زيفاجو) بالاتحاد السوفييتي لأول مرة.

فسخطت عليه الحكومة السوفيتية، وقد حرصت على أن تطلعني على هذا المقال، فكان ذلك مما شككني في أمرها من حيث صلتها بالدعاية الأمريكية.

وخرجت من المقهى بعد أن دفعت هي الحساب ورفضت رفضاً باتا أن أدفع قائلة إنني ضيفها العشية، فتركتها تفعل ذلك، وقلت في نفسي: سأدفع أنا حساب العشاء إذا تعشينا فلا بأس أن تدفع الآن حساب القهوة، وبعد أن تجولنا كثيراً في الأحياء القديمة، قالت لي: سأذهب بك الآن إلى أقباء فيينا، قلت: افعلي ما تشائين، فهبطت إلى قبو من هذه الأقباء، فإذا هو سرداب مبني سقفه وجوانبه من الصخر كأنه مجاري الماء في فرنسا، وإذا هو مملوء بالناس يشربون ويأكلون ويغنون على موائد متفرقة على طول السرداب، واتخذنا مجلسا في أحد أركانه واستأذنتني لحظة ظننت أنها ستقضي حاجة في المرحاض، ولكني تبينت بعد قليل، إذ رأيت الناس يذهبون ويجيئون بأقداحهم وطباقهم، أنها لابد قد ذهبت لتحضر كوبين وطبقين لنا فأسفت إذ لم أنهض أنا للقيام بذلك، وخشيت أن تدفع هي الحساب مقدما ووقع ما توقعت أن يكون إذ أقبلت بقدحين من الشوربة، ومع القدحين طبقان من السجق، فأكلنا ونحن نتحدث في مختلف الشؤون، وكان الحديث في هذه المرة أخف وزنا وأكثر مرحا، فالجو كله مشبع بالبهجة والمرح، وأسفت إذ لم أهتد إلى مثل هذا القبو من قبل، فقد مررت غير مرة من قبل، فلم أعرف ماذا يصنعون فيه؟

فتاة نمساوية عجيبة كريمة:

وكان مما استطرد إليه الحديث صعوبة تعلم اللغة العربية، فقلت لها: إنها ليست صعبة إلا في بدايتها، أما بعد ذلك فستجدين من المفردات قياساً ما يعينك كثيراً على تعلمها، وأخذت أضرب لها الأمثال، فشاقها ذلك وأخذت تطالبني بالمزيد من الكلمات المفردة وبعض الجمل والعبارات، وقالت لي في خبث جميل لطيف: قل لي جملة بالعربية تراها مناسبة. ففكرت قليلاً ثم قلت: «الله يهديك»...إلخ. فكانت تضحك وتكتب الكلمات بالحروف اللاتينية وإلى جانبها معانيها حتى ملأت الجريدة التي معها بالكتابة وهي مسرورة فرحة، وقد رأيت من ذكائها في التعلم عجباً، حتى قلت لها. على هذه الطريقة أستطيع أن أعلمك أصول اللغة العربية في شهر واحد، قالت: أجل سأتعلمها سألتحق بمعهد الدراسات الشرقية في فيينا وأتلقى العربية على يد صديقك الدكتور جوتشالك، وكنت قد حدثتها عنه ساعة لقائنا الأول، ثم قالت لي: ياليتني أستطيع أن أزور القاهرة في الإجازة الاعتيادية، ولكن النفقات كثيرة علي، قلت لها: هل ترغبين في تعليم اللغة الألمانية عندنا فتستطيعين أن تقيمي في القاهرة مدة أطول؟ قالت: لا أستطيع أن أترك عملي بالإذاعة.

ثم بدأت تحدثني عن خطيبها، وما كنت أعلم أنها مخطوبة إلا في هذه اللحظة، ولما سألتها عنه قالت: لا تسألني عنه فقد غار منك لما أخبرته أنني سأرافقك وأفرجك على المدينة. قلت: حقا؟ قالت: نعم، حتى لقد أراد أن يمنعني من مقابلتك في الموعد، ولكني لم أطعه، قلت لها: لمَ لم تدعيه إلى المجيء معك ليراني ويلقاني؟ قالت: إنه مشغول، ثم إنني لم أستأذن منك في المجيء به معي، لا ينبغي أن أفعل ذلك.

قلت لها: في المرة القادمة أحضريه معــك، قالــت: إنـــه لا يعــرف الإنجليزية، قلت: ماذا يعرف من اللغات غير الألمانية - شـيئا مــن الفرنسية - هذا حسن أنا أعرف الفرنسية فسأتحدث معه بها، فضحكت في شيء من الأسى، وقالت بالعربية التي تعلمتها مني منذ الساعة: لا ياعزيزي السيد باكثير. فقلت: لماذا لا؟ فاستطردت تقول بالإنجليزيـــة: لا أستطيع أن أقابلك مرة أخرى، هذه المرة وكفى. قلت لها: ولكن مــا المانع؟ قالت: المانع هو ما ذكرت لك من قبل أن خطيبي لـــن يـسمح لي، وستحدث بيني وبينه مشاجرة إن فعلت، ولم أشأ أن أثقل عليهـــا، فاكتفيت بهذا القدر من السؤال.

والواقع أن الذي آلمني هو أنها دفعت الحساب عني ولم تــتح لي فرصة لدفع الحساب عنها فشعرت بخجل شديد، ولمحت لها عــن ذلك فقالت: ليس بيننا يا عزيزي فرق أنت ضيفي الليلة ولم أدفع غيــر قدر يسير لا يذكر، وقد سعدت بمقابلتك واستفدت منك كثيراً.

فتاة عجيبة وموقف محير:

ولم تلبث أن نظرت في ساعتها، فصاحت: التاسعة والنصف! يجب أن أكون في البيت الآن، فنهضت وأخذنا نـسير فــي الطريــق صوب الحي رقم٤ من فيينا حيث يقع فندقي ويقع قريباً من بيتها أيضاً. قلت لها: وأنا لا أعرف الاتجاه: أين نمضي الآن؟ قالت: مــن حــسن الحظ أن الطريق يجمعنا، فنحن عائدان إلى بيوتنا.

وطفقنا نمشي حتى وقفت بي في شارع، فقالت: انظر هذا هو منزلك، فنظرت فإذا أنا حقا أمام الفندق ولا أدري كيف! إذ سلكت بي طريقاً غير الطريق الذي أعرفه، فقلت لها: إذن يجب على أن أوصلك

أنت إلى بيتك، فلم تمانع، بعد أن اطمأنت على أني أعرف الطريق إلى الفندق وماشيتها صوب شارع أرجنتينا حتى إذا كنا على مقربة منـــه، وقفت تودعني!

قالت: هذا آخر العهد بيننا في فيينا. فإذا عزمت على الـــسفر إلى القاهرة فسأكتب إليك قبله بمدة لتبحث لي عـــن فنـــدق متواضـــع رخيص، وشكرتها على كل ما صنعت من أجلي، وهي تقول لم أصنع شيئاً، هذا واجبي، وقد سعدت بك أكثر مما سعدت بي. كل ما أريـــده منك أن تذكرني بخير. وتركتها تمشي نحو بيتها، وأنا أنظر إليها حتى غابت عن عيني، وقد تركتني في دهشة لم أفق منها حتى الآن، تـــرى ما الذي جعلها تسلك هذا السلوك؟ تضيع معي أكثر من تسع ســـاعات من وقتها فتفرجني على المدينة وتنفق علي من جيبها وتحـــافظ علـــى موعد مضت عليه أربعة أيام ثم تودعني هذا الوداع العجيب.

إن كل هذا الأمر لعجيب، ولاسيما في هذه البلاد التي يحرص أهلها على المال حرصاً عجيباً، إني إلى الآن لفي حيرة، وسأبقى فـــي حيرتي حتى أجد تفسيراً، وأنّى لي بالتفسير؟

رسالـــة من مصـــر:

وفي صباح اليوم التالي يوم الأربعاء خرجـــت مـــن الفنـــدق، فجرى الحارس خلفي، وسلمني كتاباً من مصر، ففضضته في شـــوق فإذا هو من فوزي سالم[1]، ففرحت بسلامة الأهل وعـــافيتهم، وقرأتـــه

---

(١) فوزي سالم باعامر:كان باكثير الذي لم يرزقه الله بولد يعبر عن أبوته بتبنـــي بعض أبناء الحضارم في إندونيسيا يستقدمهم إلى مصر للتعليم ويعيشون معـــه في بيته كأنهم من صُلبه وهذا واحد منهم.

مرتين، ثم واصلت سيري إلى مكتب شركات الطيران، فسألتهم: إن كان في استطاعتي أن أسلك طريق أمستردام لأمكث فيها بضعة أيام، فنظر الموكل بالأمر في أوراقي كلها ثم أجابني أن ذلك غير مستطاع لأن أمستردام يقع في خط قبل فيينا، وإنما يمكنني أن أمر بالخط المنحدر من فيينا لا الصاعد منها، وأرانا الجدول الخاص بذلك، فعرفت منه أن في وسعي أن أذهب إلى زيورخ وجنيف وميلانو وروما وأثينا إلخ... فبدا لي أن أختار طريق ميلانو لأني لم أرها من قبل، ولكني لم أقطع في الأمر بعد.

وذهبت إلى مكتب الملحق الثقافي لزيارته فمكثت به مدة طويلة وتجاذبت الحديث مع رئيس المكتب الأستاذ حافظ، ثم حدثته عن رغبتي في زيارة ميلانو فشجعني على ذلك، وقال: إنك لا تسافر كل يوم، فتوكل على الله فإنها مدينة جميلة، ثم أعطاني مذكرة بالأمور التي يريد مني أن أبلغها للأستاذ محمد سعيد العريان(١) ليهتم بها اهتماماً خاصاً، وهي أمور ثقافية على جانب كبير من الأهمية.

ولم يخطر ببالي حينئذ أن علي أن أحصل على تأشيرة موافقة لدخول إيطاليا فقد غاب عن بالي ذلك مع علمي به، فقد سبق أن

---

(١) محمد سعيد العريان: (١٩٠٥ـ ١٩٦٤م) قصصي وروائي إسلامي وصديق شخصي لباكثير، تخرج في دار العلوم بالقاهرة سنة ١٩٣٠م، ثم عمل بالتدريس إلى سنة، ١٩٤٢م، ثم نقل إلى وزارة المعارف. اشتهر بوفائه ودفاعه عن أستاذه وصديقه مصطفى صادق الرافعي، نشر الكثير من كتاباته بمجلة الرسالة، ومن رواياته (قطر الندى)، (على باب زويلة)، (شجرة الدر) و(من حولنا)، و(ألف يوم الأنقاض) وسافر مع باكثير مع رحلة رسمية إلى الاتحاد السوفيتي ورمانيا سنة ١٩٥٦م.

احتجت إلى تأشيرة لدخول تشيكوسلوفيا والنمسا مع أن هذين البلـــدين مذكوران في الجواز الذي عندي، ولكن هكـــذا وقـــع لأمـــر أراده الله سبحانه فلولا هذه العقبة لكنت الآن في ميلانو فقـــد كنـــت قـــررت أن أغادر فيينا في الساعة الثالثة بعد الظهر بتوقيت فيينا وكان المفروض أن أصل إلى ميلانو في الساعة السابعة والربع والذي حصل الآتي:

أويت إلى فراشي البارحة مبكراً جداً فـــي الـــساعة الثامنـــة، واستيقظت في حوالي الساعة الثانية عشرة فغسلت الفانلة الصوف لأنها اتسخت من طول اللبس مع بعض الجوارب، وجففتها على حدائد جهاز التدفئة المركزية فجفت بعد ساعتين.

عجائـــــب التدفئـــــة:

وعلى ذكر هذا الجهاز فإنه حقا ممتع في هذه البلاد الـــشديدة البرودة، ويكفي أن تعلم أنك تستطيع أن تجلس في حجرتك عارياً مـــن الملابس كلها دون أن تشعر بأي برد، وتستطيع بالتالي أن تعمل فـــي حجرتك وتكتب وتؤلف لساعات طويلة دون أن يضايقك شيء، وهـــو يختلف عن جهاز التدفئة الكهربائية (الدفايات) لأن هذه ليست صحية، وتعرض الجالسين بجانبها إلى الإصابة بالبرد إذا خرج من الحجـــرة، وتشعر كذلك بلفح الحرارة يأتيك من جانب واحد، أما هذا الجهاز فإنه لا يدفئ الحجرة وحدها بل البيت كله، وإنك لتعجب من قلة الأغطيـــة المعطاة لنا على سرير النوم إذ لا حاجة إليها في الواقع، وأذكـــر أننـــا نستعمل في مصر الأغطية الثقيلة فلا تقينا من مس البـــرد إلا قلـــيلاً. وهذا الجهاز منتشر الآن في أوروبا كلها فهـــو فـــي الفنـــادق وفـــي



باكثير رئيس وفد الأدباء المصريين للاتحاد السوفيتي ورومانيا سنة ١٩٥٦م يتوسط زملائه: د.محمد مندور ود.شوقي ضيف وعبدالرحمن الشرقاوي ومحمد سعيد العريان

عربات الترام وعربات القطار والمسارح ودور اللهو والمقاهي والبيوت أيضاً، ولكن ليس كل بيت يوجد فيه هذا الجهاز، فكثير من الناس لا يقدرون على دفع تكاليفه بالاشتراك في الشركة التي تديره، وإني على كل حال لم أجرب النوم بدونه في هذه الرحلة إلا في فندق طشقند وفندق سمرقند ونزل ستالين أباد؛ لأن الناس هناك يحتاجون إلى هذ الجهاز كثيراً، إذ تكون في هذه البلاد البرودة القاسية، لذلك كنا نرتعش من البرد في هذه الأماكن أكثر مما كنا نحسه في موسكو وغيرها من البلاد الباردة.

وأذكر أيضاً والشيء بالشيء يذكر - أننا حين بتنا ليلة في فيينا أثناء سفرنا إلى رومانيا في وفد الأدباء المصريين إلى رومانيا والاتحاد السوفياتي عام ١٩٥٦م أننا نزلنا في بيت خاص استأجرنا حجرة فيه لرخصه فقاسينا الأمرين من البرد لعدم وجود هذا الجهاز فيه ولقلة الأغطية حتى إن صديقنا الأستاذ محمد سعيد العريان أصيب ببرد سبب له سعالاً طوال مدة الرحلة وكثيراً ما كان يذكر تلك الليلة في فيينا ويلعنها.

وإني وأنا أكتب هذه الكلمات في حجرتي بالفندق وليس عليّ غير (البيجامة)، ولا أشعر بأي برد على الإطلاق لأتمنى أن يكون لي في بيتي في القاهرة حجرة كهذه أستطيع أن أعمل فيها بالليل في وقت الشتاء دون أن أرتجف ويرتجف القلم في يدي، بل لا أبالغ إذا قلت: إنني لا أستطيع أن أكتب مدة طويلة في النهار أيضاً في القاهرة حين يشتد برد الشتاء إلا بمشقة ومغالبة تطيّر الأفكار من رأسي.

شبع الاشتراكية وجوع الرأسمالية!

وإني لأحلم بشهر أو شهرين في هذه البلاد أكتب في خلالهما قصة أو مسرحية تكون فكرتها قد نضجت في ذهني، إذن لأمكنني أن أتمها في سهولة ويسر، والمرء في هذه البلاد يجوع بسرعة عجيبة، إنه ليتناول الغداء الثقيل أو العشاء المشبع فلا تمضي ساعتان إلا وقد جاع مرة أخرى. والعجيب أننا لم نجد مثل هذا الجوع في الاتحاد السوفياتي، ولعل ذلك لأن الروس وأهل الجمهوريات الإسلامية التي زرناها يكثرون من الأطعمة على موائدهم ويقدمون الطعام والشراب

في كل مناسبة حتى في غير أوقات الطعام، فلا تزور أحداً في بيته ولا تغشى داراً من دور الفسحة إلا وجدت المائدة تنتظرك بأكلها الدسم وشرابها القوي وفواكهها وكعكها وقهوتها وشايها ولبنها وسلطاتها...إلخ. فكان أن نفوسنا شبعت من كثرة رؤية الطعام في كل وقت وفي كل مكان.

أما هنا في هذه البلاد فالأكل بحساب، ويكفي أن تعلم أن فنجان القهوة يكلفك أربعة شلنات أو ثلاثة وثلثاً على أقل تقدير أي ما يساوي ١٢ قرشاً مصرياً، أما في ألمانيا فأغلى من ذلك لأنك لا تستطيع أن تجد فنجان القهوة بأقل من مارك ونصف أي مايساوي عشرين قرشاً صاغاً، فأرخص أنواع السجاير لا تقل علبتها الواحدة عن ماركين أي ثلاثين قرشاً صاغاً، وهذا يجعل كثيراً من العرب هنا يقلعون عن التدخين. فإني أستكثر ما أدفعه فيها حتى لقد هممت بإبطال التدخين لو أمكنني ذلك. أما ركوب الترام فلا يقل ثمن التذكرة عن شلن وثمانين بنسا أي ما يقرب من أربعة قروش ونصف، وفي ألمانيا لا يقل عن ربع مارك أي ما يساوي أربعة قروش، فلا غرابة إذن أن تجد في الناس حرصاً على نقودهم بصورة تلفت النظر فلا تجد هنا ما تجد في بلادنا حين يدفع صديق التذكرة لصديقه في الترام أو في الأتوبيس، فما بالك بالمطعم أو المقهى؟ ولا تجد أحداً يخرج طعاماً في القطار أو يخرج علبة سجائره ليدخن فيعزم على صديقه الجالس أمامه إلا في النادر حين يكونان حميمين جداً، وبينهما تبادل في المنفعة.

حياؤنا وقلة حيائهم:

ولقد حدث لي وأنا في القطار في طريقي عائداً إلى فيينا من ميونخ أن جلس في المقصورة التي أنا فيها شابان وشابة فأخرجت الفتاة سباطة موز من حقيبتها فتناولت موزة لتأكلها، وقدمت أخرى لأحد الشابين حين ألح عليها، ولكنها لم تشأ أن تقدم شيئاً للآخر، وأخذ الاثنان يأكلان وقد عضني الجوع فاستحييت لهما ألا يعزما عليّ بشيء كعادتنا في الشرق، وكان معي شيء من الفطائر ابتعته من محطة ميونخ، فهممت أن آكل منها، ولكني خجلت ألا أقدم شيئاً منها لهؤلاء الذين وجوههم في وجهي، وأشفقت إن أنا قدمت أن يعتبروا ذلك نوعاً من اللوم أوجهه إليهم، فصبرت طويلاً ولم أدر ماذا أصنع حتى بلغ بي الجوع منتهاه، وتذكرت المثل الذي يقول: (حين تكون في روما اصنع مثل ما يصنع الرومان) فأكلت حينئذ ولم أبال بالقوم!

إعجابي بنظام التأمين الصحي:

ولعل ما يستحق التسجيل ذلك النظام المتبع في العلاج والطب في ميونخ، فهناك شركتان أهليتان أو ثلاث لعلاج الناس وتأمين صحتهم، وذلك بأن يدفع كل واحد نسبة ضئيلة من دخله إلى الشركة التي يختارها نظير اشتراكه فيها، وله على الشركة أن تعالجه مجاناً مهما يكلف علاجه من نفقات لأجر الطبيب وقيمة الدواء وتكاليف العمليات الجراحية. والسبيل إلى ذلك أن للمشترك أن يختار أي طبيب ليفحصه وليكشف عليه ويوقع على البطاقة التي يحملها عدد مرات الكشف، ويكتب له وصفة

بالدواء، فيذهب المشترك إلى أي صيدلية يختارها ليصرف منها الدواء ويوقّع صاحب الصيدلية على البطاقة أيضاً. ومعنى ذلك أن الشركة تحاسب هؤلاء الأطباء والصيادلة فيما بعد حين ينتهي المريض من العلاج، ولهذا النظام ميزات كثيرة واضحة، منها: أن الطبيب لا يجد ما يدفعه إلى الاشتطاط على المريض أو الرغبة في إطالة علاجه كما هو الحال عندنا بالنسبة للأطباء المستغلين، ولا يجد كذلك ما يدفعه إلى التذمر والتأفف والفلسفة كما هو الحال عندنا بالنسبة للأطباء الذين يعملون في المستشفيات والمستوصفات المجانية. ثم إن المريض لا يجد ما يمنعه من الذهاب إلى الطبيب، والاهتمام بعلاج نفسه لقلة ذات يده أو لبخله بما يصرف للطبيب وبذلك تقل الأمراض في البلد.

وهناك نسبة ضئيلة أخرى يدفعها المرء للتأمين ضد البطالة، وأغلب هؤلاء من العمال والموظفين، فإذا تعطل أحدهم دفعت له الشركة مرتبه أو أجره اليومي طوال بطالته حتى يجد له عملاً.

أما الذي ساءني فضريبة صغيرة يدفعها كل إنسان للكنيسة الكاثوليكية، وإلا اعتبر خارجاً عنها محروماً من بركاتها، وكثير من الناس لا يؤمنون بالكنيسة، ولكنهم مع ذلك يدفعون لها تلك الضريبة، وهذا موجود أيضاً في النمسا، وأذكر أن صاحبتنا الفتاة النمساوية التي تحدثت عنها طويلاً فيما مضى أخبرتي أنها تدفع الضريبة وإن كانت ملحدة.

حمّام الصباح، والحلاقة، والإفطار:

بعد أن فرغت من غسل ملابسي جلست أكتب رسالة إلى مصر، ورسالة أخرى إلى صديق لي في إيطاليا أخبرته بعزمي على زيارة ميلانو، ورجوته أن يعمل على جعل لقائنا ميسوراً، وجلست بعد ذلك أحسب ما بقي من نقودي فاطمأننت قليلاً، وإن هالني أنني قد أنفقت معظمها في الفترة الوجيزة، والواقع أن اليومين اللذين قضيتهما في براغ كلفاني كثيراً، وكذلك الأيام الثلاثة التي قضيتها في ميونخ.

ثم نمت من جديد واستيقظت مبكراً، فطلبت أن يقدم لي حمام فقد كان آخر عهدي به في براغ حيث يوجد حمام خاص بحجرتي في الفندق، وأستطيع أن أستحم كل يوم، وهو ما كنت أفعله دائماً في مثل هذه الفنادق، فإن الحمام يهبني نشاطاً وقوة، ولكني هنا في فيينا لا أستطيع أن أصنع ذلك لأن للاستحمام في الفندق أجراً خاصاً يبلغ حوالي ١١ شلنا أي ما يقرب من ستة وعشرين قرشا، وكذلك أجر حلق الشعر، فقد ظللت أؤجل حلق شعري خشية أن يرزأني ذلك فيما بقي من نقودي إلى أن رأيت شعري قد طال بصورة مزرية، وخاصة في تلك البلاد التي يكاد المرء فيها يحلق كل يوم، فتوكلت على الله ودخلت صالون حلاقة قدّرت أنه متواضع، فإذا امرأة تتولى حلق شعري، وإذا هي تطلب مني حوالي ١٢ شلنا أي ما يقرب من ثلاثين قرشاً.

وبعد صلاة الصبح تناولت فطوري الذي يرسل إليّ في الحجرة، وهذا من ميزات هذا الفندق المتواضع؛ فإن إفطار

المرء في حجرته لشيء ممتع. والفطور يتألف من قرصين من الخبز وقليل من الزبدة وشيء من المربى وإبريق شاي صغير، وهو كما ترى شيء قليل بالنسبة إلى ما يتناولونه في الفطور، ولكنه يعجبني ويلائم صحتي كل الملاءمة، وما أفسد معدتي وأصابني بالإمساك في الاتحاد السوفياتي إلا كثرة ما يُعرض من الأكل.

صدقهم، وتواضعهم، وحسن أخلاقهم:

ثم قضيت ساعة في ترتيب ملابسي وأشيائي وتنظيمها في الحقائب، وبعد أن فرغت من ذلك خرجت من الفندق إلى مكتب شركات الطيران فسألته عن تأشيرة الدخول فأخبرني أنها ضرورية، وكان لي صديق في هذا المكتب أتردد عليه وأكثر عليه من الأسئلة وأعيد فيها وأزيد، وهو دائماً بشوش لا يمل ولا يتضجر كما يفعل أمثاله عندنا من الموظفين في المصالح والشركات، وقد كان خير ناصح لي ومرشد إلى ما ينبغي عليّ عمله، فقد أرشدني إلى مقر المفوضية المصرية لأتصل بها، ثم أحمل منها كتاباً توجهه إلى السفارة الإيطالية بفيينا، وأرشدني إلى عنوانها أيضاً، ووصف الطريق والترام الذي علي أن أركبه، وكان يريني الخرائط التي عنده للبلاد التي يمكن أن أمر بها في طريقي عائداً إلى مصر، وقد لمح في يدي ظرف الرسالة التي جاءتني من مصر فرجاني بأدب واحترام أن أتنازل له عن طوابع البريد الملصقة فأعطيتها له، ففرح كثيراً، وشكرني أبلغ الشكر.

وفي هذا المكتب رجل آخر يعمل على باب المدخل عرفته أول ما قدمت إلى فيينا، وهو على جانب عظيم من الخلق الكريم، والرغبة في خدمة الناس، وهو الذي دلني على الفندق القريب من سُرّة البلد، وسرة البلد هنا هي الحي الرابع الذي تقع فيه دار الأوبرا المشهورة، ولم يكتف بذلك بل اتصل بالفندق تليفونيا وحجز لي حجرة فيه بعد ما أخبرني عن سعره، ثم أمر أحد سعاته، فحمل حقائبي وأوصلني إلى الفندق ماشياً على قدميه، ولو كان أحد غيره مكانه لأشار علي بأن تستقلّني سيارة أجرة، ولكن هذا الرجل الكريم أشفق عليّ من أجرة السيارة، وصرت أتردد عليه بعد ذلك فيعجب مني حين يراني أشكره، وأحمل له الجميل، وكان هو مستشاري في السفر إلى ميونخ، وقد رأيت أن أهديه شيئاً فأخذت له ملعقة خشبية مما حملته من موسكو ففرح بها كثيراً. وقلت له مداعبا: ليتك ترافقني إلى ميونخ فحرك رأسه قائلاً: يا ليت! ولكن أنى لي أجر القطار وأنا رجل فقير لا قِبَل لي بمثل هذه الرحلة؟

وهذا الخلق معتاد في هذه البلاد، فإنك لا تجد أحداً يخجل من ذكر قلة ذات يده، ولا تجد أحداً يفخر بما لا يملك أو يدعي أنه ابن مليونير أو من عائلة غنية أو أصيلة، كما يوجد عشرات من هؤلاء عندنا في الشرق.

وأسرعت إلى مكتب الملحق الثقافي وسألت الأستاذ علوي وكيله أن يعمل على إنجاز إجراءات التأشيرة بالدخول على عجل فاتصل بالمفوضية المصرية في شأني ثم اقترح على أحد الطلبة أن

يرافقني إليها، فركبت معه الترام حتى أوصلني إليها، ولكنه اعتذر عن متابعة المسألة إلى النهاية، فلم أشأ أن ألح عليه في البقاء معي لحاجتي إليه في توصيلي إلى السفارة الإيطالية.

نصيحة صديق:

والمفوضية المصرية تقع في حي من الأحياء القديمة في فيينا قريباً من البرلمان الفخم، ولا أراها تليق بالجمهورية العربية المتحدة ومركزها العظيم، وتقع المفوضية في الطابق الرابع من مبنى متواضع في حي متواضع.

واستقبلنا السكرتير الأستاذ شمس فلم يبد عليه أنه يعرف عني شيئاً، فطلبت حينئذ مقابلة السيد الوزير المفوض الأستاذ عبد السلام رأفت، وقلت للحاجب اسمي ومهمتي في الرحلة، فأذن لي الوزير، واهتم بأمري، وأوصى السكرتارية بإنجاز مسألتي في الحال، فبدأ الذين في المكتب يهتمون بي لما رأوا وزيرهم يفعل ذلك.

وبعد قليل عاد الوزير فخرج إلي حيث كنت في انتظار كتاب الوصية فقال لي: تعال ادخل إلى صديق لك يعرفك، فما راعني إلا صديقي الأستاذ عثمان عسل الذي تعرفت إليه من قبل في ندوة الأستاذ محمود شاكر، وذكرني بنفسه، وبمكان اللقاء فتذكرته وأكرمني، وتحدثنا طويلاً في شؤون شتى، ونصحني بألا أذهب إلى ميلانو في هذا الشهر. فإنها كثيرة الضباب. وقال: إنها مدينة صناعية ليس فيها ما يروق لك أو يثير اهتمامك، فإن كنت لابد زائراً مدينة إيطالية فلتكن فلورنسا، فهي مهد الفنون والآداب من قديم، وفيها من المتاحف

والآثار ما يستحق الرؤية والزيارة ولكن فلورنسا ليست على خط الطيران، وسألته عن إستانبول فحبذ زيارتي لها، وقال: إنها خير لك من ميلانو.

ثم شكوت إليه أن صاحب الفندق طالبني اليوم بأجر الأيام الثلاثة التي غبتها عن فيينا في ميونخ مع أنني سألته قبل السفر إذا كان في إمكاني أن أترك حقائبي في الفندق ليضعها حيث يشاء دون أن أدفع شيئاً فأجابني بالقبول. فكلف الأستاذ عسل أحد العاملين في المفوضية بالاتصال بالفندق، وقد كان فما إن رجعت إلى الفندق حتى قال لي صاحبه: لا بأس يا سيد قد سوينا المسألة.

وقد صار متعذراً بالطبع أن أحصل على التأشيرة اليوم لضيق الوقت فرجعت إلى الفندق بعد ما طلب مني الأستاذ عسل أن أزوره مرة أخرى.

وتلقيت صباح اليوم جواباً من الأستاذ الدكتور بوتز في ميونخ يعطيني عنوان وتليفون مُراسلَة جريدته هنا، واسمها مدام بيردا (Perda...) فاتصلت بها تلفونياً، ووعدت بزيارتي غداً في الساعة العاشرة والنصف.

حالة المسرح والموسيقى:

يوم الجمعة ٧ من نوفمبر ١٩٥٨م في الساعة العاشرة والنصف تماما من صباح اليوم خرجت إلى بهو الفندق فوجدت السيدة زوتماير داخلة باب الفندق. وهي سيدة في نحو الأربعين، وإن كانت تقول: إنها في الخامسة والثلاثين، ولكني

عرفت فيما بعد أن لها بنتاً في السابعة عشرة من عمرها، فيجب أن يكون سنها ثماني عشرة سنة حين ولدتها، وهذا نادر الوقوع في هذه البلاد.

استقبلتها في البهو، وطلبت لها قهوة فاحتستها ونحن نتحدث في شؤون مختلفة، وهي تسألني: ماذا تريد أن ترى في فيينا؟ وماذا يهمك على وجه الخصوص؟ فقلت لها: كل شيء، ولاسيما المسرح. فأعطتني فكرة غير حسنة عن المسرح في فيينا. وقالت: إن كثيرا من دوره قد تحولت إلى سينمات أو مخازن لانصراف الناس عن هذا الفن الراقي بعد الحرب، وسألتها: عن الكُتّاب المسرحيين. فأجابتني: بأن الموجودين منهم لا يتجاوزون درجة المتوسط، وليس فيهم من يستحق الالتفات. وشرحت لي كيف أن المؤلف المسرحي هنا لا يستطيع أن يعتمد على إنتاجه الأدبي، بل عليه أن يعمل شيئا آخر، وكذلك القصاصون أيضا، وأنهم جميعا لا يعتمدون على النمساويين فقط، بل يطمحون إلى أن يقرأهم الألمان والسويسريون بجامع اللغة الألمانية، وكذلك دور النشر في النمسا تعتمد غالبا على التعاون مع أمثالها في ألمانيا.

وسألتها عن الموسيقيين. فقالت: يوجد قليل منهم على شيء من النبوغ، ولكن لا يبلغ مبلغ العباقرة الأولين، ثم قالت: ولكن يوجد في الجيل الجديد شعراء موهوبون يصح أن أجتمع بهم إذا شئت، وإن كانوا أيضا لا يقدرون أن يعتمدوا على إنتاجهم الشعري.

ثم خرجنا من الفندق فإذا معها سيارة صغيرة قديمة اعتذرت لي عن قدمها وقبحها، وزعمت أن لها عشرين سنة تعمل، فاستقلتنا السيارة ووجهتنا أولا دار السفارة الإيطالية لاستخراج تأشيرة بدخول إيطاليا، وقادتني في الحال إلى قنصلية إيطاليا، فتبين لنا أن السفارة هي المختصة، وهي في مكان آخر. فعادت تمرق بسيارتها حتى وصلنا إلى دار السفارة رقم ٧٢ شارع زيوروف Rewuwef.

وسلمتهم جواز سفري، وكتاب التوصية من المفوضية المصرية، فأمروا أن أعود إليهم في الساعة السادسة بعد الظهر، وكانت السيدة تنتظرني في سيارتها حتى عدت إليها، فغادرنا إلى مكان يعقد فيه مؤتمر للصحفيين للتشاور في شؤون الكتب التي تخرجها مطابع النمسا، فدعتني إلى حضور هذا المؤتمر وحضرته معها. ولم أفهم شيئا مما يقال، إذ كان بالألمانية، ولكنها شرحت أغراض المؤتمر بعد ذلك، فإذا هو مؤتمر صحفي أقامته شركات الطبع والنشر في النمسا، وبعد انتهاء المؤتمر خرجنا إلى الطابق السفلي، فوجدنا معرضا كبيرا للكتب المطبوعة على اختلاف ألوانها، ولكل شركة نشر قسم خاص بها، وقد تبين من قراءة أسماء هذه الشركات أنها تتعاون أو تشترك مع شركة طبع ألمانية أو أكثر وكانت تقدم للحاضرين - وهم حوالي خمسين شخصا بينهم ثماني سيدات - ألواناً من المرطبات والسجائر.

فيينا أجمل مدن أوربا :

ومن هذا المؤتمر واصلنا سيرنا حتى قادتنا السيارة إلى ضاحية من ضواحي فيينا، وقد ازددت مما رأيت يقينا بأن فيينا أجمل مدينة في أوروبا في عمومها، إذ لم أشاهد حيا واحدا يخلو من ذلك الجمال والنظافة حتى في الضواحي، بينما نجد الأحياء القذرة حتى في باريس. ومن العجيب أن السيدة روثماير لا تشاركني في هذا الرأي، فهي تزعم أن روما وبراغ أجمل من فيينا ثم تبين لي أنها تقصد فيما تقصد لا ما تتصف به المدينة من الفتنة والجمال الظاهرين، بل تقصد القيم الجمالية، فالأخرى مما يثير طلعة الرجل المثقف من آثار فنية ومتاحف تستحق الدراسة والبحث.

ودخلت بيتها فإذا بخادمة شابة تقوم بتنظيف البيت، وقالت لي السيدة: لا تؤاخذنا فإن البيت لم ينظف بعد ، ووجدت الحجرة التي دخلتها مليئة بالكتب والأضابير فحسبتها أول الأمر تعيش بمفردها في البيت، ولكني تبينت بعد ذلك أن لها ولدين: ابنا في العاشرة وبنتا في السابعة عشرة. وسألتها عن زوجها، فقالت: إنه يعمل أيضا في الصحافة، وكان ذلك بمناسبة حديثها عن ولديها ولرغبتها أن يتخذا مهنة أخرى نافعة غير الكتابة والصحافة. قلت لها: مادام أبوهما وأمهما صحفيين فالغالب أنهما يميلان إلى المهنة نفسها، فقالت: علينا أن نحسن تعليمهما، ثم ليختارا بعد ذلك ما يحلو لهما.

وخرجنا من البيت بعد أن نظرت فيما جاءها من البريد، وكانت الساعة قد بلغت الثانية، فقالت: أظن أننا ينبغي لنا أن نأكل شيئا فوصلنا إلى مطعم أنيق صغير، تقول: إنها تحبه وتفضله. وقد حاولت

أن أدفع الحساب، فقالت: كلا، من الخير أن يدفع كل منا حسابه . قالت ذلك بكل بساطة دون أدنى تردد. فقبلت. وكان أن دفعت أنا حوالي ٣٢ شلنا ثمن طبق الشوربة وطبق من السمك المقلي وفنجان قهوة.

النقـــد الذاتـــي:

وقد جرى حديث طويل على المائدة، فهمت منه أنهـا علــى جانب من الذكاء وأرستقراطية الفكر، وأنها لا تميل إلــى المظــاهر، وكانت تنقد حب الفخفخة الذي استحوذ على بني جنسها، فــإن كثيــرا منهم يقتني سيارة بالتقسيط وهو لا يحتاج إليها في عمله، وإنما يقــصد الوجاهة والمظهر، وجعلت تضرب لي أمثلة كثيــرة علــى ذلــك... وحملت على الصحافة الرخيصة التي تميل إلى أخبار الجــرائم ومــا إليها، ثم حملت على بني جنسها في انصرافهم عــن الفنــون الراقيــة كالمسرح والأوبرا، وميلهم إلى السينما ودور اللهو الرخيص، وقالت: حتى الذين يذهبون إلى المسرح والأوبرا أكثــرهم ممــن لا يحبــون المظاهر، وسألتها عن حقيقة عملها في الصحافة؟ فقالت: إنهــا ناقــدة مسرحية، وناقدة فنية أيضا.

وفي معرض حملتها على بني جنسها في انحصار تفكيرهم في الطعام والشراب والملابس الوجيهة والسيارات والفريجيديرات... إلخ، استدركت فقالت: إنهم على كل حال خير من سكان ألمانيا وأهون فــي تكالبهم على هذه الأمور ونسيانهم كل القيم في سبيلها.

وخرجنا من المطعم، فركبنا السيارة فقالت لي: إن عليها أن تعمل الآن، فأين تريد أن أنزلك؟ قلت لها: أنزليني في أحد المعارض أو المتاحف حتى أقضي فيها بعض الوقت ريثما يحل موعد ذهابي إلى السفارة الإيطالية لأخذ التأشيرة. فأنزلتني أمام قصور الأباطرة حيث توجد متاحف مختلفة، ولكنني لسوء الحظ وجدت معظمها قد أوصد، ولا يفتح إلا من الساعة الثامنة إلى العاشرة في يوم الجمعة بالذات، وتختلف المواعيد في كل يوم عن غيره من الأيام، فما كان مني إلا أن دخلت المفتوح منها وهو القصر الإمبراطوري الذي زرته سابقا مع شركة السياحة فشاهدت حجرة ماريا تريزا وأبنائها والحجرات التي اتخذها الإمبراطور جوزيف الثاني.

احتفاء مشكور للطلاب:

وخرجت من المتحف ألتمس سبيلي إلى حيث أقيم، فقد بقي قسط كبير من الوقت. وبينما كنت أسأل المارة عن طريقي كعادتي دائما إذا أنا بشاب يبدو أنه غريب وليس نمساويا، فسألته بالإنجليزية، فأجابني، ثم سألني: من أي بلد أنت؟ قلت: من مصر. فقال بالعربية: أهلا وسهلا. إذا هو طالب مصري يدرس الطب في برلين واسمه على محمود المشنب. فانتدب لسؤال عسكري المرور عن وجهتي، ثم عرفني إلى زميل له كان يتكلم في التليفون العام فإذا هو موسيقي من العراق يدعى علاء الدين جعفر، وقد ألف (قطعة الثورة) وأذاعتها محطة مصر ومحطة موسكو ودعواني إلى فنجان قهوة في أحد المقاهي القريبة، فقلت: لا بأس حتى يحين موعد ذهابي إلى السفارة الإيطالية.

ودخلنا المقهى فإذا عربيان آخران أحدهما من العراق اسـمه عبدالباقي الشاوبي يدّرس اللغة العربية بمعهد اللغات الـشرقية الـذي سبق أن زرته، والآخر واسمه أحمد فاضل علي يريد أن يدرس هندسة محركات الديزل في ميونخ، ويتعلم الآن الألمانية في فيينا. وكانـت جلسة لطيفة تذاكرنا فيها كثيرا من الشؤون السياسية والأدبية، وأخبرني الأستاذ عبد الباقي أن الدكتور جوتشلك حدثه عن زيـارتي للمعهـد، وكان هو غائبا ذلك اليوم، والواقع أن الأستاذ علـي محمـود ماكـان ليدعوني إلى هذه الجلسة لولا أنه سمع اسمي فتهلل بشرا، وقال أنـت الكاتب المعرف باكثير؟ قلت: نعم. فما كاد يصدقني، وقال حينئذ: إذن يجب أن نحتفل بك قليلا، وهذا شرف سنحظى به، فمـا وسـعني إلا التلبية.

وحان الموعد فاعتذر الأستاذ على محمود لعدم اسـتطاعته أن يصحبني إلى السفارة الإيطالية، ولكنه رجا من الموسيقار العراقـي أن يقوم بهذا الواجب، فلبى الرغبة بارتياح، وودعت الآخرين.

وتفضل الأستاذ علاء الدين فأركبني الترام حتى أوصلنى إلى مقصدي وانتظرنا في بهو السفارة نتحدث حتى جاء إيطـالي فكلمنـا بعض كلمات عربية، ورجانا أن ننتظر خمس دقائق، وفي خلال هـذه الفترة وفيما بعد ذلك حين مشينا راجعين حدثني علاء الدين عن حياته الدراسية كيف أنه كان يريد أن يدرس الإخراج السينمائي، وكيف أنـه جاء لهذا الغرض من مصر، فلم يجد أي عون، فـزعم لأسـرته أنـه سيدرس الزراعة في كاليفورنيا فوافقت أسرته علـى ذلـك، وسـافر.

ولكنه اتجه إلى الإخراج السينمائي. وبلغ أسرته ما فعل، فقطعت عنه النفقة فاضطر إلى دراسة الموسيقى لأنها لا تكلف شيئا بخلاف الإخراج السينمائي، وكان ضيق ذات يده عاملا من عوامل نجاحه في دراسته الجديدة إذ اضطر إلى البقاء في المعهد يتمرن على آلات العزف فيه حتى سبق أقرانه في وقت وجيز.

وهو يحلم بالعودة إلى العراق، ولاسيما بعد الثورة ليفتح مدرسة لتعليم الموسيقى للشبان حتى يمكن أن يكوّن منهم فرقة سيمفونية بعد خمس سنوات. فقلت له : لعلك تجد ما تبغي في مصر، وإذا نفذت هذا الحلم في مصر فكأنك نفذته في العراق. وقلت له : إن الموسيقى العربية متخلفة جدا عن الفنون الأخرى في البلاد العربية، وهي في حاجة إلى جهود أمثالك لإصلاحها والنهوض بها ، فرحب بالفكرة، وقال: إنني أعمل الآن مدرساً للموسيقى في المعهد الموسيقي بفيينا بعد أن أكملت دراستي الموسيقية في أمريكا، وبلغني أن له سيمفونيات غير الثورة. وقال لي أيضا في معرض الحديث عن الموسيقى العربية: إنه خجل كثيرا حين جاءت فرقة سيمفونية من إسرائيل لتطوف بأوروبا. فسأله بعض أصدقائه النمساويين هل عندكم فرقة مثلها؟ لذلك فهو يرحب بفكرة العمل في مصر حتى يمكن للعرب أن يرسلوا فرقة عربية إلى الأقطار الأوروبية.

ووصلنا إلى دار الأوبرا فتواعدت معه على اللقاء في الساعة الثالثة في المقهى الذي تحت الأرض في ميدان الأوبرا، وعدت إلى البيت. غسلت مناديلي وعلقتها على الدفاية، ثم طويتها فتذكرت زوجتي

أم إجلال وهي تطوي ثيابي بعد الغسيل وتذكرت ابنتي إجلال[1] حين رأيت العلامة A.B على المناديل فهي التي صنعتها قبيل سفري من مصر، وجلستُ بعد ذلك أكتب هذا الحديث.



مع زوجته وربيبته إجلال وربيبه فوزي باعامر
وزوج ربيبته عمر عثمان العمودي

(١) أم إجلال: زوجته المصرية السيدة هاجر و إجلال محمد لطفي ابنتها من زوجها الأول، وقد عاشت معه كابنته منذ تزوج بأمها.

آثارنا المصرية في فيينا:

في صباح يوم السبت ٨ من نوفمبر ذهبت لزيارة أحد المتاحف في فيينا، وهو الذي يحوي الطابق الأسفل فيه آثار الأمم المختلفة، والطابق الأعلى اللوحات الفنية من عمل كبار الرسامين في أوربا كلها، وضمن الطابق الأسفل جناح كبير خاص بالآثار المصرية، أحسست وأنا أطوف بمحتوياته بالاعتزاز والفخر من جهة، وبالأسف الشديد على خروج هذه الآثار القيمة من مصر إلى بلاد أخرى.

ومما يلفت النظر كثرة التوابيت المحنطة في هذه المجموعة، بل توجد مقبرة من الصخر نقلت بحالها من مصر، بنيت في ركن من أركان الجناح. وقضيت حوالي ثلاث ساعات ونصف أتأمل اللوحات الفنية من عمل رامبراند وروبنز (١٥٧١ـ ١٦٤٠م) ولهما قاعتان كاملتان من الأعمال. وأذكر لوحة عيد فينوس الرائعة، ولفانديك (١٥٩٩ـ ١٦٤١م) كثير من اللوحات، ومنها (شمشون ودليلة) ولـ فشنيدر (١٥٧٩ ـ ١٦٥٧) آثار منها (سوق السمك). وقد عرضت بجانبها لوحتان أخريان في نفس الموضوع، إحداهما لفانديك والأخرى لفون شاندرارت. ومن الذين لهم قاعة خاصة Brueghel ومن أعماله (قصر بابل) ومن أسماء الرسامين أيضا Bockhorsl - Dr. grayer - Joussens - volckinloreh - Bassano - Tintoretto - Veronese ، وغير ذلك كثير، وما لفت نظري لوحة لـ cagnacci المتوفى سنة ١٦٨١م عن موت كليوباترا.

وخرجت من المتحف ورأسي يدور بالأحلام والثائرات بعد أن شهدت دنيا من المعاني والوجوه والصور. فسبحان الله! ما أبدع الفن! وما أقدره على تخليد هذا العالم الفاني!

المـــوت حبـــاً:

وبعد أن تغديت في المطعم المعهود ذهبت أنتظر الأستاذ علاء الدين جعفر في المقهى الذي تحت الأرض، وحضر الأستاذ متأخرا على موعده قليلاً، فاعتذر كثيرا. فقلت له: لا بأس، إني منتظرك على كل حال. وجلسنا نتحدث، وقرأنا مقالة في جريدة البلاد العراقية كتبها الأستاذ محيي الدين عبد الرزاق[1] عن رحلته لحضور المؤتمر، وانضم إلينا شخصان من العراق أحدهما كهل والآخر طالب، وجلسا قريبا منا ثم توجهنا إلى المقهى الخاص بهم، وهو يقع قريبا من المتاحف، وجلسنا طويلا ننتظر الأستاذ عبد الباقي الشاوبي، ولكنه كان مشغولا فلم يحضر إلا في السادسة، وفي خلال ذلك انضم إلى مائدتنا صحفي نمساوي يقول عنه الأستاذ علاء: إنه مخلص للعرب! ثم حضر

---

(١) عبدالرزاق محيي الدين: (١٩١٠ـ ١٩٨٣م)، شاعر وباحث، رأس المجمع العلمي العراقي، وحصل على عضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة. درس في النجف بالعراق وأكمل دراسته بدار العلوم بمصر، وحصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة القاهرة. من مؤلفاته (الوجيز في تفسير القرآن العزيز) و(البصائر والذخائر). وغيرهما.

الأستاذ كاظم قطا وهو طالب طب في السنة النهائية، وقد قضى في النمسا أربع سنوات ، ورأيه فيها سيئ جدا، فهو يقول: لا ينبغي أن تخدعك المظاهر من الدماثة واللطف والتهذيب، فإن النمساويين فقدوا كل المثل العليا، وحمل على بعض الصحفيين العرب الذين يمرون بفيينا فيشيدون بها وبرخص المعيشة فيها... إلخ، وهو يعتبر ذلك تضليلا للرأي العام العربي، فقلت له: هون عليك، إن الصحفيين يكتبون ما تريد صحفهم من هذه الطرائف، وليس لك أن تحاسبهم هذا الحساب العسير.

وبعد أن حضر الأستاذ عبد الباقي جلسنا قليلا، وجرت مناسبة الحديث عن الشعر العامي في العراق، فروى لنا طرائف منه تدل على رقة الشعور وصدق العاطفة، مما لا نكاد نجده في الشعر المعرّب، وعلقت على ذلك قائلا: إن هذه الحالة موجودة أيضا في سائر البلاد العربية، وضربت مثلا بالموجود من ذلك في حضرموت مما يسمونه هناك الشعر الحميني، وحدثنا الأستاذ عبد الباقي عن طالب في النجف كان يعشق ابنة أستاذه من أئمة العلم والأدب هناك حتى مات وَجْدًا، وعلم أستاذه بالحال فأرسل ابنته لتزوره وهو على فراش الموت فتمثل بقول الشاعر:

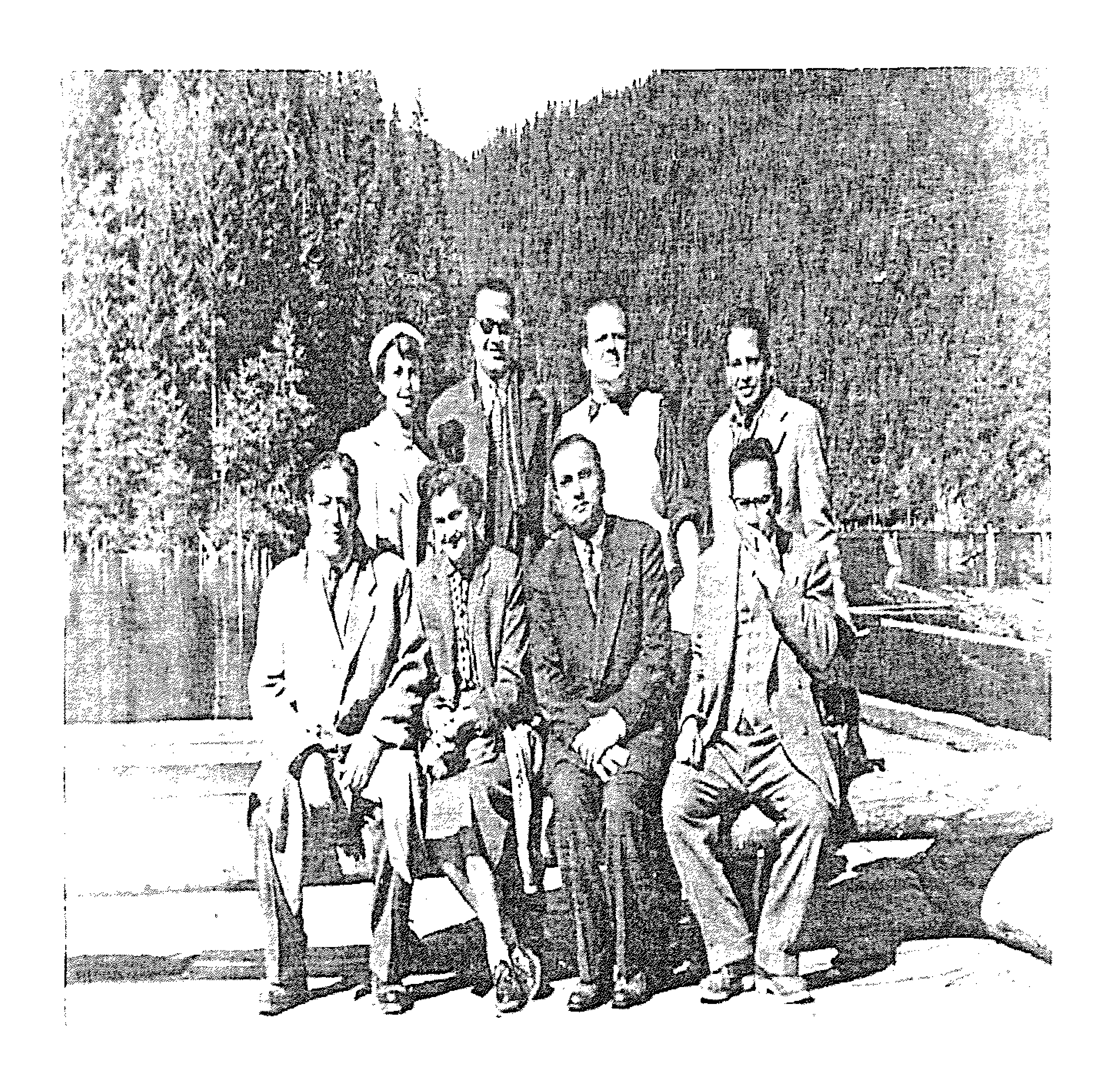
أتت وحياض الموت بيني وبينها

وجاءت بوصل حين لا ينفع الوصل

وروى لنا شيئا من شعره واسم هذا الشاعر عباس نجف الكرم العراقي. ثم نهضنا من المقهى وذهبنا جميعا إلى قبو من

أقبية فيينا المشهورة فوجدناه غاصا بالناس، ولم نستطع أن نجد لنا محلا إلا بعد لأي، ثم انضممنا إلى مائدة تضم أربعة من الرجال وثلاث من السيدات من النمساويين، وفي البداية شعرنا بشيء من الحرج، ثم استطاع الأستاذ عبد الباقي بلباقته وطلاقة لسانه بالألمانية أن يدمجهم معنا. فأصبحنا كأننا أسرة واحدة وصاروا يضحكون ويتبسطون معنا، وجرى بيننا الحديث في شؤون شتى اجتماعية وسياسية، وليس فيهم من لا يعرف غير الألمانية فكان الأستاذ عبد الباقي يترجم لي كلامهم، وقد استطعنا في هذه الجلسة أن نقوم بواجبنا في تعريف هؤلاء ببلادنا وبحقيقة النهضة فيها، وفنّدنا كثيرا من الآراء الخاطئة التي بثها الاستعمار والصهيونية ضدنا.

ثم حضر الأستاذ كاظم قطا فاقترح علينا أن نذهب إلى مقهى في إحدى ضواحي المدينة، وحضر زميل له في كلية الطب وهو يوناني يدعىRaul Frangos يعرف الفرنسية، فكنت أتحدث معه بها، ووجدنا المكان غاصا بالناس، وهذه ليلة الأحد وتناثر أصحابنا ماعدا الأستاذ عبد الباقي فقد بقي جالسا معي طول الوقت نرقب الناس في سكون. واستمرت جلستنا إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وعند دفع الحساب أبى هؤلاء العراقيون الكرماء أن أدفع شيئا وقالوا: أنت ضيفنا وتفضلوا بإيصالي إلى الفندق حيث نمت على الفور. ولم أستيقظ إلا لصلاة الفجر ثم عدت فنمت إلى التاسعة.



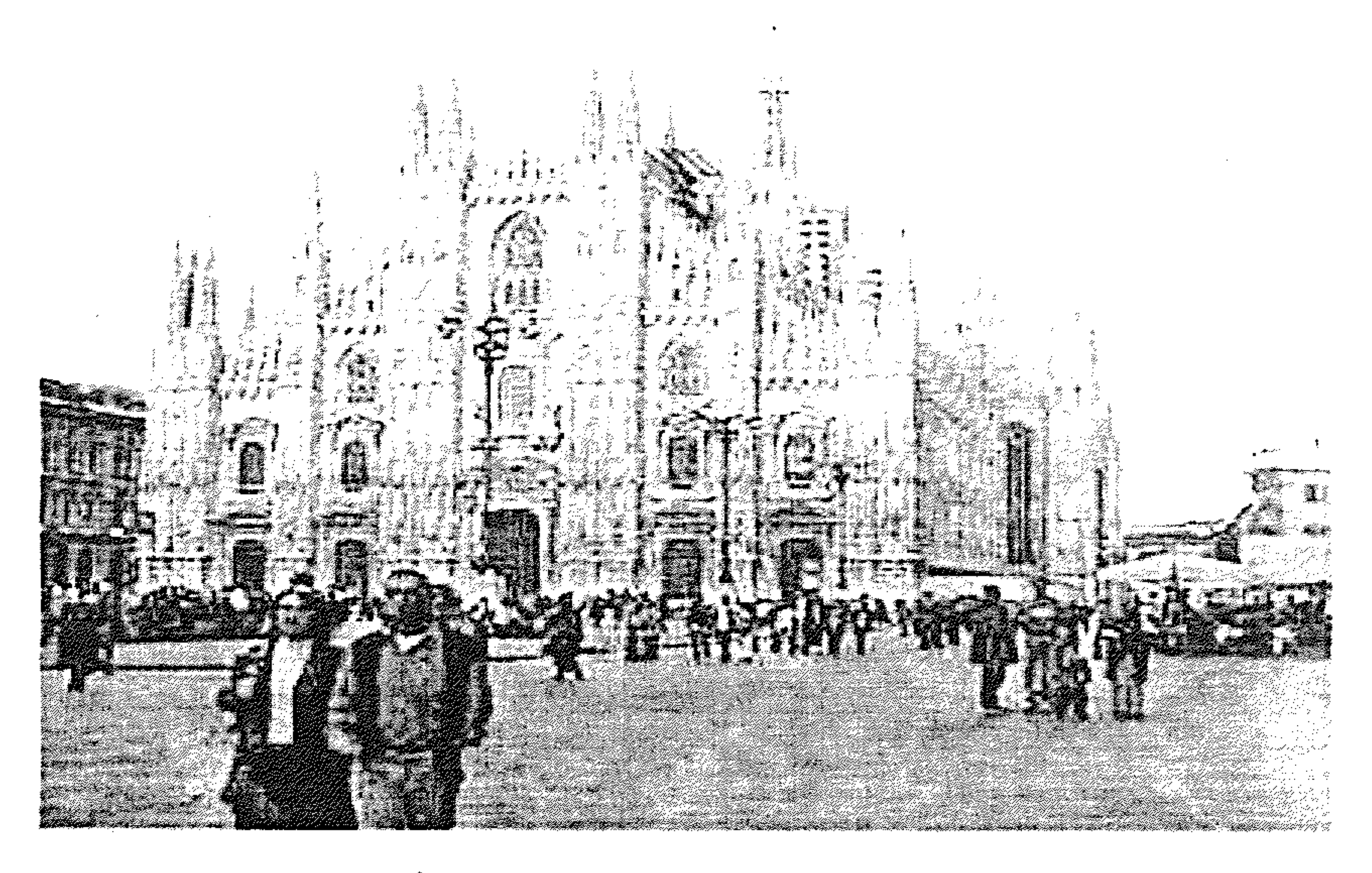
باكثير وشوقي ضيف ومندور والعريان في موسكو سنة ١٩٥٦م

الطريق إلى ميلانو

يوم الأحد ٩ من نوفمبر ١٩٥٨م بقيت في الفندق طول الوقت ولم أخرج إلا في الساعة الثالثة بعد الظهر حيث تفرجت على معرض للأدوات الكهربائية والمنزلية في الجملة، فمثلا وجدت ثلاجة مثل الثلاجة التي عندي وثمنها ٦٠١٠٠ شلن أي ما يساوي ٣٣٢ جنيها مصريا، ثم ذهبت لتناول وجبة الغداء والعشاء معا، وكلفني ذلك نحو ٢٢ شلنا.

ولقيت في هذا المطعم شابين يتحدثان بالفرنسية فسلمت عليهما، فإذا هما إيطاليان ذاهبان إلى أفريقيا الشرقية، فدعواني للجلوس معهما وتحدثنا طويلا: وسألتهما عن ميلانو، فقالا: إنها أجمل من روما، وشجعاني على الذهاب إليها وزعما لي أنني أستطيع أن أجد الفندق الذي يكلفني حوالي جنيه مصري واحد في الليلة والجنيه المصري يساوي الآن في إيطاليا حوالي ١٢٠٠ ليرة إيطالية، وهذا المبلغ عندهما أكثر من ٥٤ شلنا نمساويا، وهو ما يساوي الجنيه المصري في فيينا. وقد سررت من حديثي معهما إذ زال عني القلق بخصوص غلاء المعيشة في ميلانو كما زعم لي ذلك الأستاذ عثمان عسل الذي قال: إن المعيشة فيها أغلى من روما لأنها مدينة صناعية، وقد أفاداني أيضاً: أن السفر بالقطار من ميلانو إلى فرنسا لا يكلفني أكثر من ١٥٠ شلنا نمساويا، أما من ميلانو إلى رافنا فنحو جنيه

مصري واحد، وهما يقيمان ليلة واحدة في فيينا، ويسافران غـدا إلـى القاهرة في طريقهما إلى شرق أفريقيـا، وقـد زارا أيـضا معـرض الأدوات الكهربائية فقالا: إن الذي عندنا أحسن وأصلح، ثم قضيت بقية الوقت في التفرج على دور التجارة وفتريناتهـا المـضيئة والـشارع المشهور في فيينا، والتمست القهوة التي يجلس فيها العراقيون فأعياني الاهتداء إليها.



زال عني القلق بخصوص غلاء المعيشة في ميلانو

وعند رجوعي إلى الفندق قدم لي صاحبه حساب الأسبوع من الاثنين ٣ من نوفمبر إلى الأحد ٩ من نوفمبر١٩٥٨ فكان مبلـغ ٧٧٣ شلنا، فجلست أحسب ما بقي من النقود فوجدت أنني لا أستطيع البقـاء إلى يوم الخميس ٣١ من نوفبمر إلا إذا اقتصدت وبالغت في الاقتصاد

بحيث لا أصرف في الطعام أكثر من عشرين شلنا، فشق ذلك على نفسي واغتممت ولم أدر ما أصنع، ثم قلت لنفسي: ربنا موجود، وسيجعل اللّه بعد عسر يسرا بحوله وقوته. فعاودني الاطمئنان مرة أخرى، وللّه الحمد.

كتاب عن بخارى:

يوم الاثنين ١٠ من نوفمبر١٩٥٨م ذهبت في الصباح أبحث عن المقهى الصغير الذي اجتمعنا فيه بالإخوان العراقيين فلم أهتد إليه، فذهبت إلى المفوضية المصرية لألقى الأستاذ عثمان عسل فوجدت المفوضية غاصة بالطلبة المصريين، وهم يقومون باعتصام فيها حتى تجاب مطالبهم بالنسبة إلى النقد، فهم يشكون من انخفاض سعر الجنيه المصري ويريدون التسوية بينهم وبين الطلبة في ألمانيا، وكان المطر غزيرا في المساء فلزمت الفندق أقرأ كتاب (صفحات من قصتي الخاصة) Pages from my own story بقلم صدر الدين عيني الأديب التاجيكي الذي توفي منذ وقت قريب، وهو يصف في هذا الكتاب حياة الناس في بخارى، وبالأخص حياة طلبة العلم بها وصفا دقيقا، ثم يستطرد إلى أن يصل إلى قيام الثورة في روسيا ومالها من أثر في بخارى في ذلك العهد، ووصف أمير بخارى بالظلم والطغيان، وقد ضُرب هو بأمر الأمير خمسة وسبعين سوطا حتى كاد يتلف، وما أنجاه غير الثورة إذ أخرجته من سجنه أسوة بجميع المسجونين، وهو يصف ثورة العلماء ضد كل إصلاح ويقولون: إنه مخالف للشريعة، وهم بالطبع يريدون الأمير ويساندونه دائما وهو كتيب صغير كدت أتمم قراءته تلك الليلة.

حديث عن ثروة العراق:

يوم الثلاثاء ١١ من نوفمبر١٩٥٨م حاولت أن أذهب إلى متحف التاريخ الطبيعي فوجدته مغلقا يوم الثلاثاء من كل أسبوع، فواصلت سيري إلى شارع الجامعة حيث يقوم المقهى الذي يغشاه العراقيون أيضاً، واسمه مقهى جلوري ٢ شارع الجامعة، ومن حسن حظي لقيت الأستاذ علاء الدين جعفر والدكتور كاظم، أما كاظم فانصرف لعمله، وأما علاء الدين فقد دعاني لشرب شاي في بيته، فذهبت إلى بيته، وهو قريب من ذلك الحي، وانضم إلينا في المقهى الأستاذ نجم الدين جلميران من الموصل، وقد قدِم فيينا ليعالج ابنه الصغير في المستشفى، وهو يشكو من وجع في العظام.

في بيت الأستاذ علاء شربنا الشاي الجميل الذي لم نذق مثله من زمن بعيد، ولعب هو ونجم الدين الطاولة، وتأملنا في خريطة للعراق مكبرة فأدركنا إمكاناته الاقتصادية الواسعة لو قامت مشروعات الري به، ولاسيما في قطعة الجزيرة، فهي أرض صالحة للزراعة تماما وتسقى الآن بالمطر فقط، وحدثنا نجم الدين عن معادن الكبريت أيضا في شرق العراق، وأنها ستدر ثروة كبيرة، ثم استمعنا إلى المذياع فسمعنا من العراق ومن مصر، فاشتد بي الحنين إلى الوطن لما سمعت إذاعته.

ثم خرجنا إلى مقهى جلورس حيث شربنا فنجان قهوة، وبعد ذلك انتقل بنا الأستاذ علاء الدين إلى مقهى آخر، ثم دعاني إلى داخل

المقهى. وإذا الأستاذ يتكرم فيعزف لي ألحانا مختلفة مـن الموسـيقى الغربية من بتهوفن وتشايكوفسكي ورمسكي كورسـاكوف، وأسـمعني أيضا قطعة (الثورة) فشعرت كأني طرت في السموات. وقمنـا مـن المقهى حوالي الساعة الثانية عشرة فودعته ورجعت وحدي إلى الفندق وهو بعيد، وقد سكنت حركة المارة فلا تلقى أحدا إلا في النادر والبرد شديد، وخشيت في أول الأمر عدم الاهتـداء إلـى الطريـق، ولكـن الله سلم.

الطريـق إلى الجـوع !

يوم الأربعاء ١٢ من نوفمبر ١٩٥٨م بكرت في الصباح أسأل عن البريد إذ كنت متوقعا أن تصلني الرسائل من مصر قياسـا علـى المرة السابقة إذ كتبت إلى مصر يوم الخميس وجـاءني الـرد يـوم الأربعاء، ولكني عدت أجر أذيال الخيبة ، واغتممت، ولكني تجلـدت وسلمت أمري إلى الله، وقلت لنفسي: غدا إن شاء الله يأتيني الرد.

ولأروح عن نفسي ذهبـت إلـى مكتـب البعثـات فـزرت الأستاذ محمد عبد المنعم حافظ فاسـتقلبني بمثـل مـا اسـتقبلني بـه من قبل قائلا: أين كنت يا أخي؟ ظننـت أنـك سـافرت؟ قلـت لـه: فعلا كنـت سأسـافر يـوم الخمـيس الماضـي لـولا أن التأشـيرة للدخول إلى إيطاليا لم أتمكن من استخراجها ذلـك اليـوم، ولـم أشـأ أن أخبره بحقيقة الحال، وهي أني في انتظـار نقـود مـن مـصر.

وتحدثنا في شؤون شتى منها حاجتنا إلى الدعاية في هذه البلاد، ولكن الأستاذ حافظ لا يرى فائدة كبيرة من ذلك لأن هذه البلاد تمكّن فيها بغضُنا من قديم ، وتجدد حديثا بالدعاية الاستعمارية والصهيونية! وقال: إن الكنيسة ذاتها تفتري هذا البغض وهو يرى أن ميداننا ومجالنا الحيوي في آسيا وأفريقيا، أما أوروبا فإنها ميؤوس منها، قلت له: إني أعرف أن المهمة في أوروبا صعبة، ولكن ذلك لا ينبغي أن يضعف من عضدنا، فإن الدعاية إذا نظمت فإنها ستنفع ولو نفعا يسيرا إلا أن ذلك ضروري على كل حال، وقد وافقني على رأيي هذا وكيل المكتب الأستاذ محمد علوي عبد الهادي.

وشربنا القهوة التقليدية ثم استأذنت للانصراف حوالي الساعة الواحدة فاستوقفني الأستاذ علوي وقال: إنني لم أقم بالواجب نحوك بعد، فهلا تلبي دعوتي إلى عشاء الليلة؟ قلت له: لا مانع عندي. ولو كشف ما في خاطري لعلم أنني فرحت كثيرا بهذه الدعوة فإنها على الأقل ستكفيني عوز الإنفاق على نفسي يوما بأكمله. أوجبت على نفسي – نظرا للضائقة المالية – أن أكتفي بوجبة واحدة في اليوم علاوة على الفطور الذي أتناوله صباحا في الفندق، وأخذ هو عنوان الفندق قائلا: إني سأحضر إليك الساعة السادسة في الفندق، وخرجت فرحا مسرورا ورجعت إلى الفندق فتناولت ما بقي من الفطور فقد خبأت جزءا يسيرا منه وهو عبارة عن رغيف واحد صغير مدهون بالزبدة من داخله، ثم أكلت تفاحة واحدة من التفاح الذي اشتريته منذ أيام، واكتفيت بهذا



باكثير والعريان ود.مندور في رحلة سنة ١٩٥٦م

القدر حتى يحين موعد العشاء الذي دعيت إليه، وضقت ذرعا بالبقـــاء في الفندق، فقلت: أخرج إلى الشارع الكبير أتفرج على البضائع فـــي الفترينات. وقد قمت بمثل هذه الجولة مرارا كثيرة حتى كدت أحفظ ما في قلب الحوانيت من بضائع إلا أنها تسلية مجانية على كل حال.

خوفي من الإفلاس:

وعدت إلى الفندق حوالي الساعة الخامسة فأخرجت المصحف وجلست أتلو من آيات الله البينات ماشاء الله أن أتلو، ثم وضعت المصحف أمامي في الطاولة لأني قررت أن أهديه إلى الأستاذ علوي تذكاراً يبقى لي عنده. وعدت أجتر قلقي وألمي من طول الانتظار في فيينا فلا أنا بمستطيع أن أقيم ولا بقادر أن أرحل، وندمت على أني لم أجعل رسائلي إلى عنوان مكتب البعثات مثلا؛ إذن لخف حملي ولما باليت أن أرحل قبل مجيئها لعلمي أنها ستقع في أيد أمينة. أما وهي بعنوان الفندق، فكيف أترك الرسائل إذا أنا سافرت قبل وصولها؟ هذه هي المشكلة، وأنا أديرها في رأسي مرارا وتكرارا، وأقول: ماذا يكون حالي إذا نفد المبلغ الضئيل الذي بقي في جيبي؟ إنه على كل حال لا يكفي إلا إلى يوم الخميس فقط، فماذا يكون الحال إذا اضطررت إلى البقاء بعد الخميس؟

ومن حسن الحظ أن الفندق يحاسب على أيام أسبوع كامل، فالنقود التي عندي أستطيع أن أنفق منها على طعامي في خلال الأسبوع، ولولا ذلك لكانت الطامة من اليوم، ولكن الطامة الكبرى مع ذلك إذا انقضى الأسبوع دون أن أتلقى رسالة من مصر، أي إذا انقضى يوم الأحد القادم ١٦ من نوفبمر١٩٥٨م، لا قدر الله!

وفي الساعة السادسة والربع أبلغني صاحب الفندق بأن صديقي قد حضر، فخرجت مسرعا فوجدته جالسا في البهو أسفل، فقدمت إليه المصحف فتقبله هدية كريمة، وقلت له: إنه آخر ما بقي عندي من

الهدايا التي حملتها إلى الاتحاد السوفياتي. ولم نطل البقاء في الفندق، بل خرجنا في الحال. فقال لي: إنه لا يزال على وقت العشاء متسع من الوقت، فهيا بنا نذهب إلى قهوة في الدور الرابع عشر أو السابع عشر من عمارة جديدة بنتها البلدية، فهناك نستطيع أن نشرف على المدينة كلها. فاستأجر عربة أجرة وإن كنت قلت له: إني أفضل المشي على الركوب حتى لا أرزأه ماله جريا على منطق الضائقة التي عندي، ولكنه أصر على عربة الأجرة اختصارا للوقت، ووجدنا واحدة بها عداد، فركبناها حتى أوصلتنا إلى العمارة المشار إليها. فصعدنا في مصعد كبير سريع الوثب، وقدرت سرعته بسرعة المصعد الذي في بيتنا في القاهرة، فإذا الفترة التي يقطعها من أسفل إلى الدور السابع عشر أقصر من الفترة التي يقطعها مصعدنا من أسفل إلى الدور السابع[1]. وأشفقت من الرجة التي يحدثها المصعد حين يقف، وتذكرت مصعد شركة التأمين بالقاهرة، فإذا هذا المصعد مجهز بآلة تجعل سرعته متدرجة في الجزء الأخير من المسافة فلم نشعر بأي رجة أو دوار حين وقف.

وجلسنا في ركن نشرف منه على المدينة كلها. وبهذه المناسبة ينبغي أن أذكر أن مثل هذه العمارات العالية جدا لا وجود لها في فيينا، فمعظم العمارات بها لا تتجاوز أربعة طوابق أو خمسة، وتوجد عمارة ثانية في مثل ارتفاع هذه العمارة فقط، ولما أخبرني الأستاذ علوي أن

---

(١) كان باكثير يسكن بالعمارة رقم ١١١ شارع الملك عبدالعزيز آل سعود بمنيل الروضة، شقة ٣٢ بالدور السابع المطل على النيل.

البلدية هي التي بنتها استوضحت معنى ذلك فقال: إنه لا يوجد الآن من يبني عمارة من الأهالي لأنهم يؤثرون استثمار أموالهم في البنوك أو في السندات فهي أربح لهم من إيجار العمارات، وتبين لي أن الحال في فيينا يشبه في كثير من الوجوه الحال في إندونيسيا، فالمساكن ليست غالية الإيجار، ولكنها قليلة الوجود، ويقتضي الحصول عليها دفع خلوّ رِجْلٍ كبير.

تنبؤ بفشل السد العالي!

وجلسنا نحتسي القهوة ونتحدث، فإذا أنا أمام عقلية ممتازة واسعة الأفق، فقد سمعت منه مثلا تحليلا لمشكلة الري لم أسمعه من أحد قبله، وأخبرني أنه جعل هذه المشكلة موضوع أطروحة لنيْل درجة الماجستير، وخلاصة رأيه: أن استبدال الري الدائم بري الحياض كان كارثة على مصر، فقد كان لري الحياض ميزات كثيرة، منها: أن الفلاحين يجدون فراغا من الوقت في بعض شهور السنة يمكنهم فيه أن يقوموا برحلات إلى الشواطئ ليعملوا بها لقاء أجر معين، ففقدوا هذه الميزة بعد الري الدائم ، ومنها: أن التربة تبقى قوية ولا يضعفها تكرار الزراعة في سنة واحدة كما هو الحال اليوم بعد الري الدائم، وقال: إن الري الدائم قد جعل المال كثيرا في أيدي الفلاحين، وهم قوم لا يعرفون فن الإنفاق ولا فن الادخار فصاروا يبعثرونها على الملذات والشهوات في القاهرة والعواصم فكان ذلك نكبة عليهم من الوجهة الصحية والاجتماعية، ومنها: أن الري الدائم قد ضاعف كمية الرطوبة في التربة فكان ذلك مما ساعد على نمو الطفيليات الضارة فانتشر بين الفلاحين مرض البلهارسيا والإنكلستوما ولم يكن كذلك من قبل.

ثم قال: إن هذا الرأي ليس من عنده، فقد سبقه إليه الأستاذ براون الذي كان يعمل في قسم فلاحة البساتين في القاهرة فكتب كتابا عن نظام الري في مصر، ولفت نظر أولي الأمر في مصر أن يصلحوا هذا الحال بعد أن أسندت مقاليد الأمور إلى أيديهم، واعترف بالخطأ الذي ارتكبه قومه الإنجليز حين أنشؤوا هذا النظام نظام الري الدائم في مصر فأضروا بالفلاحين، وأضروا بالتربة الزراعية. ويظهر أن الأستاذ علوي لا يؤمن كثيرا بمشروع السد العالي إذ إنه سيضاعف هذه المشكلة، ولكي نتلافاها يجب أن نفكر في المشروعات التي ستعتمد على هذا المشروع من اليوم.

فيلم خالد بن الوليد:

وتسلسل الحديث إلى التعليم، فكان رأيه في غاية الوجاهة والأصالة إذ يرى أن التعليم في مصر حتى اليوم لم يتضح هدفه كما ينبغي، ثم إن قلة المدرسين الصالحين عقبة كبيرة في سبيل التعليم الأمثل. ثم تسلسل الحديث؛ وذلك حين اقترحت عليه أن يكتب قصة في هذا الموضوع، فالأسلوب القصصي سينشر الفكرة بصورة أوضح من المذكرات والبحوث التي تكتب ووافقني على الرأي. ولأنه يعتقد أنه ليست عنده الموهبة الكافية ـ فإذا هو ممن لهم باع في النهوض بالمسرح الإسلامي الذي أنشأته جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة، وهو صديق حميم للأستاذ محمد عثمان مدير المسرح السابق، وقد اشترك في تقديم سيناريو لفيلم خالد بن الوليد من زمن بعيد يعود إلى سنة ١٩٥٠م وعرضه على فريد شوقي فحفظه عنده مدة طويلة دون أن

يقرر شيئا فسلمه الأستاذ علوي إلى حسين صدقي فأعجب بـه وبقـي يفكر في إخراجه حتى تم له ذلك في السنة الحاليـة. وحـدثني أنهـم عرضوا الفيلم على بعض الموزعين هنا في النمسا فقالوا: لا سبيل إلى عرض هذا الفيلم هنا لأن الكنيسة لن تسمح بذلك، ولفت نظري إلى أن سلطان الكنيسة قوي جدا في هذه البلاد، وقد رأيت أن مثل ذلك يحدث في ألمانيا الغربية.

ثم نهضنا من المقهى فركبنا عربة أخرى بالأجرة أوصلتنا إلى مطعم ذي جو غريب، فهو أشبه ما يكون بأقبية فيينا المشهورة التـي زرت اثنتين منها من قبل، فالسقف منخفض يورث الجالسين التعاطف والتعارف والجدران مكسوة بفروع من الخشب، ولهذا أيضا دوره في تكييف المقهى وإعطائه ذلك الجو المرح الغريب، وقد أكلنا على المائدة أكلة مفيدة مشبعة ونحن نصغي إلى الموسـيقى يعزفهـا أوركـسترا المقهى، وأكملنا حديثنا الذي بدأناه في المقهى العالي هنـا فـي هـذا المقهى.

وخرجنا حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف فمشينا طويلا في سكون ذلك الليل البديع في فيينا حين يعتدل الطقس كما هو الحـال في هذه الليلة فهي أشبه بليالي الصيف كما قال الأستاذ علوي، وبقينـا نتمشّى على أقدامنا مدة طويلة حتى التفتّ فإذا أنا أمام فندقي ، وكـان هذا رقة من الأستاذ علوي وظرفا فشكرته أمام باب الفندق وودعته ، وهو يقول: إن بقيت برهة أخرى في فيينا فأخبرني لأفرجـك علـى النوادي الخاصة الموجودة في ضواحي المدينة ولها اسم خاص عندهم تُدعى بالي.

ولم أكد أنفرد في حجرتي بالفندق حتى عاودني الضيق والضجر والقلق أيضا، ولكن التعب قد أخذ مني مأخذه فتسلل النعاس إلى عيني لكني صليت الفريضة أولاً ثم الوتر، ثم نمت نومة عميقة. والنوم ــ كما جربته في هذه الأيام القليلة التي مرت بي في ضيق ــ بلسم عظيم لمثل هذه الهموم.

قلق وانتظار وملل:

يوم الخميس ١٣ من نوفمبر سنة ١٩٥٨م استيقظت في الصباح وكلي أمل أن أجد شيئا في البريد، ولكني أصبت بخيبة أمل أخرى هذا اليوم، وذهبت إلى مكتب شركات الطيران عند صديقي ذلك اللطيف والظريف، فشكوت إليه أنني لم أتلق بعدُ الرسائل التي أنتظرها. فهون علي، فقلت له : إنني أريد أن أدرك طائرة اليوم إلى ميلانو وإلا اضطررت إلى الانتظار يومين أو ثلاثة أيام أخرى. فما كان منه إلا أن قال لي: انتظر من فضلك سأبحث لك لعلي أجد لك طريقا آخر إلى ميلانو، ونظر في صحائفه هنيهة. ثم قال لي وهو متهلل الوجه: أبشر ياسيدي، ففي وسعك أن تأخذ الطائرة إلى ميلانو عن طريق زيورخ، وهذه الطائرة موجودة يوميا فشعرت بشيء من الراحة والطمأنينة، وانصرفت من عنده شاكرا. ولكن لم أكد أتركه حتى عاودني القلق على عدم وصول الرسائل، والقلق لقلة النقود التي عندي، ولم أدر ماذا أصنع فتسكعت قليلا في الشارع المؤدي إلى دار الأوبرا، ثم قررت أن أزور المتحف لأتسلى برؤية مافيه، وقلت لنفسي: إن شلنين ليسا بذي بال، والشلنان هما رسم الدخول فتوجهت

نحو المتحف بخطا سريعة أحاول أن أظهر النشاط لأتخلص بـه مما استحوذ على جوارحي من التخاذل للهم الذي أنوء به.

مصادفة مع كمال الملاخ:

وعندما مررت بمكتب شركة (سابينا) للطيران إذا أنا بوجـوه مصرية لم أكد أتأمل فيها حتى تبينت بينهم الأستاذين محمـود حمـزة وكمال الملاخ[1]، وكانوا على وشك أن يركبوا سـيارة لتـنقلهم إلـى مجلس البلدية لزيارتها طبقا لبرنامجهم المرسوم، وإذ هم مدعوون من قبل شركة الطيران بمناسبة افتتاح خط جديد بـين فيينـا والقـاهرة، فتواعدت مع الأستاذ كمال الملاخ أن ألقاه في الـساعة الواحـدة فـي مكتب الشركة المذكورة، وواصلت سيري إلى المتحف وأنا أفكر فيمـا يمكن أن أفيده من مقابلتي للأستاذ الملاخ بخصوص الـضائقة التـي عندي، وقلبت الأمور على وجوهها مرة بعد مرة، وانقطع هذا التفكير لما دخلت متحف التاريخ الطبيعي، وهو يقابل المتحـف الأول الـذي زرته من قبل.

وقد شاهدت فيه حشدا من الحيوانـات والطيـور والزواحـف المحنطة من كل شكل ولون. ومن أهـم مايـسترعي النظـر هيكـل لديناصور هائل الحجم موضوع في بهو المتحف في الطابق الأعلـى، وقد قدرت طوله بحوالي ثلاثين مترا وارتفاع الجزء الأمامي منه ممـا

---

(١) كمال الملاخ (١٩١٨-١٩٨٧م) أديب وعالم آثار مصري، له عدة اكتـشافات في الآثار الفرعونية أهمها مواكب الشمس، له ٣٢ كتابـا، عمـل بـصحيفتي الأخبار والأهرام.

يلي الرأس بحوالي عشرة أمتار، والهيكل سليم كله من رأسه إلى ذيله وهو في الواقع تحفة تجدر بالمشاهدة، ومما يجدر بالتأمل أيضا بيضة كبيرة الحجم جدا كأنها كرة كبيرة مما يلعب بها في المباريات، ولا أدري لأي نوع من الطير هي؟ إذ لم أستطع أن أفهم شيئا من الشرح المكتوب عليها بالألمانية، وقد وجدت فصلا مدرسيا بتمامه يزور المتحف ومعهم مدرسهم يشرح لهم مايشاهدونه، ثم نزلت إلى الطابق الأسفل فإذا هو مخصص لأنواع الحجارة والمعادن والبللور، فرأينا شيئا مدهشا حقا.

وخرجت من المتحف في الساعة الثانية عشرة والنصف وتوجهت نحو مكتب الشركة، فانتظرت قليلا حتى حضر الأستاذ كمال الملاخ، وكنت أثناء الانتظار قد اشتريت جوابا وظرفا فكتبت رسالة إلى الولد عمر عثمان العمودي[١] شرحت له ما ينبغي عمله باختصار، ثم طويته وعنونته على أمل أن أسلمه للأستاذ كمال الملاخ ليلقيه في بريد مصر، ولكن لما أبطأ الأستاذ الملاخ رأيت أن أسلمه لطالب كان قد حضر إلى النمسا منذ أيام ليلتحق بكلية العلوم في قسم الكيمياء العضوية إلا أنه لم يجد له مكانا بها، واقترح عليه أن يلتحق بقسم التجارة فلم يرض، وآثر الرجوع إلى مصر وهو ساخط على النقود التي ضاعت منه هباء في رحلته، ويشكو من غلاء المعيشة في هذه

(١) عمر عثمان العمودي: أرسله والده ــ أحد وجهاء الحضارم في إندونيسيا إلى القاهرة ليتلقى تعليمه ويرعاه علي أحمد باكثير فأسكنه في بيته، وعدّه ابناً له ثم زوجه ربيبته إجلال محمد لطفي.

البلاد، ويترحم على رخاء مصر وجو مصر، وأوصيته أن يلقي الرسالة أول ما يصل إلى القاهرة، فوعدني خيرا.

وحضر الملاخ فتحدثنا قليلا وهو شارد الذهن من قلق على أمتعته لأن السفر كان قد أزف فأعطيته بطاقتي وعليها رقم تلفون، وقلت له: من فضلك اتصل بالبيت تليفونيا وطمئنهم عني، وقل لهم: إنك لقيتني بخير في فيينا، ثم قال: هل من خدمة أخرى؟ فهممت أن أقول له: نعم، إذا كان معك فضل نقود فسلفني إياه، ولكني لم أستطع أن أقول هذه الجملة أنفة وكبرياء! وقلت لنفسي: لا تلجأ إلى غيرك أبدا فربما يأتي الفرج قريبا إن شاء الله، وقال لي: إني سأذكر في الجريدة أنني لقيتك في فيينا، وودعته وانصرفت وتوجهت إلى المنزل.

وكنت في الصباح قد حزمت أمتعتي كلها. أنزلت الحقائب إلى بهو الانتظار بجانب إدارة الفندق، وقلت لصاحب الفندق: إني آمل أن أسافر اليوم، وسأخرج لأستفسر عن الحالة، فإن كانت مرضية سافرت وإلا بقيت ليلة أخرى أو ليلتين، قال صاحب الفندق: كما تشاء ياسيدي. وقد اتخذت هذه الحيطة خشية أن تتكرر المأساة التي حصلت بيني وبينه حين سافرت إلى ميونخ فتركت الحقائب في الحجرة بعد أن استوضحت منه أنني ليس علي أن أدفع شيئا مدة غيابي في ميونخ فوافق، ولكني لما رجعت وأخرج لي قائمة الحساب إذ به يحسب علي الأيام التي غبتها في ميونخ بدعوى أن حقائبي بقيت في الحجرة فناقشته في ذلك فلم يقتنع حتى التجأت إلى المفوضية المصرية فاتصل بالفندق سكرتيرها فجادلهم في ذلك حتى اقتنع صاحب الفندق، ولعله خشي أن تتطور المسألة فأصلحها بنفسه.

هكذا شعرت بجوع الفقراء:

ورجعت إلى الفندق اليوم فأبلغته أنني باق أيضا ليلة أو ليلتين وحملت حقائبي في المصعد فأعدتها إلى حجرتي. عدت إلى الحجرة التي ضقت بها ذرعا وأصبحت عندي مثل زنزانة السجن، ولكني ماذا أصنع؟ لابد من الصبر والانتظار وأكلت الكسرة التي اقتصدتها من فطور الصباح كعادتي في هذه الأيام فكسرت شيئا من جوعي، ولكنها بالطبع لم تشبعني، والغريب أنني في هذه الأيام سرعان ما أجوع، وشهيتي للطعام صارت أقوى مما كانت من قبل، فياليت شعري أهكذا أيضا الفقراء الذين لا يجدون ما يأكلون تشتد شهيتهم للطعام ويسرع إليهم الجوع؟ سبحان الله!

عندما كنت في الاتحاد السوفياتي وكان الطعام مبذولا بكثرة وفي كل وقت كنت ضعيف الشهية للطعام ولا آكله إلا كارها أو مكرها، أما الآن وأنا أشتري الطعام بالبقية الباقية من نقودي القليلة فإني أشتهيه ولا أكاد أشبع منه، وقد هممت أن أبطل التدخين لأن السجائر غالية في هذه البلاد فالعلبة من أرخص الأنواع تساوي ثمانية شلنات، ولكني لم أستطع ترك هذه البلوى لأني في حاجة إليها هذه الأيام إلا أني أقللت منها كثيراً، وعاهدت نفسي ألا أدخن في اليوم والليلة أكثر من عشر سجائر؛ أي بمبلغ أربعة شلنات، وأسأل الله أن يعينني على التخلص منها نهائياً وقد حذرني منها الأطباء كثيراً[1].

---

(١) عرفت من أسرته أن بوادر إصابته في القلب بدأت عنده في هذه الفترة، تطورت بعد ثماني سنوات إلى إصابته بأول أزمة قلبية سنة ١٩٦٦م بعد معركته مع اليسار ومهاجمتهم لمسرحية **(حبل الغسيل)**، وتطورت النوبات حتى أدت إلى وفاته في ١٠/١١/١٩٦٩م.

وأما الكبريت الذي نشعل به السجائر فغال أيضاً، فالعلبة بنحو أربعين جرشونا أو خمسة وأربعون أي ما يساوي أكثر من قرش صاغ مصري ، ولم أتبين ذلك إلا في هذه الأيام المنحوسة، وأحيانا يبدو لي أن هذه الضائقة المالية في الغربة درس مفيد لي جدا، فقد فتحت عيني على أمور دقيقة كثيرة ما كنت لأعلمها لولاها، وعودتني على الاقتصاد في الإنفاق والتدقيق في الحساب والتفكير في العواقب، أفليس من الجائز أنني كنت في حاجة جدا إلى مثل هذا الدرس؟ فأراد الله بحكمته ولطفه أن يتيح لي هذه الفرصة للتعليم والدرس؟ فالحمد لله على كل حال.

ثم أكلت تفاحة أخرى من التفاح الذي عندي وخلوت إلى نفسي فاشتد بي الكرب وألح عليّ الهم الثقيل، فقلت: إن خير علاج لذلك هو أن أنام قليلاً، وكانت الساعة الثالثة والنصف، فاضطجعت على سريري ونمت ولم أصح إلا الساعة الخامسة، فغسلت وجهي، ولبست ثيابي، وخرجت وأنا في حال أحسن من ذي قبل، وسرت أتسكع في الشوارع.

وبدا لي البحث عن المقهى الصغير الذي لقيت فيه العراقيين أول مرة ولكني لم أهتد إليه في هذه المرة أيضا على طول بحثي عنه وعلى معرفتي اليوم لاسمه Express Clinic وكان هذا المكان بعيدا فأدركني الإعياء من طول السير على قدمي، وأحسست بالجوع فتذكرت ما كان يغشاني في رمضان عند قرب غروب الشمس، فقلت لنفسي: يجب أن أتناول عشاء مغذيا اليوم حتى لا أتعب وأضعف أو يصيبني المرض، وعدت أدراجي وأنا أترنح من الجوع والضعف حتى

وصلت إلى المقهى Express القريب من حي الفندق، فدخلته وطلبت شربة وطبقا من اللحم البقري فأكلت بشهية نادرة حتى شبعت أو خيل إلي أنني شبعت! وطلبت كوب ماء طبيعي فعجبت الخادمة من طلبي إذ كانت تتوقع أن أطلب ماء معدنيا وأحصيت الحساب فإذا هو تسعة عشر شلنا وكسور، فأخرجت العشرين شلنا كأنما كنت أنتزع ضرسا من ضروسي، ثم تجولت قليلا فيما يلي دار الأوبرا، ولكني كنت قد شعرت بالتعب، فرأيت أن أعود إلى الفندق مبكرا قبل الساعة التاسعة، فخلعت ملابسي وجلست أفكر وأكتب هذه الكلمات، وأنا أدعو اللّه سبحانه وتعالى أن يلطف بحالي وييسر لي أمري ويفرج كربي في صباح غد إن شاء الله.

صلاة صادقة، ودعاء مُستجاب:

يوم الجمعة ١٤ من نوفمبر١٩٥٨م الواقع أنني لما أردت أن آوي إلى سريري شعرت برغبة شديدة في الوضوء ثم الصلاة. وكان ذلك في الساعة الثانية عشرة ليلا، فتوضأت وتطهرت وأبدلت سروالي الداخلي، ثم توجهت إلى القبلة. ولا أذكر أنني صليت بخشوع قط مثل خشوع البارحة، وقد أحسست وأنا أصليها أن اللّه سبحانه وتعالى سيجيبني إلى طلبي إن دعوته بعد مثل هذه الصلاة، وبعد الفراغ منها دعوت بالدعوات المأثورة، ثم دعوته أن يفرج كربي في الغد، وأن يجئني مكتوب من مصر ، ونمت عقب ذلك نومة هادئة.

واستيقظت في الصباح وأنا شديد الشوق إلى معرفة هل جاء كتاب أم لا؟ ومن عادة البريد أن يوزع في الساعة التاسعة صباحا فأخرت قيامي عمدا حتى الساعة الثامنة والنصف خشية ألا تتحقق

الأمنية فأصاب بخيبة أمل جديدة قد تكون أقسى من الأولــى. وقلــت لنفسي: ما كان ينبغي أن أتكل على الدعاء مثل هذا الاتكال خــشية أن يهتز إيماني إذا لم يستجب اللّه دعائي، وذهبت أمهد لنفسي عدم قبول الدعوة لقصور ونقص فيّ، وكنت أحلق ذقني إذ ذاك، وإذا بالباب يدّق ففتحته فإذا بواب الفندق وهو شخص لطيف وليس في الفندق شــخص لطيف غيره. أما الآخرون فترى على وجوههم الغَبرة ولا يمكن لأحد أن يعقد آصرة مودة بينه وبينهم، وهذا البواب يتكلم الفرنسية بطلاقــة، وحدثني أنه يميل إلى سماع برنــامج الإذاعــة المراكــشية ويعجــب بالموسيقى التي تذاع فيها ــ إذا هذا البواب يبشرني بأن البنك اتــصل بالفندق ليبلغه وصول حوالة باسم فلان (باسمي) فكدت أقبل هذا الرجل من الفرح والواقع أن هذا الرجل قد بدأ يــشاركني اغتمــامي لتــأخر الرسائل المنتظرة وإن كان لا يعلم مضمونها ، ثم بعد قليل يعود مــرة أخرى وأنا أتناول إفطاري يسلمني برقية مختومة فإذا هي مــن الولــد عمر عثمان العمودي وفيها ذكر المبلغ الذي حول إلي بواسطة البنــك المشار إليه، فازداد فرحي وسروري إذ قرأت في البرقية توقيع عمــر العمودي.

وقد شعرت وقتئذ بنشاط عجيب بعد التخــاذل والملــل الــذي استحوذ عليّ منذ أربعة أيام أو ثلاثة حتى لأكاد أحيانا أن أعزم السفر إلى القاهرة في الحال دون انتظار لأي شيء حتى ولو ضــاع المبلــغ الذي طلبته من القاهرة أو استولي عليه صاحب الفندق، ولكــن عــدم كفاية المبلغ الذي عندي لأدفع ما استحقه الفندق عليّ كان أكبر مــانع يحول دون هذا التسرع.

والواقع أنني بدأت أكره فيينا، وأراها كسجن كبير أنا طليق فيه أتجول في أنحائه كيف أشاء ولكني مسجون على كل حال ، واشتد حنيني إلى أهلي بالقاهرة، ولم أستطع أن أصبر أطول مما صبرت، وأحسست كذلك بالوحدة القاتلة بعد أن كنت في أول الأمر - أي أول ما نزلت فيينا - منفردا أشعر أن الرحلة لا تكون جميلة وممتعة إلا إذا كان المرء يقوم بها وحده دون رفيق لأن الرفيق يحجب عن المرء كثيرا من الشؤون التي ينبغي أن يعرفها عن البلد الذي هو فيه ولا يتيح له أن يستقل بمسؤوليته، ويعتمد على نفسه في كل صغيرة وكبيرة. وهذه أول مرة أسافر فيها وحدي وقد أدركت أنني عرفت شوارع فيينا معرفة لابأس بها في وقت قصير، على أنني أعتقد أنني ضعيف الحاسة الجغرافية. والحقيقة أنني كنت أعتمد في الرحلات السابقة على رفاقي فلا أرى البلد بعيني، ولا أتأمل شوارعها وطرقها بنفسي، فتكون النتيجة أنني لا أهتدي إلى سبيلي فيها مهما تطل إقامتي في ربوعها، ولكني في أثناء هذا الضيق حننت إلى الرفيق ليسليني ويشعرني بالطمأنينة والسلامة.

وجاء الفرج من مصر:

وهكذا أسرعت بارتداء ملابسي ثم خرجت صوب البنك الذي وصفه لي بواب الفندق وأشار علي فركبت عربة الحافلة رقم ٢٦؟ وصرفت الشيك وأعطاني مبلغ ٢٠٤٠ شلنا نمساويا وقلت للصراف في أول الأمر: إني أريدها نقودا مصرية. فقال الصراف: يمكننا أن

نعطيك ذلك إذا شئت، غير أني تريثت قليلا، وأخذت أحسب المبلغ وأقارنه بما كنت أصرف به الجنيهات المصرية التي عندي، فإذا هذا المبلغ يزيد عما كنت أصرفه زيادة واضحة، ولما دققت في الحساب وجدت الجنيه الواحد يساوي ٥٤ شلنا مع أني كنت أصرفه من قبل بأقل من ٥٤ شلنا وهو فرق كما ترى كبير، ولكي أستوثق من هذه النتيجة سألت الصراف كم يساوي ٥٤ شلنا نمساويا من الليرات الإيطالية فأجابني بأنها تساوي ١٤٩٠ ليرة وكنت قد سمعت من بعض الإيطاليين أن الجنيه المصري في إيطاليا يساوي ١٢٠٠ ليرة فازددت يقينا بأن ليس من مصلحتي أن أستبدل هذه الشلنات النمساوية جنيهات مصرية، بل ينبغي أن أحتفظ بها وأصرفها في إيطاليا وهو ما استقر عليه عزمي.

ثم ذهبت إلى مكتب شركة الطيران فاستشرت صديقي فأشار عليّ بمثل ما استقر عليه عزمي وعرضت عليه التذكرة لينظر في إمكان سفري غدا (يوم السبت) إلى ميلانو عن طريق زيورخ. وكان قد أخبرني أن ذلك في الإمكان. ولكنه بعد المراجعة اكتشف عدم إمكان ذلك إلا إذا دفعت فرقا في السعر فقررت أن أبقى إلى يوم الأحد حيث توجد طائرة تحملني من فيينا رأسا إلى ميلانو، وهكذا اضطررت أن أبيت ليلتين أخريين في فيينا على كره مني، فقد مللتها كما سبق، ولكن لعل الله أراد بي خيرا والله يعلم، ونحن لا نعلم.

وفي العشية ذهبت إلى شارع الجامعة لألقى أصدقائي العراقيين، فقد اشتقت إليهم فلقيت الأستاذ علاء الدين جعفر ولم ألق الأستاذ عبد الباقي الشواي ولا الدكتور كاظم.

وبعد قليل استأذن الأستاذ علاء وانصرف. ومررت في طريقي بسينما فدخلتها، وكان يُعرض فيها فيلم فرنسي وهي سينما صغيرة جدا وكذلك الشاشة تكاد تكون مثل الشاشة التي نراها في المدارس عندنا، ولقد رغبت قبل ذلك أن أرى فيلم الوصايا العشر الذي أخرجه سيسل درميل والذي منع عرضه في مصر، ولكني لم أتمكن من الحصول على تذكرة، وقالت بائعة التذاكر: إن في استطاعتي أن أحصل على تذكرة يوم الاثنين أو بعد ذلك اليوم بيومين. والإقبال على هذا الفيلم شديد جداء، وكان في وسعي أن أراه في ميونخ حين كنت بها لولا أنني شغلت عن ذلك، وعلي كل حال؛ فإن هذا الفيلم الفرنسي كان تسلية لي وأعطاني فكرة عن السينمات المتوسطة في فيينا.

وفاء الإخوة العراقيين:

يوم السبت ١٥ من نوفمبر١٩٥٨م نهضت في الصباح فاشتريت القماش الصوف الذي وقع اختياري عليه من قبل. ومما يستحق الذكر أن التاجر رضي أن يعطيني ربع متر زيادة دون ثمن وهذا عجب! وعدت به إلى الفندق، ثم ذهبت إلى مكتب شركة الطيران فوجدت تذكرتي قد أجري لها اللازم من حيث تبديل خطة سيري إلى فيينا ـ ميلانو ـ القاهرة، ورأيت أن أستوثق فذهبت إلى مكتب شركة الطيران الجوية الإيطالية قبالة دار الأوبرا فتأكدت من أن مكاني قد

حجز بالطائرة التي تسافر غدا في الساعة الثالثة بعد الظهر، ويجب أن أكون في مكتب الشركة المذكورة في الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة، وفي الساعة الرابعة اتصلت تليفونيا بالأستاذ علاء الدين جعفر لينظم لي مقابلة الأستاذ الشواي فتواعدنا على اللقاء في الساعة الخامسة والنصف في مقهى جلوري في شارع الجامعة، ومن ثم ذهبنا إلى مقهى كلنيك الواقع خلف المتحف، وجلسنا هناك قليلا حتى قدم الأستاذ الشواي، فذهبنا إلى قبو من أقبية فيينا المشهورة حيث كان الجو البديع المرح يسود المكان، وبقينا به إلى الساعة الثانية عشرة فانصرفنا إلى بيوتنا، وودعني الأستاذ الشواي إلى باب الفندق. والواقع أن هؤلاء الأصدقاء العراقيين أَسَروني بأخلاقهم الكريمة ولطفهم، فكأنني عرفتهم من زمن بعيد.

في إيطاليا

يوم الأحد ١٦ من نوفمبر ١٩٥٨م نهضت في الصباح استعدادا للسفر إلى ميلانو وكان اليوم مطيرا، فقضيت معظم الوقت في مقهى جيداردي في نفس الحي الذي يقع فيه الفندق، وفي الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة أخذت حقائبي في (تاكسي) إلى مكتب شركة الخطوط الجوية الإيطالية قبالة دار الأوبرا حيث يجاوره مكتب شركة الطيران، وفي الساعة الثانية غادرت المكتب في حافلة إلى المطار. وبعد الإجراءات اللازمة ركبت الطائرة في تمام الساعة الثالثة، وكانت طائرة صغيرة ذات أربع محركات، فانطلقت بنا باسم الله مجراها ومرساها. وقرأت في الطائرة مقالة عن سمرست موم(١) في مجلة Paris Matar، وقدم إلينا طعام نظيف، ولكن اللحم لحم خنزير، فلما رفضته أعطتني المضيفة بدلا منه قطعة من الجبن مما يدل على أنه ليس في الطائرة غير لحم الخنزير.

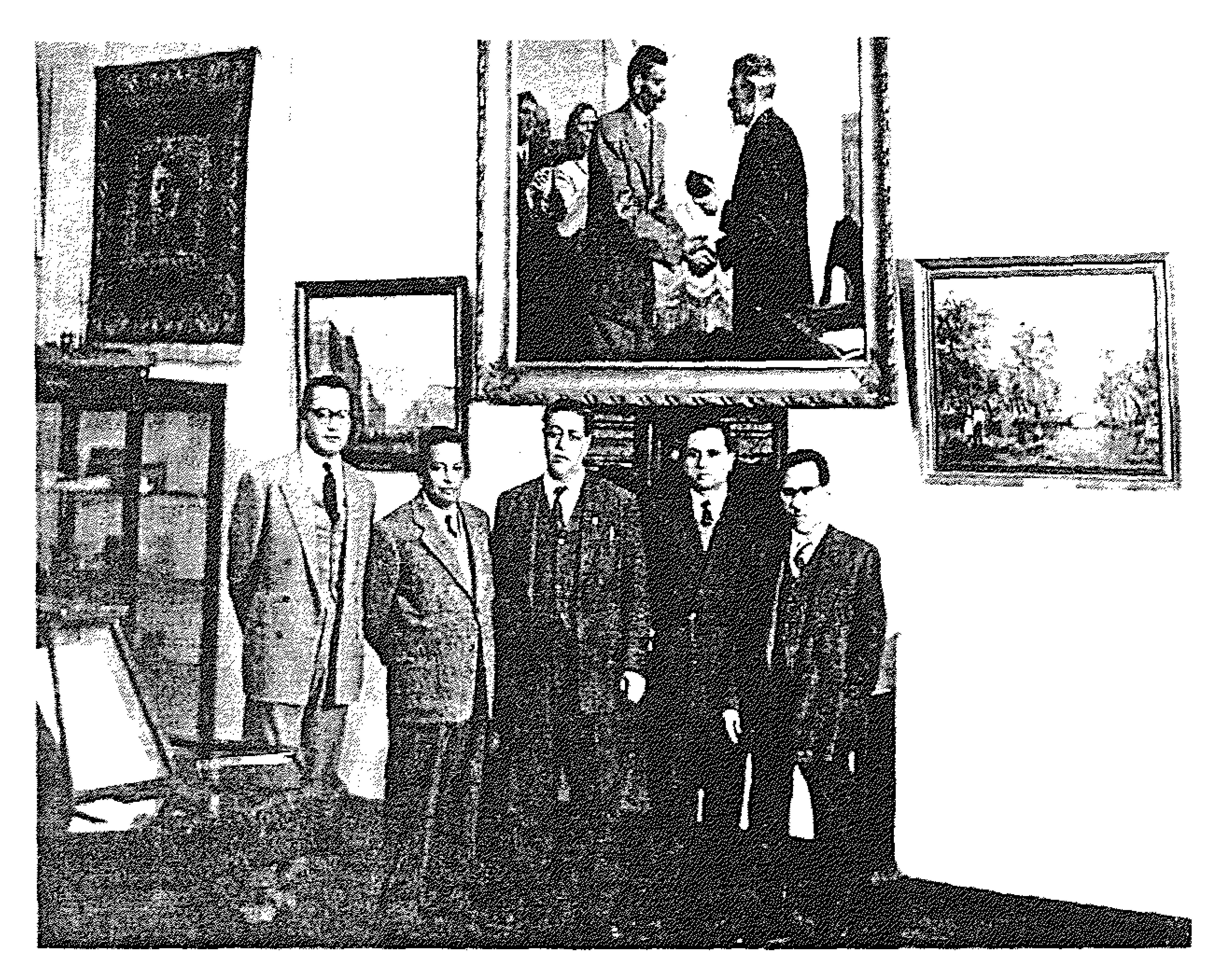
---

(١) سمرست موم: (١٨٧٤-١٩٦٥م) روائي وكاتب مسرحي إنجليزي من أشهر أعماله روايتي: (القمر وستة بنسات) و(كنت جاسوساً). عمل جاسوساً للمخابرات البريطانيا والأمريكية بعد ثورة الشيوعية بقيادة لينين حيث جمع معلومات عن السلام الأحادي بين روسيا وألمانيا.

وفي مكتب الشركة بفيينا تعرفت إلى ياباني كهل تبين أنه قام برحلة حول أوربا زار فيها البلاد الزراعية ليقف على آخر تطورات الفن الزراعي فيها، وأخبرني أن خير بلاد استفاد منها هي هولندا والسويد والدانمارك، وسيزور أسبانيا ومصر، فكان رفيقي في الرحلة، وقد استأنست به بعد طول وحدة، ونزلنا في مطار ميلانو معا، ثم ركبنا الأتوبيس منه إلى المدينة معاً، وقد دفع كلانا مبلغ ثمانمائة ليرة أجرة الركوب.

ومطار ميلانو بعيد جدا حتى أننا قطعنا المسافة فيما يقرب من الساعة، وفي مكتب الشركة بميلانو دُللنا على فندق يزعمون أنه من الدرجة الثانية، ولكن تبين لي فيما بعد أنه لا يقل أجره كثيرا عن أعلى فندق في المدينة، وكان أجر المبيت لليلة واحدة ألفين من الليرات، فتضايقت من ذلك وطفقت أبحث عن فندق آخر، وخرجت لأول مرة في شوارع المدينة وكان معي رفيقي الياباني، وبعد تجوال طويل شعرنا بالجوع، فدخلنا مطعما يبدو لنا أنه متواضع، فإذا نحن ملزمون بدفع مبلغ ألف وستمائة للاثنين، ولم نطلب غير مكرونة وشوربة خضار وراجعنا الحساب فوجدنا ٢٠٠ ليرة رسم نظافة الفوط وبساط المائدة، و٣٠٠ ليرة خدمة، غير الضريبة الحكومية...إلخ.

فقلت في نفسي: إن العامل يكسب أكثر من صاحب المطعم. وفي الصباح دخلنا مقهى صغيرا وأفطرنا شايا وكعكة مما يسمى بالكروليسون (الكعكة الهلالية)، ودفع كل واحد منا حوالي خمسمائة ليرة، وتبين لي فيما بعد أن صاحبة المقهى خانتنا ونصبت علينا في أربعمائة ليرة لأني في اليوم التالي تناولت فطوري



باكثير، شوقي ضيف، مندور، العريان، الشرقاوي في متحف مكسيم جوركي بموسكو سنة ١٩٥٦م

في مكان أفخم كثيرا من ذلك المكان، وأخذت كعكتين بدلا من واحدة، ولم أدفع غير مائة ليرة وستين. وقد أفطرت وحدي لأن الياباني، بعد أن أظهر لي أنه موافق على الانتقال من الفندق الأول إلى فندق آخر أجره ألف وخمسمائة ليرة عدل في اللحظة الأخيرة، وآثر البقاء في فندقه فتركته ولم أره بعد ذلك. وانتقلت أنا إلى فندق تورينو في شارع تورينو على مقربة من فندق الريستون الذي كنا فيه، ولا يقل عنه كثيرا، بل يفضله بالسعة والهدوء. وتناولت غدائي أيضا

وحدي، فأكلت طبقا من المكرونة ولحم عجل فتعجبت من الفرق الشاسع بين أكلة اليوم وأكلة أمس، ويبدو أن الأول اعتبرنا غرباء سواحا فزاد علينا، وارتاح بالي لمّا نقلت إلى الفندق الثاني، فتجولت طويلا في المدينة أتفرج على الفترينات الملأى بأجمل البضائع والحاجات، وفي كل مرة أقول: ياليتني أشتري هذا أو ذاك لزوجتي وابنتي.

فيلم الوصايا العشر:

رجعت إلى الفندق وكتبت خطابا إلى مصر ، ثم خرجت مرة أخرى وبقيت إلى الساعة الواحدة ليلا إذ دخلت السينما لأشاهد فيلم الوصايا العشر الذي أخرجه سيسل درميل، وكنت قد حرصت على مشاهدته في ميونخ، ثم في فيينا، فلم يتأت لي ذلك. والفيلم مدبلج إلى اللغة الإيطالية فلم أفهم الحوار، ولكني تابعت حوادثه بسهولة وهو طويل جدا استمر من الساعة التاسعة والربع إلى الساعة الواحدة تتخلله استراحة قصيرة، والواقع أن الفيلم دعاية واسعة لإسرائيل، وإن كان الإنصاف يقتضي أن أقول: إنه لم يلتزم هذا المعنى لأنه أظهر بني إسرائيل في حادثة العجل الذهبي بصورة بشعة، فهم لم يكفروا فقط بل انغمسوا في الفسق والفجور، واختلط نساؤهم برجالهم في حُمّى من التهتك والخلاعة.

وأجمل شيء علق بخاطري تصوير كلام الرب لموسى أو استخدام الأضواء في ذلك استخداما رائعا، وصور الكلمات العشر تحفرها النار في الصخر كلما نطق رب العزة بكلمة من كلماته، فلما

انتهى كل ذلك وجد موسى اللوحين مستقرين في الجبل من نفس صخر الجبل فخلعهما وحملهما معه، ثم إنه صور موسى قد تربى في قصر فرعون دون أن يعلم أهله بحقيقة نسبه ما خلا زوجة فرعون (سيتي) وبعض وصائفها، وقد قام غرام بين موسى وابنة فرعون، وكان رمسيس الثاني أي فرعون يحسد موسى على مكانته وعلمه، ولعله قصد بذلك أن يرجح كفة فرعون ضد موسى ورسالته إلى هذا الحسد القديم. والعجيب أنه لم يلتزم رواية التوراة فيما يتعلق بهارون الذي نسبوا إليه أنه هو صانع العجل، بل ذهب فيه مذهب القرآن في السامريّ.

ومما هو جدير بالذكر أن المؤلف حاول أن يقرب بين العرب واليهود ضد المصريين، وذلك في اللقاء الذي تم بين موسى وشعيب، إذ قال شعيب نحن بنو إسماعيل وأنتم بنو إسرائيل وأبونا واحد هو إبراهيم، ولكن فات المؤلف أن المصريين اليوم هم عرب أيضاً، كما فاته أن ليس المصريون وحدهم هم الذين يعادون إسرائيل اليوم، بل العرب جميعا.

اليوم الأول في ميلانو:

كان يوم الاثنين هو اليوم الأول لي في ميلانو حيث انتقلت إلى الفندق الجديد كما سبق، وقد بت ليلتها في حجرتي الواسعة التي فيها سريران، وقد حسبها لي صاحب الفندق بألف وخمسمائة ليرة، ولم أستطع أن أجد أرخص من هذا السعر إلا فنادق تنقصها الراحة واللوازم الصحية. وفي هذه الليلة الأولى شعرت بشيء من البرد

ظننته في أول الأمر ناتجا عن نقص في تدفئة الحجرة، ولكن تبين لي بعد ذلك أن ذلك ناشئ عن انحراف قليل في صحتي، لعله نشأ من الإجهاد الجسماني الذي تحملته ذلك اليوم في السعي للحصول على فندق مناسب، فقد ذرعت البلد جيئة وذهابا مشيا على قدمي وأستطيع أن أحصي المسافة التي قطعتها في ذلك إذا قلت إنها كالمسافة بين الجيزة والعباسية.

AUSTRIA
Triesto
Milan
Turin
Ravenna
Venice
Genoa
Bologna
La Spezia
Livorno
Florence
Ancona
Piombino
Corsica
ROME
Porto Torrez
Gaeta
Naples
Bari
Sardinia
Oristano
Cagliari
Palermo
Reggio di Calabria
Catania
Sicily
Augusta
0 100 km
0 100 mi
TUNISIA

واستيقظت في صباح يوم الثلاثاء وأنا أشكو تعبا في المعـدة، وإمساكا تسبب عنه تقرح في فتحة الشرج من جراء البواسـير التـي تتأثر لأقل سبب، فعرفت سبب البرد الذي أحسست به ، وكـان همـي هذا اليوم أن أحصل على الأنترفيوفرم، فالتمسته في الصيدليات فوجدته معبأ بعشرين حبة في العلبة، والثمن ثلثمائة وخمس وسـبعون ليـرة، فطلبت عبوة أصغر فلم أجد، وطلبت شراء حبات منه مفـردة، فقـالوا جميعا: ليس عندهم ذلك. فاضطررت إلى شراء العلبة الكبيرة ، وقـد أحسست براحة كبيرة حين استعملته.

ومررت على شركة الخطوط الجوية الإيطالية التي نقلتنا مـن فيينا إلى ميلانو لأستفسرها عن مواعيد السفر إلى القاهرة فتبـين لـي أنها لا تطير إلى مصر، ولكن تستعين بفريق من الشركات، واقترحت عليّ شركة T.W.A من روما أو KLM.

وما نمت هذه الليلة حتى غسلت بعض الملابس في الحـوض الذي في الحجرة، وقد اشتريت لذلك صابونا بخمس وعـشرين ليـرة، وعلقت الملابس على الدفاية فيبست بسرعة.

إيطالي عاش في مصر:

يوم الأربعاء ١٩ من نوفمبر ١٩٥٨م استيقظت مبكرا فأفطرت بمائة وستين ليرة، وقد كنت ألزمت نفسي منذ الأمس أن أقتـصد فـي نفقات الغذاء على ٦٠٠ ليرة فقط بدلا من ٩٥٠ ليرة، وذلك لأسـتطيع مواجهة النفقات وشراء ما يلزم للأهل، وذهبت إلى مكاتب الـشركات في حي مِسَّرى بشارع مازيني فاتصلت أولاً بمكتب K.L.M فوجدت

الشركة تطير كل يوم تقريبا إلى القاهرة من روما، فكتبت المواعيد يوم الجمعة ويوم السبت ويوم الأحد ، ثم رحلت إلى مكتب S.A.S فوجدتها لا تطير إلى القاهرة من روما إلا مرتين في الأسبوع، وذهبت إلى مكتب T.W.A فلم أجد بيانات شافية فاستخرت الله في اختيار K.L.M، ووعدتهم بالاتصال لتحديد موعد السفر. وعند رجوعي من هذه الزيارة وأنا أسير في شارع تورينو الطويل وأتفرج على الحوانيت، فإذا بشاب يعترض طريقي ويقول بالإنجليزية You are M.Fawzy قلت له : فوزي من؟ قال : محمد فوزي ، وهنا نطق بالعربية قائلاً : ألست من مصر؟ ــ بلى ــ أهلا وسهلا أنا كنت في مصر وأنا صغير ووالدي كان يشتغل مدير شركة هناك، وأخذنا نتحدث، ثم دعاني إلى تناول قهوة فرأيت أن ألبي دعوته لحاجتي إلى من أتجول معه في هذه المدينة وجلسنا في مقهى لطيف فاحتسينا القهوة ونحن نتحدث في شؤون شتى، وأطلعني على الجريدة التي في يده، وفيها خبر الانقلاب في السودان[1].عرفته إذ ذاك لأول مرة كأني ما كنت أقرأ الجرائد لأن الجريدة الإنجليزية والأمريكية تكلف مبلغا لا أطيقه فقلت لنفسي: لأتوكل على الله ولا أشغل بالي بأخبار الدنيا. وكان السنيور (كارلو بولليني) وهذا هو اسمه في غاية اللطف معي، وقد

(١) الانقلاب في السودان: في ١٧ من نوفمبر ١٩٥٨م نجح أول انقلاب عسكري في السودان بقيادة الفريق إبراهيم عبود أطاح بحكومة الائتلاف بين حزب الأمة والاتحاد الديمقراطي التي يرأسها رئيس مجلس السيادة الزعيم إسماعيل الأزهري، وقد حكم الفريق عبود السودان لمدة سبعة سنوات حكماً شمولياً دكتاتوريا.

فرح بلقائي فرحا حقيقيا وهو لا يدري كيف يسعدني أو يخدمني ، وتبينت منذ اللحظة الأولى أنه شديد الإخلاص وصافي النية وشديد الحنين إلى مصر يذكرها ويذكر أيامه فيها بكل خير ، ويفضلها على إيطاليا، وقد تنقل مع والده في الإسكندرية والقاهرة وحلوان، ووالده مهندس ميكانيكي كبير وهو الآن يكاد ينقطع عن العمل لعدم حاجته إليه إلا فيما يبدو كان يقوم بتصميم ماكينات جديدة.

والأستاذ كارلو تخرج فى كلية الهندسة وتخصص في البلاستيك، ولكنه يعمل الآن في شركة أمريكية كمخبر يزور البلاد الأوروبية لمعرفة حاجاتها المختلفة، فيكتب تقارير وإحصاءات عن ذلك تستفيد منها الشركة في نشاطها التجاري، وهو يتمنى لو يستطيع أن يقوم بعمل في مصر، ولكنه يخشى ما يقال عن عدم استقرار الأمور فيها. فقلت له: إن كل ما سمعته عن ذلك غير صحيح، بل هو من أثر الدعاية الاستعمارية لأمريكا وإنجلترا فقال: إن إنجلترا دولة لعينة حقا، وقد كابدنا نحن الإيطاليين منها الكثير، والإيطاليون يكرهون اليوم كل ما هو إنجليزي، أما الأمريكان فأمرهم مختلف، قلت مجاملة له : قد يكون ما تقوله صحيحا، ولكن الأمريكان يتبعون دائما سياسة الإنجلير وتوجيهاتهم قلت له: وعلي كل حال فإني أقترح عليك أن تقوم بجولة في مصر والبلاد العربية المجاورة لترى بنفسك، فربما يعن لك أن تقوم فيها بعمل رابح. قال: أنا لا أشك في مستقبل الإعلان في الشرق الأدنى لأنه مازال يعتبر بكرا بالنسبة إلى أوروبا، فحين تحفر في أرضه تجد الذهب، ويعني بذلك كثرة الأرباح وصلاحية

الاستثمار ولكن الأعمال الكبيرة لا تقوم إلا بمعونة شركات التـأمين، وهذه الشركات تمتنع الآن عن تمويل المشروعات في تلك البلاد بحجة أن الحال فيها غير مستقر بعد.

شـاب عجيـب:

ثم نهضنا متجهين ناحية الفندق الذي أسكنه، وفي الطريق ودعني بعد أن كتبت اسمه في المفكرة، وأعطيته بطاقة لي، وكان قد سألني في المقهى عن عملي وعن الغرض من رحلتي، فأخبرته أنني كاتب وموظف، وأنني اشتركت في مؤتمر الكتاب بطشقند...إلخ. قال لي وهو يودعني: يجب أن أراك أثناء إقامتك، وغدا سأتصل بك في الفندق تليفونيا لأحدد لك ميعاد المقابلة. وانصرف وأخذت سمتي نحو الفندق وأنا أقول: لو كان صادقا فيما يرغب لأعطاني رقم تليفونه. ومكثت في الفندق قليلا ثم خرجت لأتناول غدائي في المطعم المتواضع، فقلت: لا آكل اليوم أكثر من ٤٠٠ ليرة، فطلبت شربة خضار ومكرونة فكلفني ذلك أقل من ٤٠٠ ليرة فحمدت اللّه وغلبني النعاس فنمت قليلا في حجرتي دون أن أخلع ملابسي وصحوت في الساعة الرابعة، فإذا تليفون الحجرة يرن فلما تناولت السماعة سمعت صوتا بالعربية يقول : أنا بلليني وقد رأيت أن أتصل بك اليوم لأنني خال عن العمل، فقلت: مرحبا بك، فقال: سآتي إليك في الساعة الثامنة لآخذك معي، فعجبت من وفائه وإخلاصه، وعجبت من نفسي كيف خطر ببالي أنه كان يريد التخلص مني، وخرجت أتمشى وأتسكع في الشوارع، وجرتني قدماي إلى محل الفراء وقد ترددت عليه أكثر من خمس مرات فتشجعت ودخلته فاشتريت قطعة للياقة بمبلغ زهيد هو

ألف وثلثمائة ليرة ففرحت كثيرا إذ أنجزت هذه المهمة ورجعت إلى الفندق قبيل الثامنة.

وفي الساعة الثامنة بالضبط رن جرس التليفون مرة أخرى فإذا عاملة الفندق تقول لي: هنا صديق ينتظرك، فنزلت مسرعا وتبادلنا التحية بشوق وحرارة كأنه صديقي من قديم، وقادني في التو إلى مطعم قريب فتعشينا وأكلت طبق مكرونة وطبق كبدة من العجل وحبة من البرتقال وفنجان قهوة، ودفع صاحبنا الحساب دون تردد، وأظنه دفع عني حوالي سبعمائة ليرة على الأقل، ثم خرجنا من المطعم فقال لي: ما رأيك في دخول سينما؟ قلت: لا داعي إلى السينما، قال: إنها سينما ومسرح في الوقت نفسه، فلم أشأ أن أخالف رغبته فدخلنا سينما في شارع متفرع من شارع تورينو فكان نصف الحفلة منوعات غنائية وتمثيلية، والنصف الثاني فيلما سينمائيا (أمريكياً) مدبلجا إلى اللغة الإيطالية بإتقان وسألته عن ثمن التذكرة الواحدة فإذا هو ٣٠٠ ليرة والسينما عليها إقبال كبير فهي ملأى بالمتفرجين، وتمنيت لو كان أخذني إلى أوبرا أو باليه، ولكني خشيت أن يكون في ذلك إثقال عليه.

الترتيب للقاء ناشر بالإيطالية:

وفي المطعم أخبرني أن له صديقا مساهما في الشركة التي يعمل فيها وهو ألماني من إقليم السار، وأنه مساهم أيضا في شركة كبيرة للنشر والطبع وقال: إنه حدثه عني ككاتب من مصر فأبدى رغبة في مقابلتي ففرحت لهذه الصدفة العجيبة. فقد كنت أتمنى أن ألقى

أحد الكتاب أو الناشرين فلم أهتد إلى ذلك سبيلا، وقلت لنفسي: كيف أقدم نفسي إليهم وهم لا يعرفونني! فسبحان الله! كيف شاء الله أن يحقق أمنيتي، فيسر لي لقاء هذا الشاب الظريف؟

وقال السنيور بلليني : أنا حريص على أن تتم المقابلة بينك وبين هذا الناشر، فمن يدري لعله يترجم لك كتاباً وينشره فيدر ذلك عليك ربحا كبيرا، فعجبت منه كيف اهتدى إلى ما في نفسي كأنه كان يقرأ أفكاري . قلت له: أنا لا يعنيني المال، بل يهمني بالدرجة الأولى أن ينشر كتابي باللغة الإيطالية، وهنا طفق الأستاذ كارلو يحاضرني عن أهمية المال في الحياة، وأن الإنسان بدونه لا يساوي شيئا، ونصحني عندما أقابل ذلك الناشر ألا أعيد هذه المقالة على سمعه، بل يجب علي أن أظهر حزما مني لو فاوضني لعقد اتفاق معه، ولما علم أن لي نحو عشرين كتابا فرح بكل جوارحه وقال: الآن ستكون مهمتي يسيرة عند الناشر ، والواقع أنني لست واثقا جدا من سهولة قبول الناشر لبعض كتبي، ولكن المهم عندي إخلاص هذا الشاب وحبه لي الخير في خلجات قلبه، ولقد كنت في الصباح عازما على التعجيل بالسفر من ميلانو، ولكني غيرت رأيي بعد لقاء هذا الشاب الكريم عسى أن ألقى ذلك الناشر بقطع النظر عن النتيجة المنتظرة من ذلك ، وقد تفضل الأستاذ بلليني فشيعني إلى الفندق عقب انصرافنا من السينما وشكرته، فقال : هذا أقل ما يجب عليّ عمله لصديق.

مستوى عال من الفساد

يوم الخميس ٢٠/١١/١٩٥٨م نهضت مبكرا إذ لم أستطع النوم كثيراً بعد صلاة الفجر فأكلت الخبز الذي اشتريته البارحة لأوفر على نفسي مبلغ ٢٥ ليرة، ثم خرجت إلى المقهى فشربت قدحا من الشاي، ودفعت ستين ليرة للشاي واستغنيت بهذه الطريقة عن تناول كعكة أو كعكتين من المقهى تكلفني الواحدة خمسين ليرة، ورجعت إلى الفندق كعادتي لدخول الخلاء، ثم خرجت مرة أخرى وتجولت في المدينة كعادتي أتأمل في الحوانيت وما فيها، ثم درت على البنوك أسألها عن الصرف؟ فمن قائل: إن الشلن النمساوي يساوي ٢٣٥٠ ليرة، ومن قائل ٢٣٧٠ وآخر صاحب مصرف صغير يعطى ٢٣٣٥، بينما كنت صرفت في محطة الطيران عند قدومي بمبلغ ٢٣٥٠ فقط وقلت لنفسي: هذا مكسب وإن كان ضئيلا لكن لا يستغنى عنه، وقررت أن أصرف في المصرف الصغير ولكني لم أفعل، وبعد الجولة الطويلة رجعت صوب الفندق ودخلت المطعم المعهود حوالي الساعة الواحدة والنصف ولم أجد شهية طيبة للطعام ولعل ذلك من جراء تبكيري في تناوله قبل أن يشتد بي الجوع، والواقع أنني عجلت بالغداء لأن الأستاذ كارلو بلليني وعدني بالمجيء في الساعة الرابعة فرأيت أن أنام قليلا بعد الظهر لأكون فائقا بالليل.

وجاء الأستاذ فعلا في موعده فخرجنا إلى المقهى القريب الذي أتناول شاي الصباح فيه وقد أدركت فيما بعد لماذا اختار هذا المقهى، وذلك لأنه مرتبط بموعد مع رجال عمله في الساعة الخامسة

والنصف، واعتذر لي لاضطراره إلى تركي وحدي تلك الليلة وهو شديد الأسف قائلا: كان من واجبي ألا أدعك وحدك أبدا طوال إقامتك في ميلانو، ولكن ماذا أعمل؟ قلت: كلا يجب عليك أن تذهب إلى عملك ولا تعطله من أجلي، وإلا فإني سأزعل منك. فشكرني وانصرف.

وفي المقهى كان حريصا على أن يسري عني فألقى بنقود – في الجراموفون الأتوماتيكي الكبير الشائع الاستعمال في المقاهي والأندية هنا وفي فيينا وميونخ، فطفقنا نستمع إلى الأغاني والموسيقى على الذوق الإيطالي الجميل، وحتى الأستاذ كارلو أراه يحب هذه الموسيقى الزنجية، ويعجب بها كما فعل أيضا في الليلة البارحة بالسينما حين أخذ يغني لأحد المغنين المشهورين في ميلانو أغاني كلها من هذا النوع، وغالبا ما يمزجون كلماتها الإيطالية بكلمات إنجليزية من الأغنية الأصلية، أما أنا فقد اضطررت إلى مجاملته بإبداء إعجابي أيضا بتلك الألحان، وإن كنت لا أستطيع أن أخفي إعجابي الحقيقي كلما دار الجراموفون بأغنية إيطالية أصيلة، وهكذا فإن الأمريكان لم يغزوا أوروبا بالدولار بل بفنهم الزنجي الصاخب أيضاً وغير ذلك.

وبينما كنا في المقهى إذ دخل بضعة فتيان حديثي السن عليهم مظاهر الترف واللامبالاة، فلفت نظري إليهم قائلا: هؤلاء الـ Teddy Poys من أبناء الأغنياء ورجال الأعمال لا هَمَّ لهم إلا العربدة والجري وراء البنات والشرب والقمار وعقد حفلات خاصة حمراء في بيوتهم حيث يرقصون عراة مع الفتيات العاريات، ويعملون لبعضهم مالا يعمل! ثم قال: أظن أن

مثل هذا غير موجود في مصر، قلت: صدقت، لم نبلغ بعد إلى هذا الدّرْك. ثم قال مستهجنا: إننا نرى الشبان يقبّلون الفتيات على قارعة الطريق وفي الأندية العامة دون حياء وخجل، بل إنهم يذهبون إلى الحديقة العامة الكبيرة بالليل فيرتكبون فيها الموبقات، ثم قال معقبا: أظن أن مثل هذا لو حدث في مصر لسيقوا إلى الكركون! قلت: نعم. وقلت: لعل هذا إنما حدث بعد الحرب فأجاب بالإيجاب، وقد لاحظت من خلق الأستاذ كارلو أنه على جانب عظيم من التمسك بالأخلاق، فهو لا يشرب النبيذ إلا قليلا. قال لي: يجب علينا نحن الشباب أن نستمتع بالشباب جهد ما نستطيع ولكن في غير أوقات العمل، فيجب حينئذ أن نكرس جهودنا في عملنا والحياة عسل وبصل، فلنغتنم العسل ما كان، ولنصبر على البصل كلما لجأنا إليه.

وقد حدثني اليوم أنه اتصل بصديقه الناشر الكبير رجل العمل الألماني في إقليم السار، وإنه يحتمل أن يكون في ميلانو غدا الجمعة، وربما يؤثر أن يبقى في كومو فنذهب نحن إليه هناك لأنه الآن مقيم في لوجانو في سويسرا على الحدود. وقال لي منبها : حذار أن يشم منك أي ميل إلى الشيوعية والشيوعيين فإنه شديد الكراهية لهم بسبب ما ارتكبوه في الألمان وقت الحرب، فهو ألماني شديد التعصب للألمانية مع أنه إنساني النزعة لا يميز بين جنس وجنس، ولا بين لون ولون حتى إنه جاءه ذات يوم رجل من الحبشة لم يجد عملا فأوصى به أحد أصدقائه من رجال الأعمال ليوظفه عنده، فلما تردد الصديق قال له مهددا: أنا سأخرب بيتك في البورصة إن لم تفعل. كما حدثني

عنه أنه ناجح جدا في كل شيء، وهو يحسب الأرقام بذهنه في سرعة نادرة، ولذلك فهو يحب اللعب في البورصة، ثم إنه كثير التنقل في البلاد وفي إحدى المرات تردد إلى نيويورك أربع مرات في شهر واحد، وربما استقل طائرة خاصة على حسابه. قال لي ذلك كله ليعطيني فكرة عن الرجل الذي سأقابله.

رسالة من صديق:

وكنت اليوم عند رجوعي إلى الفندق قد وجدت رسالة لي من صديقي في رافنا يدعوني إلى زيارته في لوجو على مقربة من رافنا، وكنت قد كتبت إليه من فيينا فلم يدركني الرد الذي كتبه إلى هناك، فكتبت له مرة ثانية من ميلانو، وقال: إنه ينتظرني يوم السبت أو يوم الأحد بعد الظهر، ورأيت من واجبي أن أطلع الأستاذ كارلو على الرسالة لأخذ رأيه في كيفية السفر إلى رافنا فما كان منه إلا أن نصحني بعدم الذهاب خشية أن يكلفني ذلك مبلغا طائلا لا قبل لي به فلم أشأ أن أعارضه. ولكني بعد قليل تلطفت في إفهامه أنه ليس من الذوق عندي أن أغفل هذا الطلب من هذا الصديق القديم وأنا على مقربة من بلده فوافقني، ونصحني أن أقطع تذكرة ذهاب وإياب ليكون أوفر.

لذلك ركبت الترام بعد انصرافه إلى المحطة العمومية فكانت رحلة ممتعة، إذ رأيت فيها أجزاء لم أبلغها من المدينة، ونزلت في المحطة فإذا هي من أفخم المحطات التي رأيتها، فهي تتألف من طوابق عديدة، ولها بوابات عالية شامخة، وفيها مصعدان إلى الطوابق العليا، وأظنها خاصة بالموظفين في المحطة.

أما الدور الثاني فله مصعد من ذلك الدرج المتحرك على نحو مارأينا في فيينا. وبحثت هناك عن مكتب الاستعلامات فلما وجدته سألته عن مواعيد القطار من ميلانو إلى لوجو ففهمت بعد استفسارات كثيرة أن أحسن ماأعمله هو أن أركب القطار الذاهب من ميلانو في الساعة الرابعة عشرة (أي الثانية) ثم أغير في بولونيا، وأركب قطارا آخر يوصلني إلى لوجو في الساعة الثانية عشرة، ولكي أحصل على تذكرة ذهاب وإياب يجب أن أقسم المسافة إلى مرحلتين فتذكرة ذهاب وإياب من ميلانو إلى بولونيا ثم تذكرة أخرى مثلها بين بولونيا ولوجو وبهذه الطريقة أوفر على نفسي حوالي سبعمائة ليرة، وأنا حتى الآن لم أستطع أن أقرر متى يكون سفري إلى لوجو لأني مضطر إلى معرفة متى يمكنني أن أرى الناشر أولا؟ وأخشى أن يؤخر ذلك من ميعاد سفري إلى القاهرة ، ومما يجدر بالذكر بالنسبة للأستاذ كارلو أنه سألني إذا كنت محتاجا إلى نقود، وقال لي: إياك أن تجعل أي فرق بيني وبينك واعتبرني أخاك الأصغر، وإذا ذهبت إلى مصر فستقدم لي أنت مثل ذلك فشكرته قائلا: إني غير محتاج إلى النقود بعد، فعندي ما يكفيني إن شاء الله.

خطأ الخادمة:

يوم الجمعة ٢١ من نوفمبر ١٩٥٨م استيقظت مبكرا استعدادا لموعدي مع الأستاذ كارلو بلليني الذي سيحضر بين التاسعة والعاشرة ليعقد لي مقابلة مع صديقه ومدير الشركة التي يعمل فيها والمساهم في شركة النشر من جملة الشركات التي يساهم فيها، وهي كثيرة. فأكلت

الخبز الذي عندي من البارحة، ثم توجهت إلى المقهى لشرب الشاي كالعادة، ورجعت إلى الفندق ثم انتظرت في حجرتي لألبي دعوة الأستاذ إذا حضر ولكن حدث حادث بسيط كان يمكن أن يؤدي إلى نتيجة سيئة بالنسبة لي لولا أن الله سلم، ذلك أني حين حضرت إلى الفندق بعد تناول الشاي أعطاني القيمّ على المفاتيح مفتاحا رقمه ٦٠١ بدلا من مفتاحي رقم ٦٠٢ ولم ألاحظ ذلك حين أردت أن أفتح الباب فلم يدخل المفتاح في ثقب الباب فأردت أن أنزل مرة أخرى لأرد هذا المفتاح وآخذ مفتاحي ولكن الخادمة أدركتني بالمفتاح الذي عندها ففتحت لي الباب وسلمتها المفتاح الغلط لترده إلى مكانه، ولم يخطر ببالي أن هذا العمل البسيط سيترتب عليه أي خطب! ذلك أني انتظرت في حجرتي، وأنا أكتب في المذكرات، وبين حين وآخر أنظر إلى الساعة حتى بلغت العاشرة ثم العاشرة وعشرين دقيقة ولم يحضر الأستاذ كارلو، فعجبت من ذلك لما أعلم من محافظته على مواعيده بالدقة، فبدا لي، فرفعت سماعة التليفون الذي في الحجرة فكلمتني الفتاة ابنة صاحب الفندق، قلت لها: معذرة! ألم يحضر الأستاذ كارلو بعد للسؤال عني؟ فقالت: يا أستاذ باكثير هل أنت في حجرتك الآن، قلت بالطبع، قالت كيف يكون هذا ومفتاح حجرتك عندي؟! لقد سأل عنك الأستاذ كارلو ثلاث مرات بالتليفون، فقلت له: إنه ليس في الفندق! قلت: ياويلتا! ألم تعلمي أني في الحجرة، قالت: من أين لي أن أعلم؟ فأسرعت بالنزول إليها، وقلت لها: يا سيدتي إن الخادمة هي التي فتحت لي باب الحجرة لأنني أُعطيت مفتاحا غير مفتاحي، والسيد الذي كان يقف موقعك يعلم ذلك. قالت: لكن السيد انصرف وحللت أنا

مكانه، فلما رأت اضطرابي وضيقي قالت لي: هون عليك فسيطلبك مرة أخرى. قلت لها في لهفة، هل قال لك ذلك؟ قالت: نعم، وأنا في حواري هذا معها إذ دخل الأستاذ كارلو ففرحت فرحا شديدا وشعرت شعور من فقد الشيء النفيس حتى طار له عقله ثم إذا هو يجده بغتة. قال: أين كنت؟ لقد تلفنت لك مرارا، قلت: هلم نخرج لأشرح لك، ومشينا في الشارع وأنا أشرح له ما حدث وهو يضحك. قال: لما قيل لي: إنك لست في الفندق قلقت عليك لعل شيئا حدث لك فأسرعت بالحضور، ولم اعتمد على التليفون. فيالكرم خُلُقه! ويالشدة عطفه!

ودخلنا مقهى في الطريق، فاحتسينا القهوة ونحن واقفان، ثم أسرع بنا إلى حيث وجدنا عربة أجرة فاستقلتنا إلى حيث لا أدري فإذا بنا ننزل في محطة للسكة الحديد غير المحطة الكبرى التي زرتها أمس فلما سألته أخبرني أننا ذاهبان إلى بحيرة كومو، وأن الأستاذ المدير ينتظرنا هناك. فاشتد فرحي وتوقعت لما كان يحدث لو ظن الأستاذ كارلو أنني غير موجود أو لم آبه لموعده فتركني وانصرف عني واعتذر لصديقه بغيابي؛ إذن كانت كارثة !

وحدثني أن في ميلانو خمس محطات للقطار كلها أهلية ماعدا المحطة الكبرى فهي حكومية، فزاد عجبي إذ كنت أظن أن تلك المحطة المركزية التي زرتها أمس أكبر من حاجة ميلانو. وركبت القطار في الدرجة الأولى، فمر بنا في أرض زراعية تتصل فيها حلقات المصانع والمعامل على طول الطريق لم تنقطع لحظة واحدة، فأدركت حينئذ عظمة ميلانو وتقدمها في الصناعة. وقد أخبرني أن

ميلانو هي العاصمة الحقيقية الإيطاليا، بل توشك أن تكــون المركــز الصناعي الأول بها ولاسيما بعد الاتفاق الأخير بين الدول الأوروبيــة على اتخاذ ميلانو مركز هذا الاتحاد، وبموجبه تكون العاصمة للوحدة الأوروبية أو للسوق الأوربية.

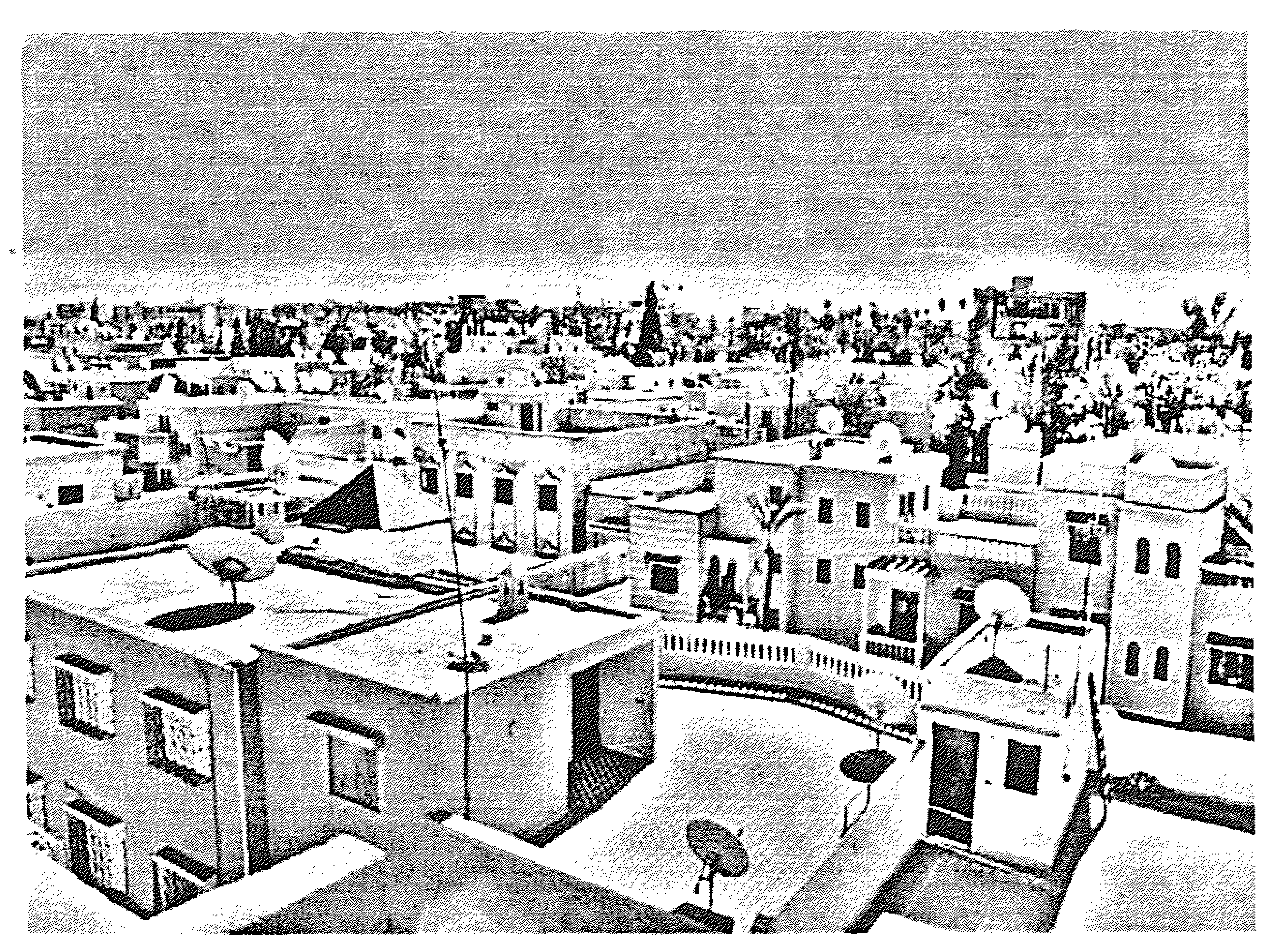
وتشعّب بنا الحديث فاستطرد بنا إلى ذكر آثار الحرب وويلاتها حين سألته: هلُ بنيت هذه المصانع قبل الحرب أو بعدها؟ فقال: بعضها قبل الحرب، وبعضها بعد الحرب. قال: إن الحرب شيء فظيع، فمــا كانت توجد في إيطاليا غير قلة من البغايا وبائعات الهوى قبل الحرب، أما بعد الحرب فقد كان الجوع كبيرا في دفع كثير من الفتيات إلى بيع أعراضهن للجنود الأمريكان وغيرهم حتى كانت علبــة واحــدة مــن السجائر كافية لشراء عرض فتاة في الرابعة عشرة، وقد تخلف عــن ذلك حتى الآن نتائج سيئة، فتلكم الفتيات اللاتي جربن هذه المهنة الهينة حيث تكسب في الليلة الواحدة مبلغا قد يــوازي مــا تكـسبه بالعمــل الشريف في خلال شهر استمرت في مزاولتها حتى اليوم ، ثــم قــال: ومثل هذا حدث في ألمانيا بصورة أفظع وأشنع حتى إن الجندي يدخل أي بيت من البيوت ومعه سلة من الخبز واللحم فيستقبل بالترحاب من الأسرة ويأخذ في مداعبة فتاتها العذراء بين سمع أهلها وبصرهم ثــم يصعد بها إلى حجرة في الطابق الأعلى ويقضي فيها حاجتــه وأهلهــا يأكلون من ذلك الطعام الذي جلبه.

وقال: إن أتعس بلد في إيطاليا تحمل أكبر قسط من هذا الفساد هي نابولي فهناك حوالي سبعين في المائة من النساء بعن أعراضــهن في الحرب لشدة الفاقة والجوع، ثم لما اقتربنا من كومو حــدثني عــن

الشبان الإيطاليين الذين يقضون الإجازة الصيفية في هذه المصايف مجانا على حساب نسوة من ألمانيا وغيرها يأتين للنزهة والمتعة وحدهن ليخلو لهن الجو مع هؤلاء الشبان، ثم قال: لا تعجب فهكذا الدنيا يا أستاذ علي!

ونزلنا في محطة كومو فمشينا حتى وقفنا أمام البحيرة ونحن في ذهول من جمال المنظر، فالمدينة حول البحيرة ومن ورائها الجبال تكشفها من كل جانب فكأنها لوحة أبدعها رسام، ومن قمم الجبال وعلى سفوحها ترى الجواسق والفيلات البديعة منثورة بين الشجر مخضرة مورقة.

وتجولنا قليلا على شاطئ البحيرة، ثم دخلنا المكان الذي فيه التلفريك يصعد بالناس إلى قمم الجبل، وبينما نحن نتحدث إذ أقبل الأستاذ هنري ريتشارد جالوب، وهذا اسم الأستاذ المدير الذي كنا على موعد معه ليلقاني في هذه البقعة الساحرة حيث له بيت فيها من جملة البيوت التي يملكها في أماكن كثيرة، والأستاذ في حوالي الخامسة والثلاثين في مثل قامتي تقريبا، ولا يبدو على هندامه ما يلفت النظر مما يدل على أنه مليونير، فإن ثيابه عادية تحملك على الاحترام والتوقير. وحيانا تحية طيبة بدون كلفة، وكان الأستاذ كارلو قد أعطاني فكرة واضحة عنه، وأوصاني أن أكون ثقيل الوزن، وألا أبدي التلهف على الاتفاق على شيء، فلم أر ما يدعوني إلى ذلك لأن الشخص الذي أمامي يحملني على أن أكون وقورا مثله في غير كلفة.



كنا على موعد معه ليلقاني في هذه البقعة الساحرة
حيث له بيت فيها من جملة البيوت التي يملكها

في قمة الجبل

ثم قال لنا: هل أنتما جائعان الآن، لأني شديد الجوع، هيا بنا نصعد في التلفريك. وقطع الأستاذ كارلو ثلاث تذاكر لنا ثم انتظرنا قليلا في ذلك الترام الصغير الذي يصعد زاحفا إلى فوق كأنه ثعبان زاحف حتى آن أوان تحركه، فإذا هو ينساب مصعدا، وأنت ترى المنظر أمامك يتسع ويتسع كلما علا، وتمر بك البيوت والحدائق من يمين وشمال حتى بلغنا القمة، فنزلنا من الترام وإذا أمامنا منظر ساحر للمدينة التي بدت الآن واسعة جدا، وقد كنا نظنها من تحت صغيرة، والبحيرة وهي تلألأ في ضوء الشمس، والجبال التي تبدو كأنها حانية

على البحيرة وعلى المدينة، ومن قمم جبال الألب مكللة الهامات بالثلوج. فقال الأستاذ هنري: انظر، فإنك تستطيع أن تتذوق هذا الجمال خيرا منا لأنك كاتب كما حدثني كارلو عنك. قلت له: إن الدهشة ملكت علي جميع أمري، ثم أشار إلى قرية من القرى المنتشرة هنا وهناك قائلا: تلك القرية من سويسرا، فنحن الآن على الحدود.

وبعد أن قضينا حاجتنا من الاستمتاع دخلنا مطعما فخما عبر الجبل، فجلسنا بحيث نشرف على المناظر البديعة، وطلبنا طلباتنا من النادل، ثم بدأ الأستاذ يتحدث معي فيما كان الاجتماع من أجله فقال: هل لك أن تحدثني عن كتبك، لعلنا نستطيع أن نعمل شيئا من أجلها؟ لقد قال لي كارلو: إنك كتبت مسرحيات فهل هي تراجيدية أم كوميدية؟ قلت له: إني كتبت النوعين معا فلي تراجيديات وكوميديات. قال: اذكر لي أسماء بعضها. قلت: لقد اخترت اثنتين منها للترجمة. وترجمتهما فعلا إلى اللغة الفرنسية وهما (مأساة أوديب)[١] و(سر شهر زاد)، وأن (مأساة أوديب) هي علاج جديد للأسطورة اليونانية التي خلدها سوفوكل[٢] بمسرحيته المشهورة أوديب ملكا، وتبين لي بعد الحديث معه أنه ليس معنيا كثيرا بالأدب وهو يعترف بذلك ويقول: إن هذا ليس من اختصاصي، ولكني سأتصل بصاحبي المختص في الشؤون الأدبية لتحدثه عن مضمون مسرحياتك، فإن وافق على إحداها نظرنا فيما يمكن عمله.

---

(١)عثرت على ترجمته الفرنسية لهذه المسرحيات الثلاث بخط يده، الأمر الذي يؤكد تمكنه من ناحية هذه اللغة.

(٢) سوفوكل: أعظم شعراء المآسي الإغريقية، أشهر أعماله الخالدة مسرحية (أوديب) عاش في القرن الخامس قبل الميلاد.

فيلم عن الثورة المصرية:

ثم غير اتجاه الحديث إلى السينما قائلا: ما رأيك لو كتبت لنا سيناريو عن الثورة؟ قلت: أي ثورة تعني؟ قال: أي ثورة كثورة جمال عبد الناصر وما جرى بينه وبين محمد نجيب تمثل على غرار فيلم ماري أنطوانيت؟ قلت له : إني أشك في نجاح مثل هذا الفيلم عالميا لأن قليلا من الناس يهمهم أن يعرفوا حقيقة الثورة التي قامت في مصر. والأمر في الثورة الفرنسية مختلف، فإن نجاح فيلم ماري أنطوانيت[1] مرجعه إلى أن العالم يعرف الكثير عن الثورة الفرنسية فهم متشوقون إلى أن يروا حوادثها في فيلم.

---

(١) ماري أنطوانيت: (١٧٥٥ـ ١٧٩٣م) ملكة فرنسا، وزوجة لويس ١٦، وابنة الإمبراطور فرنسيس الأول وماريا تيريزا. أثارت شبهات الفرنسيين، لأصلها النمساوي، ولم تجد في زوجها الضعيف الإرادة رجلاً كفئا. فانغمست في حياة المسرات والتبذير، وطرحت التقاليد الملكية وعارضت قوانين وإجراءات الاقتصادية لإصلاح مالية فرنسا، ولم تبد إدراكاً سليماً للشؤون السياسية، أو وزناً سليماً للرجال المحيطين بها. لكنها غدت بعد ولادة ابنها (ولي العهد) أكثر هدوءا وشعورا بالمسؤولية. والأغلب أنها كانت قليلة التأثير في السياسة التي انتهجها زوجها في العامين الأولين من الثورة الفرنسية، وحينما أخفق الزوجان الملكيان في محاولتهما الهرب خارج فرنسا، ونتيجة لتردد لويس وتركه الأمور على الغارب، اضطرت بعد ١٧٩١م إلى إجراء مفاوضات مع ميرابو وبرناف كي يرشداها إلى مخرج من موقف الملكية الحرج، وفي الوقت عينه حضّت سرا أخاها جوزيف الثاني على التدخل. ويعتقد أنها باحت بخطط الجيوش الفرنسية التي واجهت النمسا وبروسيا (١٧٩٢م) إلى العدو، فسجنت في (الهيكل)، ثم ألقى بها في سجن وزارة العدل، بعد إعدام زوجها وحكم عليها بالإعدام بتهمة الخيانة، وحزت المقصلة عنقها (١٦ من أكتوبر ١٧٩٣م). ويرى المؤرخون أنها لا تستحق المعاملة القاسية التي عاملها بها أعداؤها، وإن ذنبها أقل بكثير من العقاب الشنيع الذي لقيته.



قادة الثورة المصرية: محمد نجيب وجمال عبدالناصر وأنور السادات ومعهم الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين في صلاة الجمعة في الأزهر الشريف سنة ١٩٥٣م

أما الثورة المصرية فلم يمض عليها زمن كاف ليجعلها أشبه بالأسطورة غنية بالإيحاء الذي يجب توافره في العمل الفني، وأخوف ما أخافه أن يتم هذا العمل كأنه تحقيق صحفي عن هذا الحادث فبدا كأنه اقتنع ولكنه قال: لذلك لا تمانع إذا كلفناك بذلك؟ قلت: لا أمانع

وإن كنت لا أحبذه كثيرا نظرا إلى قلة الرجاء في نجاحه كعمل فني نجاحا عالميا بالطبع. ثم سألني عن عملي في مصر؟ فأخبرته أنني أعمل في مصلحة الفنون التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد القومي. فسألني: هل عندكم وزارة خاصة بالثقافة غير وزارة التربية والتعليم؟ قلت: نعم. قال: ألا ترى أن ذلك لا حاجة إليه. قلت: بلى، إن وزارة التربية والتعليم مشغولة بإنشاء المدارس على نطاق واسع وعندها من الأعمال ما تنوء به فلابد من إيجاد وزارة للثقافة لتعنى بالشؤون الثقافية العامة وبالفنون على وجه الإجمال، فوزارة التربية والتعليم للطلبة والتلاميذ ووزارة الثقافة للعموم. ويظهر لي من كلامه أن هذا النظام غير موجود في هذه البلاد.

وأنه أدرك أن ذلك معمول به في الاتحاد السوفياتي وحده، وهو لم يصرح بوجهة نظره هذه، ولكنني استنتجت ذلك من تحامله على الاتحاد السوفياتي وبغضه للشيوعية والشيوعيين، ولا أستبعد أنه يدرك أن هذا النظام معمول به في الاتحاد السوفياتي لذلك سأل هذا السؤال ثم قال : أما الذي يهمني أنا بالذات وعلى وجه الخصوص فهو أن أجد في مصر من يساعدني على الاستقرار التجاري الذي يدخل في صميم عملي. قلت له: أنا لا أكتم عنك أنني لا أفهم شيئا في هذه الشؤون التجارية، ولكني أعرف كثيرا من الأصدقاء على جانب كبير من المعرفة بهذه الشؤون، فما عليك إلا أن تكتب لي ماذا تريد، وسأعرضه على أصحابي هؤلاء ليفتوني في أمرها وأبعث بالرد إليك. قال: كلا، إنني أريد مراسلا ثابتا يمدنا بالمعلومات والتفاصيل الخاصة

بهذه الشؤون. فاستوضحته ما يريد قائلا : أخبرني هل هذه الشؤون التي تطلبها تدخل في أسرار الدولة؟ قال: لا، إنها قد تكون أسرارا تجارية، ولكنها ليس لها شأن من قريب أو بعيد بشؤون الحكومة وأسرارها. قلت: إذن فلا مانع عندي أن أساعدك في ذلك ، فإني لا أريد أن أساعدك ولا ينبغي لي ذلك. قال لي: هل تستطيع أن تذكر بعض أسماء أصحابك هؤلاء؟ قلت له : إني لا أتذكر الآن غير اثنين : أحدهما كان يعمل في القطن، ثم عمل في قسم الاستيراد والتصدير وهو على علم تام بفنه وبعمله، قال لي اذكر اسمه. قلت: اسمه لبيب السعيد،[١] قال: والآخر؟ ــ قلت: الآخر هو كاتب مثلي تجمعني به أواصر الأدب والكتابة هو الأستاذ عبد الحميد السحار[٢]. كان يعمل في مصلحة الطيران ثم انتقل إلى وزارة التجارة، ثم هو الآن يعمل في مؤسسة الاقتصاد القومي، وعجبت من قوة حافظته إذ استطاع من مرة واحدة أن يحفظ اسمي هذين الصديقين.

---

(١) لبيب السعيد: (١٩١٤-١٩٨٨م) أستاذ الاجتماع الإسلامي وعلوم القرآن اشتهر بمشروع تسجيل القرآن الكريم مرتلاً بكل رواياته المتواترة وقد نفذ المشروع بصوت الشيخ محمود الحصري وأُذيع أول مرة من الإذاعة المصرية في ١٨/٩/١٩٦١م.

(٢) عبدالحميد جودة السحار: (١٩١١ــ ١٩٧٤م) كاتب قصصي إسلامي مميز أسس سنة ١٩٤٣م (لجنه النشر للجامعيين) مع أخيه سعيد وانضم إليهما باكثير، ونجيب محفوظ وغيرهما، يعد من رواد الرواية التاريخية الإسلامية، من أهم أعماله وأطولها (محمد رسول الله والذين معه) وله عدة مؤلفات في الرحلات والقصص الإسلامي للأطفال.

انقلاب في السودان:

ثم أخذ يسألني عن المؤتمر الذي حضرته في طشقند، فشرحت له أهداف المؤتمر، وأنه لشعوب آسيا وأفريقيا فقط، غير أن الروس أنفسهم ليسوا ممثلين في المؤتمر إلا كضيوف. قال: لماذا؟ إن روسيا موجودة أيضا في آسيا ، قلت : ما أظنهم يعدون أنفسهم إلا من أوروبا. ولما تسلسل الحديث عن الحالة الحاضرة في مصر، قلت: إننا الآن أصبح لنا أمل في المستقبل بعد أن يئسنا زمنا منه. لقد ثبتت حكومة الثورة مستقبلنا على أساس مكين من الحرية والاستقلال الحقيقي، والدعوة إلى السلام العالمي، والحرص عليه، وعدم الانحياز لا إلى الشرق ولا إلى الغرب، وذلك هو شعارنا وشعار حكومة الثورة اليوم في مصر.

فقال: ألا ترى خطرا على بلادك من هذا الانحياز إلى الروس؟ قلت: يا سيدي، كيف تريد منا أن نخاف من خطر موهوم في المستقبل عسى ألا يقع البتة ونترك الخوف من خطر ماثل أمامنا في الوقت الحاضر هو خطر الدول الاستعمارية التي لا تريد لنا الخير والاستقلال خوفا على مصالحها منه؟ وحرصت في كلامي معه على التنويه بأن حكومتنا ليست شيوعية بل إنها تحارب الشيوعية بالقول وبالفعل، وقلت له: أتدري كيف اختارت ممثليها لحضور هذا المؤتمر في الاتحاد السوفياتي؟ لعلك تدهش إذا علمت أن الذين اختيروا من الكتاب كانوا جميعا من غير المعروف عنهم الميل إلى الشيوعية. ثم قال: ألا تعرف ماحدث في السودان؟ قلت له: علمت طرفا من ذلك من

الأستاذ كارلو، قال: لعلك تدهش إذا علمت أن هـذا الانقـلاب لـيس كالانقلابات السابقة في الشرق الأوسط فهو هذه المرة ليس في صـالح جمال عبد الناصر بل ضده. قلت: إن جمال عبد الناصر لـن يبـالي بذلك، وإذا كان الاستعمار هو الذي دفع رجال الجيـش في الـسودان إلى الانقلاب فإن الشعب السوداني يميل إلى التعاون مع مـصر، وإن كان لا يريد الوحدة معها. وقد كانت حكومة الثـورة حكيمـة حينمـا أعطت السودان استقلاله عن مصر وعن بريطانيا لتقطع بذلك حجـة البريطانيين وغيرهم في الأمر، إذ كانوا يزعمون دائما أن مصر تريد



إسماعيل الأزهري يرحب بجمال عبدالناصر في السودان سنة ١٩٥٤م

استعمار السودان واستغلاله، ومصر في الواقع غنية عن ذلك، ولا يربطها بالسودان غير مسألة الماء، والسودان في هذه المسألة هو الذي جانبه الصواب، فإن مشروع السد العالي لا يضار السودان بشيء لأنه ليس في حاجة إلى كل هذه المياه وحق مصر فيها واضح من أقدم عصور التاريخ، وقد كانت هناك اتفاقية بهذا الخصوص بين البلدين فلا حق للسودانيين أن ينقضوا هذه الاتفاقية، وقد لعب محمد نجيب دوراً إيجابياً في توضيح مسألة التفاهم مع السودان لجمال عبدالناصر وأصحابه الضباط الأحرار.



في بداية الثورة يشرح محمد نجيب لجمال عبدالناصر

أبعاد المسألة السودانية

وعلى كل حال فإن المسألة لم تنته بعد وسيكون لها ذيول ولا نستطيع الآن أن نحكم بشيء. إن جمال عبد الناصر اليوم هو الرمز الحر للنهضة العربية ويؤكد على القيم الروحية للأمة العربية، وهو لم يخترع فكرة الوحدة العربية بل استوحاها من آمال العرب أنفسهم، واستطاع أن يعبر عنها في صورة فعالة عملية، فلا غرو أن تتعقد عليه آمال العرب في المشرق والمغرب. وما السودان إلا بلد عربي ولن يخرج عما عليه إجماع العرب، ولا عبرة بالحكومات التي تعلو وتنخفض، أو تحكم وتسقط، بل العبرة بالشعب السوداني نفسه. ثم قال لي: إلى أي حزب تنتسب؟ قلت له: لم أنتسب إلى أي حزب بالأمس، أما اليوم فلا توجد أحزاب في مصر، قال: كيف إذن يمكن أن تقوم الديمقراطية؟ قلت: إن الرجوع إلى نظام الأحزاب في الوقت الحاضر غير مأمون العاقبة، فلا تزال التنظيمات السابقة للأحزاب قائمة، ومن اليسير إعادتها إلى ما كانت عليه، وبذلك يبطل عمل الثورة، ولكن ذلك قد يتأتى بالتدريج في المستقبل.

حكاية باسترناك:

ثم قال لي: ألم تسمع بحكاية الكاتب باسترناك؟[١] قلت: لم يبلغني هذا الخبر إلا في فيينا بعد أن غادرت موسكو بأيام، لذلك فليس عندي ما أستطيع أن أقوله لك بثقة تامة. فأخذ يستدل بذلك على عدم وجود الحرية التامة للكتاب، وأنهم واقعون تحت سيطرة الحكومة. قلت: لا أدري إلى أي حد يصدق كلامك هذا، ولكني على ثقة بأن حال

(١) لعله يقصد بذلك حصوله على جائزة نوبل التي نالها في السنة نفسها.

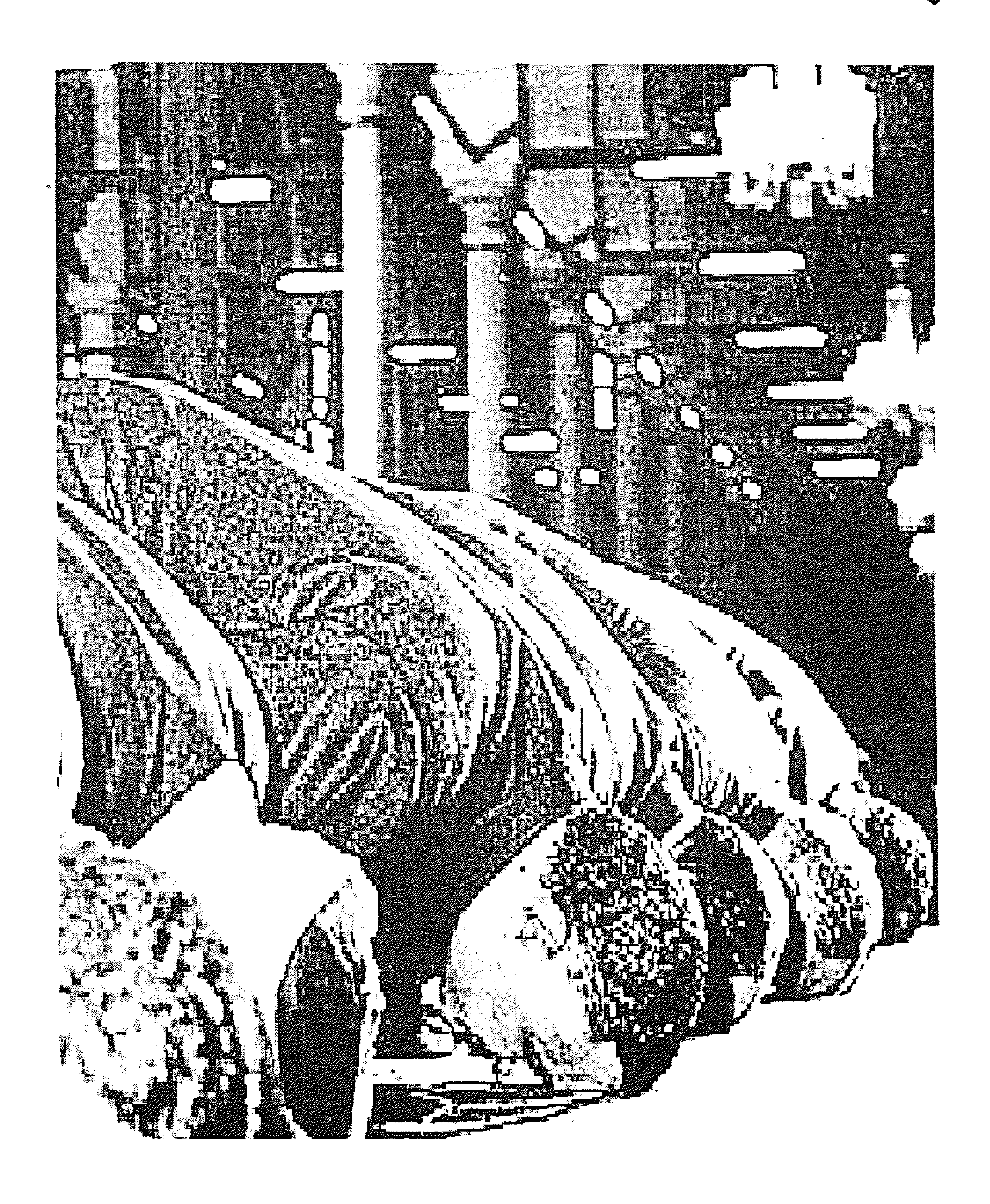
الكتاب في الاتحاد السوفياتي يعتبر خيرا من حال الكتاب في أي بلد آخر، ومثل الكتاب في ذلك الفنانون.

وغيّر محور الحديث مرة أخرى بلباقة، فقال : دعني أقل لك مرة أخرى: إني معْنِيّ بأمر كتبك، أريد بذلك خدمتك وخدمة صديقي كارلو الذي أوصاني بالاهتمام بك، وإن كنت لا أملك من الناحية الفنية ما أستطيع أن أحكم به لك أو عليك، ولكني سأتصل بخبيرنا في ذلك لما لي من حق الاشتراك في شركة دار النشر التي أساهم فيها، فما رأيك لو بقيت مدة أطول في ميلانو حتى أستطيع أن أبحث معك هذه الفكرة على مهل؟ وهنا قال الأستاذ كارلو وكان يستمع إلى حديثنا دون أن ينبس ببْنت شفة قال: لكنه ليس عنده المال الكافي للإقامة أطول من يوم الاثنين القادم حسبما استقر عليه عزمه، فهل لك أن تعطيه أنت ما يحتاج إليه خلال هذه المدة الزائدة؟ قال: نعم، أنا مستعد أن أعطيه ما يريد. قلت: على سبيل القرض، لعلي أستطيع أن أبعثه إليك حين أعود إلى مصر. قال: لا حاجة بي إلى ذلك فإنه مبلغ يسير على كل حال وستجد صعوبة كبيرة في إرسال المال إليّ. قلت: إني على كل حال لا أحتاج إلى الكثير، بل يكفيني أجر الفندق ونفقاتي المتواضعة أي مبلغ لا يزيد على خمسة آلاف ليرة. قال: هذا هين، وإن أردت المزيد فعندي لك ذلك.

والواقع أنني ارتحت لهذا التصريح منه، فإن نقودي لم تعد كافية في الحقيقة حتى إلى يوم الاثنين. وكنت مغموما لذلك كثيرا وعملت ما لا يعمل للاقتصاد في النفقات كما أشرت إلى ذلك من قبل،

ورأيت في هذا الذي قاله لي مخرجا من هذه الضائقة، وقلت: إنني آسف جدا أن أحتاج إليك أو إلى غيرك في أمر المال، وكان بودي ألا أضطر إلى الاستدانة والاستعانة بأحد، قال : دعني من هذا، فإنه أمر هين كما قلت لك: ثم قال لي الأستاذ كارلو لما خلا بي: لماذا تقول له هذا المبلغ اليسير ـ ألا تعلم أنه مليونير، وأن المبلغ الذي يعطيه لك مهما يبلغ لن يرزأه شيئا؟ وأخذ الأستاذ يوضح هذه النقطة قائلاً: إنني حريص على بقائك مدة أطول لأني لا أستطيع أن آتيك بالرد يوم الاثنين القادم لأني مضطر إلى القيام بأعمالي في هذه الأيام، وربما استطعت أن ألقاك بنفسي مرة أخرى يوم الثلاثاء ، قلت له: إذن سأعين سفري يوم الأربعاء. قال : الواقع أنني حريص على أن تبقى عندنا مدة أطول من ذلك أسبوعين أو أكثر، قلت: إن ذلك يتعذر نظرا إلى اضطراري إلى القيام بعملي في الوزارة، فإن إجازتي السنوية قد أوشكت على الانتهاء، وغير مسموح لي أن أقيم أكثر مما أقمت، قال: كما تشاء إذن، ولكن يمكنك من الآن أن ترتاح من جهة نفقاتك ولا تفكر في ذلك.

ونظر في ساعته فقال: يجب علي الآن أن أنصرف إلى أعمالي، والأستاذ كارلو سيقوم بالنيابة عني في تفسيحك وتفريجك على المدينة والبحيرة، أليس كذلك يا كارلو؟ قال الأستاذ كارلو: بالطبع. وهكذا نهضنا من المطعم ونزلنا بالتلفريك عائدين إلى الأرض، ومشينا قليلا معه ثم ودعنا بلطف إلى لقاء قريب يوم الاثنين أو الثلاثاء. وتجولنا قليلا مع الأستاذ كارلو في المدينة ثم ركبنا القطار عائدين إلى



جمال عبد الناصر اليوم رمز النهضة العربية لتأكيده على القيم الروحية للأمة

ميلانو. وشكا الأستاذ كارلو من وجع في بطنه فاضطر إلى إركابي الترام في المدينة وحدي وهو يعتذر بتلطف. قلت: لا بأس، إني لا أريد منك أن تصحبني إلى الفندق، بل يجب عليك أن تعود على الفور إلى بيتك لتستريح وحسبي ما أخذت من وقتك الثمين. قال: لا، لا تقل ذلك فإني سعيد بمصاحبتك. وقلت له وأنا أودعه: أظن من المستحسن أن أسافر غدا إلى بولونيا لزيارة صديقي هناك، وربما زرت فلورنسا أيضاً. قال: نعم، اذهب غدا حتى تكون خاليا لنا يوم الاثنين. وهكذا قررت في تلك اللحظة أن أقوم برحلتي إلى بولونيا في اليوم التالي.

الطريــق إلى بولونيــــا

يوم السبت ١٩٥٨/١١/٢٢م استيقظت متأخرا في الصباح فقد كان الضباب كثيفا اليوم في ميلانو، وأفطرت كالعادة في المقهى، ثـم رجعت إلى حجرتي لأكتب في المذكرات، وفي الساعة الثانية عـشرة خرجت مرة أخرى وأكلت غداء خفيفا هو عبـارة عـن طبـق مـن المكرونة في المطعم المعهود ثم انطلقت راجعا إلى الفندق، وحزمت ما بقي من أمتعتي، ونزلت إلى الإدارة. فقلت لزوجة المدير ـــ وهـي سيدة لطيفة عطوف: إنني مسافر اليوم إلى بولونيــا. فقالــت: افعـل، سنحفظ لك أمتعك حتى تعود. وعرضت عليها دفع الحساب الـسابق، فقالت: لا داعي إلى ذلك الآن... ادفع حين تعود. فشكرتها، وأمــرت الخادمة بإنزال ما بقي من حقائبي من الحجرة، وانطلقت أنا إلى الترام رقم ٢٦ الذي أقلني إلى المحطة العمومية، حيث حصلت على تـذكرة ذهاب وإياب إلى بولونيا. وانطلق بنا القطار حتى وصلنا بولونيا فـي الساعة الخامسة إلا ربعا، وكان تحرك القطار من محطة ميلانو فـي تمام الساعة الثانية بعد الظهر.

ولم أهتد بسهولة وأنا في بولونيا إلى مكتب قطع التذاكر حتى فاتني القطار الذي يذهب إلى لوجو رأسا فاضـطررت إلــى ركـوب القطار الذي يعبر بكاستل إلى بولونيا، حيث يجب عليّ أن أغير إلــى قطار آخر واضطررت إلى الانتظار أكثر من ساعة حتى جاء القطار

الذاهب إلى لوجو في الساعة السابعة و٤٧ دقيقة، فوصل إلى لوجو في الساعة الثامنة وخمس دقائق، فاتصلت بصديقي من المحطة تليفونيا وكان هو الذي كلمني، قال: عليك أن تستأجر تاكسي ليحملك إلينا، فأنا في انتظارك. وخرجت أهرول بحثا عن تاكسي ولكني لم أجد شيئا، وسألت بعض العمال، فقال لي: لا حاجة بك إلى تاكسي فإن المكان الذي تقصده قريب جدا لا يستغرق المشي إليه أكثر من عشر دقائق. ودلني على خط السير فمشيت سيرا على الأقدام حتى بلغت شارع (Cuto) فسرعان ما اهتديت إلى عنوان البيت. وهو بيت جديد من بين بيوت الشارع كله القديمة وعليها آثار القدم والتهدم وقرعت الجرس فنزل صديقي بنفسه يستقبلني فحياني وحييته ثم قال لي : هلم بنا إلى البيت.

وفي مدخل البيت قدمني إلى أخيه، وهو شاب طويل القامة يبدو أنه أصغر سنا من صاحبي فدخلت البيت، فقدمني إلى والدتهما وهي امرأة عجوز فرحبت بي ورحب بي كل من في البيت، وشعرت بقليل من الخجل، ولكنهم آنسوني وأنسوني كل شيء بلطفهم. ثم قدم لي صاحبي فنجان قهوة وقال: لعلك تريد أن تأكل الآن، قلت: لا داعي إلى الأكل، قال: كيف يكون ذلك؟ لا بد أن تتعشى. قلت: إني في حاجة إلى أي فندق أبيت فيه، قال: سأتلفن لك الآن ليحجزوا لك غرفة في الفندق، ثم قال: إن عمتي قد أحضرت لك عشاء، فهل عندك مانع أن نذهب إلى بيتها جميعا فهي ترغب في رؤيتك لما حدثتها عنك؟ قلت : لا مانع عندي.

وهكذا ذهبنا إلى السيدة فلملاّ بولي، وهذا هو اسمها، وهي سيدة كهلة مرحة، ضحوك السن، خفيفة الروح، تكلمني الإيطالية كأنني أعرفها، وأجيبها بالفرنسية فتفهم كثيرا مما أقول دون أن تعرف الفرنسية، وقالت لي معتذرة: لا تؤاخذني إن لم أعرف الفرنسية، فإني أفهم بعضها فقط. قلت: أبدا إن الفرنسية لا يضر بأحد جهلها، وإن اللغة الإيطالية أكثر موسيقية منها ، فضحكت مسرورة من جوابي. وقالت: إنك مهذب جداً. وحين دخلنا البيت كان التلفزيون يعمل في الحجرة فأطفأته لتستقبلني فرحبوا بي جميعا ثم أخذت تحضر العشاء، وقالت لي: ألا تحب أن تغسل يديك؟ فغسلت يدي، ويظهر من بيتها ومتاعه وثرياته أنها على جانب من الفن وأنها ربما كانت أرملة أو عانسا لا أدري، ولكنها تمتاز بطلعة بسّامة جذّابة فأكلت في الأول شوربة مع الخبز، ثم أحضر لي صديقي ـــ وكان يعاون عمته ـــ طبقا من اللحم، فأكلت قليلا منه، ولم أشأ أن أكثر. ثم قدمت لي سلطة لذيذة الطعم جدا، قلت لها: إن هذه السلطة تشبه ما يعمل في مصر ففرحت كثيرا ثم قدم لي طبقاً من سلاطة الخس فأكلته هنيئا مريئا.

ثم استأذنوني أن يواصلوا عرض التلفزيون فأذنت لهم. فعرض قصة لكاتب إيطالي مشهور نال جائزة نوبل قبل سنوات. وبعد قليل قام صديقي ولبس معطفه، وكذلك فعل أخوه، وأحضر لي معطفي إيذانا بالقيام. فنهضت وودعتنا السيدة المضيفة إلى الباب، فمشينا في الطريق الذي يسوده الظلام حيث قد أوى الناس إلى مضاجعهم في وقت مبكر. وكان أخو صديقي يتأفف من هذه الحال، وحدثني طويلا عن إيطاليا وعن الظلم الواقع عليها وعن نظامها الرجعي العتيق إذ يحكم الحزب

الديمقراطي المسيحي المستند إلى الفاتيكان، وأن الديموقراطية اسم على غير مسمى في إيطاليا لأن الفقراء وحدهم هم الذين يدفعون الرسوم والضرائب ويعفى منها الأغنياء الحقيقيون. وكذلك شاركه صديقي رأيه هذا، وأخذا يشرحان لي أن ما أراه من التقدم الصناعي إنما هو مقصور على شمال إيطاليا أما الجنوب فأهله كسالى لا يجيدون غير الضرب على القيثار، وأنهم عالة على أهل الشمال فهم الذين يدفعون الضرائب للحكومة بل إن هناك ضريبة تدعى معونة أهل الجنوب يدفعها أهل الشمال الجادون ، وقد لحظت على صديقي أنه ليس على ما عهدته فيه من المرح والانطلاق كما كان في جرونبل ، وسألته: هل ذهب مرة أخرى إلى فرنسا؟ فأجاب بالنفي. وسألني عن الأصدقاء المصريين الذين كانوا في جرونوبل؟ فقلت له: إنهم بخير، وإني لا أراهم في مصر إلا قليلا.

إلى أن بلغنا مقهى في الحي الآهل بالحركة فدخلنا، وحدثني صديقي وهو في بيت عمته أنه يعمل الآن ليجوز امتحانا بموجبه يمكنه أن يستغني عن عمل الحكومة في التدريس لأنه يحلم أن يتمكن من تعليم الإيطالية في الخارج فقلت له: إذن لماذا لا تجيء إلى مصر لتعليم اللغة الإيطالية بها؟ فإننا بعد الثورة قد أصبحنا لا نقتصر على اللغتين الإنجليزية والفرنسية بل تدرس في المدارس الثانوية إلى جانبهما اللغة الإيطالية والألمانية والروسية في فصول مختلفة. قال لي: يسرني ذلك ولكن كيف يمكن ذلك وأنا أجهل اللغة العربية؟ قلت: لا بأس، إن الطريقة المباشرة في تعليم اللغة أجدى على الطلاب. قال

إن حلمي كان أن أدرس اللغة الإيطالية في المدارس الإيطاليــة فــي الخارج لأولاد الطليان. قلت: في هذه الحالة هل يمكنني أن أتصل لك بإحدى المدارس الإيطالية في مصر؟ قال: وماذا تستطيع أن تعمل لــو



علي أحمــد باكثير ـــ في الوســط ـــ رئيس وفد أدباء مصر إلى الاتحاد السوفيتــي ورومانيــا سنة ١٩٥٦م ويظهــر معــه يميــن الصــورة ـــ د.محمــد منــدور ود.شوقــي ضيــف وعن يسار الصورة محمد سعيد العريان وعبدالرحمن الشرقاوي.

آثرت التدريس في مدارسكم الحكومية المصرية؟، قلت : سأنظر لك في ذلك وأخابزهم بأمرك، فإن وجد لك محل خال للعمل كتبت إليك وأرسلت أنت طلب استخدام إلى الوزارة للنظر فيه فشكرني قائلا إنما هو حلم جميل قد يتحقق، ولا يتحقق والواقع أن مسحة الأسى البادية عليه قد أرهقتني ولا أدري ماسببها؟ حتى إني سألته في المقهى هل تعمل كثيرا في المدرسة؟ وهل أنت متعب؟ قال نعم.

ثم خرجنا من المقهى وتوجهنا إلى فندق كبير، فسلمني إلى أهل الفندق، وودعني هو وأخوه بعد أن دعاني للغداء عنده في بيته غدا ولما قلت له: إنني أرغب في زيارة فلورنسا، شجعني على ذلك، وقال: من الخسارة ألا تزورها فهي مدينة عظيمة. قلت له: متى؟ فإن وقتي ضيق. قال غدا بعد أن تتغدى عندنا نوصلك إلى المحطة ثم قال لي: اعذرني فإني لن أراك في الصباح لأني مشغول في مدرستي وتصحيح كراسات الطلبة والطالبات، ولكني سألقاك ساعة الغداء.

وكانت الحجرة التي نزلتها في الفندق واسعة ولكن أرضها بلاط لا خشب، وهي نظيفة وإن كانت أمتعتها على شيء من التواضع. فجلست قليلا أكتب هذه المذكرات، ثم داعب النعاس جفني فصليت وأوترت فأويت إلى فراشي حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ونمت نوما طيبا وصحوت في الساعة السادسة كعادتي فصليت ولكني عدت إلى النوم مرة أخرى، إذ ماذا أصنع بالتبكير في مثل هذه البلدة الصغيرة التي ليس فيها شيء يرى أو يسمع؟ فصحوت مرة أخرى في الساعة التاسعة فحلقت وارتديت ملابسي ونزلت إلى البوفيه، فشربت

شايا فقط بعدما أكلت بضع تينات مما عندي. ثم خرجت وأنزلت الحقيبة الصغيرة التي معي في هذه الرحلة وأودعتها عند الإدارة ودفعت لهم الحساب وهو ثمانمائة وخمسون ليرة أي نحو نصف أجر الفندق في ميلانو

وبالطبع ليس في الفندق نُزل كثيرون، واسمه (الفندق الذهبي)، ولعله أفخم فندق في البلدة. وتركت الفندق وأخذت أتجول في طرقات المدينة حتى بلغت ميدانا يسمى ميدان فرنسيسكو باركا حيث يقوم له تمثال كبير، وكنا قد مررنا في الميدان البارحة مع صديقي وأخيه فحدثاني أن باراكا هذا كان طيارا في الحرب العظمى الأولى، وأنه أسقط كثيرا من الطائرات النمساوية، وقد قتل في إحدى المعارك فهو يعتبر من أبطال هذه البلدة التي ولد فيها. وبهذه المناسبة سألت صديقي: عن معنى البلدة؟ قال: ليس لها معنى اليوم، ولكن لعل الكلمة جاءت من الكلمة اليونانية أو اللاتينية لا أتذكر، فإن صديقي يجيد هاتين اللغتين القديمتين، ثم قال إن هذه النواحي كانت تابعة في العهد الإقطاعي لأمير يدعى Doke j. Eslin.

عود إلى بدء الحديث:

ثم رأيت أن أجعل تجوالي مثمرا فإني لم أعرف بعد الاتجاه الذي يوصل إلى شارع جنتو، فسألت عن اتجاه هذا الشارع، فدلوني عليه، واخترقت شارعا طويلا جدا يخرج من ذلك الميدان الذي أشرت إليه حتى وصلت إلى شارع خيل إليّ أنه الشارع الكبير الذي يؤدي إلى المحطة. فسألت فوجدت حدسي في محله. فتعرفت على شارع

جنتو بهذه الطريقة. وبعد أن تمشيت في الشارع والطرق المؤدية إليه وثبّتها في ذهني رجعت إلى الفندق، وكانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة، وكنت قد سألت صاحب الفندق عن مواعيد القطار المسافر إلى بولونيا فعرفني بعض المواعيد، فرأيت أنسبها الساعة الثانية وأربعين دقيقة، فرأيت أن أتلفن لصديقي قبل ميعاد الحضور فكلمني وحياني وسألني عن ليلتي البارحة فحمدت الله، وقال: تعال إلى البيت الآن، وإن شق عليك حضرت لأهديك الطريق قلت: إني سأهتدي إليه بسهولة ولم أخبره أنني قد بذلت جهودا جبارة للاهتداء إليه من قبل أن أتصل به بالتليفون، قال على الرحب والسعة وفهمت من حديث التليفون أن صديقي مشغول جدا بإعداد امتحانه وبتصحيح كراسات تلاميذه، ويظهر أنني جئت في وقت غير مناسب وإلا لأعطاني من نفسه ووقته أكثر مما أعطاني، والله أعلم بالحال. وحملت الحقيبة فمشيت في نفس الطريق الذي سلكته من قبل حتى لا أضل وبين حين وآخر يتلفت إليّ رجل وامرأته أو صبي كأنهم يتساءلون عن هذا الرجل الغريب الذي قدم هذه البلدة الصغيرة وعما جاء به؟ ولكنهم جميعا كانوا مؤدبين، ولم أر من أحدهم ما يسوء وكنت كلما سألت أحدا سؤالا عن الطريق تطوع بهدايتي إليه جهد ما يستطيع بكلماته الإيطالية التي لا أفهم كثيرا منها وبحركات يديه.

وصلت إلى بيت صاحبي، فنزل إلى أسفل السلم يستقبلني كعادته باسما في لطف ودون تكلفة، ثم دخلت البيت فاستقبلتني والدته. أما أخوه ريكاردو فلم يحضر بعد، وأخذت السيدة الوالدة تتلطف معي

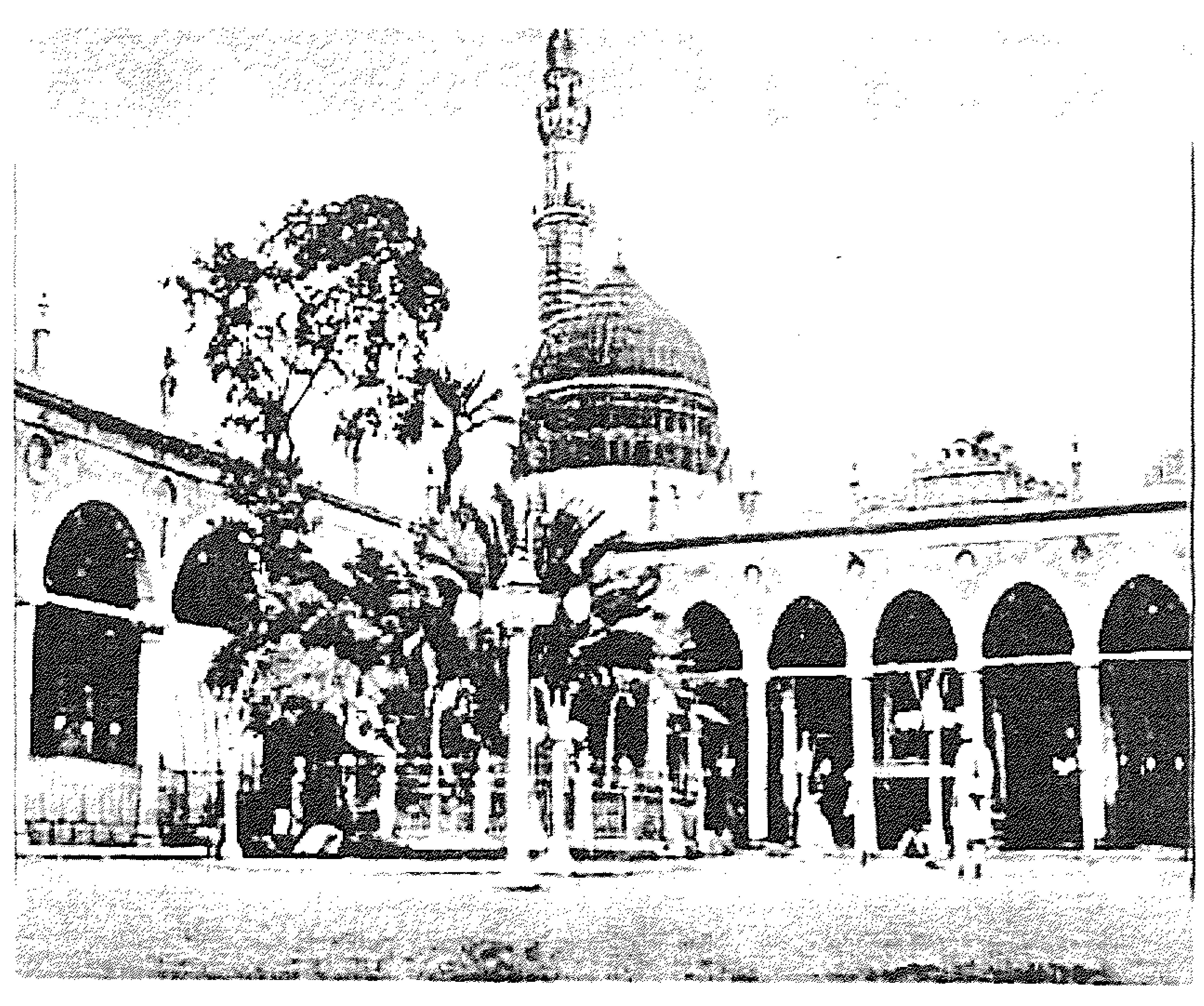
وتريني مجلة مصورة جميلة. وفيها خبر موت تايرون بـاور الممثـل الأمريكي المشهور ولم أسمع بهذا الخبر من قبل، وأخذت تفسر لي أنه مات وهو يمثل مع ممثلتنا جينا لولوبريجدا وهي تتحدث عنهما بشيء من الفخر، وقد وجدت المائدة منصوبة واعتـذر صـاحبي فقـال : لا تؤاخذنا فسننتظر حتى يحضر أخي قلت ذلك أحسن فأنا لم أجع بعـد. وبعد قليل حضر ريكاردو، فحياني بشوق، ثم قدمت لـصديقي هديـة صغيرة مما ابتعته بتشيكوسلوفاكيا ففرح بها، وإن قال : لا ينبغـي أن تكلف نفسك ، قلت : هذه هدية رمزية لا قيمة لها، ولكنها على سـبيل التذكار. وطلبت منه صورة له ولأخيه ووالدتهم فاعتذر بعـدم وجـود صورة لهم. وقد لاحظت أن أثر الدين قوي جدا في هؤلاء الإيطاليين، وأنه يستغرق تفكيرهم، ويسود كل شأن في شقتهم.

وبدأنا المائدة فاقترحوا علي أن أغسل يدي، فعجبت من هـذه العادة الجميلة التي كدت أنساها منذ تركت مصر. ومن يدري لعلهـا بقية من العادات العربية التي تسربت إليهم من صقلية! وأكلنا أولا طبقا من المكرونة شهيا جدا لم أذق أشهى منه، فلما أعربت عـن إعجـابي هذا، قالوا لي: إن هذه المكرونة مجهّزة في البيت وفيها بيض، وماما هي التي صنعتها بيدها فجاملت الأم بكلمات طيبة، وبعد ذلك قُدّم لـي طبق من لحم الدجاج وكان جيد الطهي فأكلت ما يتيسر لي وفضل في طبقي ما فضل لأن صاحبي قطع لي قطعتين كبيرتين، إحـداهما مـن الصدر، والأخرى من الورك وألقى على لحم الدجاج سـلطة الخـس اللذيذة.

حديث عن الإسلام والرسول ﷺ:

وفي خلال الطعام دار حديث في شؤون شتى أكثرها متـصل بالدين والمقارنة بين الدين الإسلامي والدين المسيحي. وقد جعلت أذكر لهم من خصائص الدين الإسلامي دون أن أبدي أي تعصب أو تحزب كثير. فتحدثنا قليلا عن سورة مريم، وكيف أنها تعتبر من أبلغ ما كتب عن مريم العذراء، وأجملت في الأدب كله، وأننا نرتل هـذه الـسورة ترتيلا في الصباح والمساء فلا نملها أبدا لما فيها من الـصور الحيـة الإنسانية، وحدثتهم: كيف أن القرآن ينكر أن عيسى عليه السلام ابـن الله، ولكنه يقرر أنه ولد بغير أب ليظهر الله بذلك آية من آياته أن يولد المولود من أمه دون حاجة إلى واسطة رجل. وقلت لهـم: إن علـى المسلمين بأمر دينهم أن يعرفوا المسيح ويعتقدوا برسـالته وبمعجزتـه وأن الذي ينكر ذلك كافر، وأن محمد ﷺ كان يصف عيـسى فيقـول عنه: الخارج من ديماس، أي من الحمام، كناية عن نظافتـه وإشـراق وجهه. ففرحوا كثيرا من حديثي ، ثم سألوني عن الصلاة في الإسلام، وعن الصيام فحدثتهم عن ذلك بالتفصيل وسألوني عن الأعياد فقلت لهم لدينا عيدان دينيان فقط هما عيد الفطر وعيد الأضحى. وشرحت لهـم معنى عيد الأضحى ففرحوا وسروا وأخذوا كل مرة يترجمون لأمهـم التي لا تعرف الفرنسية، فكانت تعجب وتسر كأنها لا تصدق أبـدا أن محمدا ﷺ الذي لابد أنها سمعت عنه الكثير من القـسس والمبـشرين يكون بهذه الدرجة من السمو العقلي والروحي والنزاهة والإنصاف.

وسألوني عن تعدد الزوجات. فقلت: إن الإسلام يشترط لجواز ذلك أن يكون الرجل قادرا على الإنفاق السخي على زوجاتـــه كلهــن بالتساوي والعدل. وقلت: إن الإسلام أباحه ولكنه لم يندب إليـــه وقــد أباحه لأن المجتمع قد يحتاج إليه في بعض الظروف كما يحدث بعــد الحروب الطاحنة التي يقتل فيها الرجال، وتبقى النساء بدون أزواج ولا عائلة. فمن الخير والبر حينئذ أن يكون للرجل أكثر من امرأة واحــدة ليعولهن فيعود بذلك المجتمع إلى حالته الطبيعية، وإن ذلك لخير من أن تضطر النساء إلى الزنا والمخاللة فلا تكون لهن قبل الرجــل حقــوق.



وقلت لهم ما قاله نبينا ﷺ في عيسى عليه السلام ففرحوا

أما الزواج فإنه يُنيط بالرجل كافة الحقوق التي تترتب على أي زواج آخر ، وبذلك تحفظ حقوق الأولاد في ميراث آبائهم، ولا ينكب المجتمع بأولاد الشوارع المتشردين، ثم قلت لهم: أما المعمول به اليوم في مصر مثلا فالاقتصار على الزوجة الواحدة، ولعلها كافية بل لعلها أكثر من كافية فضحكوا موافقين. ثم قلت: لا تزال هذه العادة عند بعض العمال والفلاحين، ولذلك سبب اقتصادي هو أن الفلاح يريد أن يكثر من الأيدي التي تعمل في حقله فيتزوج اثنتين بدلا من واحدة لتكونا أفعل في خدمته.

وهنا استطردت استطرادا إلى ذكر النبي محمد ﷺ قلت : كان لمحمد ﷺ نفسه زوجات عديدات فتهللوا موافقين، قلت: ولكنه ما كان يختار الفتيات بل المسنات والكهلات لأن غرضه الأكبر من ذلك الزواج المتعدد هو أن يصل حبله بحبال قبائل العرب حتى يتمكن من توحيدهم وجمعهم على كلمة الإسلام، فقالوا: هذا عجيب لم نسمع به من قبل. ثم قالوا: إنه حقا لرجل عظيم وقوي الذكاء. وسألوني عن السنة الهجرية، فشرحت لهم أمرها، وقلت لهم: إن الإسلام لم يؤرخ بولادة محمد أو وفاته لأن الدين لله لا لمحمد ﷺ بل أرخ بحادثة لها أثرها الأكبر في ظهور الإسلام وانتشاره وهي حادث هجرة محمد من مكة لمّا آذاه أهلها إلى المدينة فأعجبهم هذا التأريخ، ولكنهم قالوا ولكن العالم كله يؤرخ بميلاد المسيح، قلت: ونحن أيضا نؤرخ به كبقية سكان العالم في جميع أعمالنا الرسمية، ولكنا نحفظ مع ذلك تاريخ هجرتنا ونُقرّه.

ثم سألوني عن الجنة والنار، وعن الحياة الأخرى في الإسلام. فشرحت لهم ذلك. فقالوا: هل الحياة الأخرى فيها المتع واللذات الحسية كحياة الأرض تماما؟ هذا ما نسمعه عن جنة الإسلام. قلت: نعم، إن في الجنة متعا لا يمكن وصفها بغير ما يعرف الناس من متع الحياة الدنيا، ولكنها تختلف عنها في الواقع اختلافا كبيرا فهي أعلى وأرقى منها ، وهي سعادة، ولكن لا يعقبها تنغص أو شقاء، انظروا مثلا إلى الخمر فهي موجودة في الجنة، ولكن ليس لها ما للخمر من صداع وضرر وفقدان صواب... إلخ، وقالوا: معقبين: ولكن اللذات التي في الجنة عندنا معنوية روحية وليست جسدية، قلت في ذلك العالم الآخر يصعب التفرقة بين الروح والجسد بل إن بعض الفلاسفة لا يفرق بينهما في هذه الحياة، فما بالك بتلك الحياة القائمة على الروح بالطبع، ثم سألوني عن النساء في الجنة؟ فقلت: نعم توجد الحور العين وهن لسن من نساء الأرض بل يُخلقن خصيصا لأهل الجنة. فقال صاحبي: والنساء أليس لهن أن يستمتعن بشباب مثل ما يستمتع الرجال بالفتيات الحور؟ قلت نعم ، لقد ذكر القرآن الولدان، وهم الفتيان فقال صاحبي إذن فقد عدل بين الرجال والنساء. ثم ختمت الحديث في هذا بأن أشرت إلى أن عندنا جماعة من المتصوفين يعتقدون أن هذه المتع رمزية نسبة إلى معان أخرى غير الملذات الجسدية.

ثم قال صاحبي مشيرا إلى ما يقوله القرآن عن عيسى عليه السلام إنه ليس ابن الله، لقد كان يوجد في الإسكندرية مدرسة مسيحية تقول تماما مثل هذا القول: أن عيسى عليه السلام ليس ابن الله، ثم أخذ

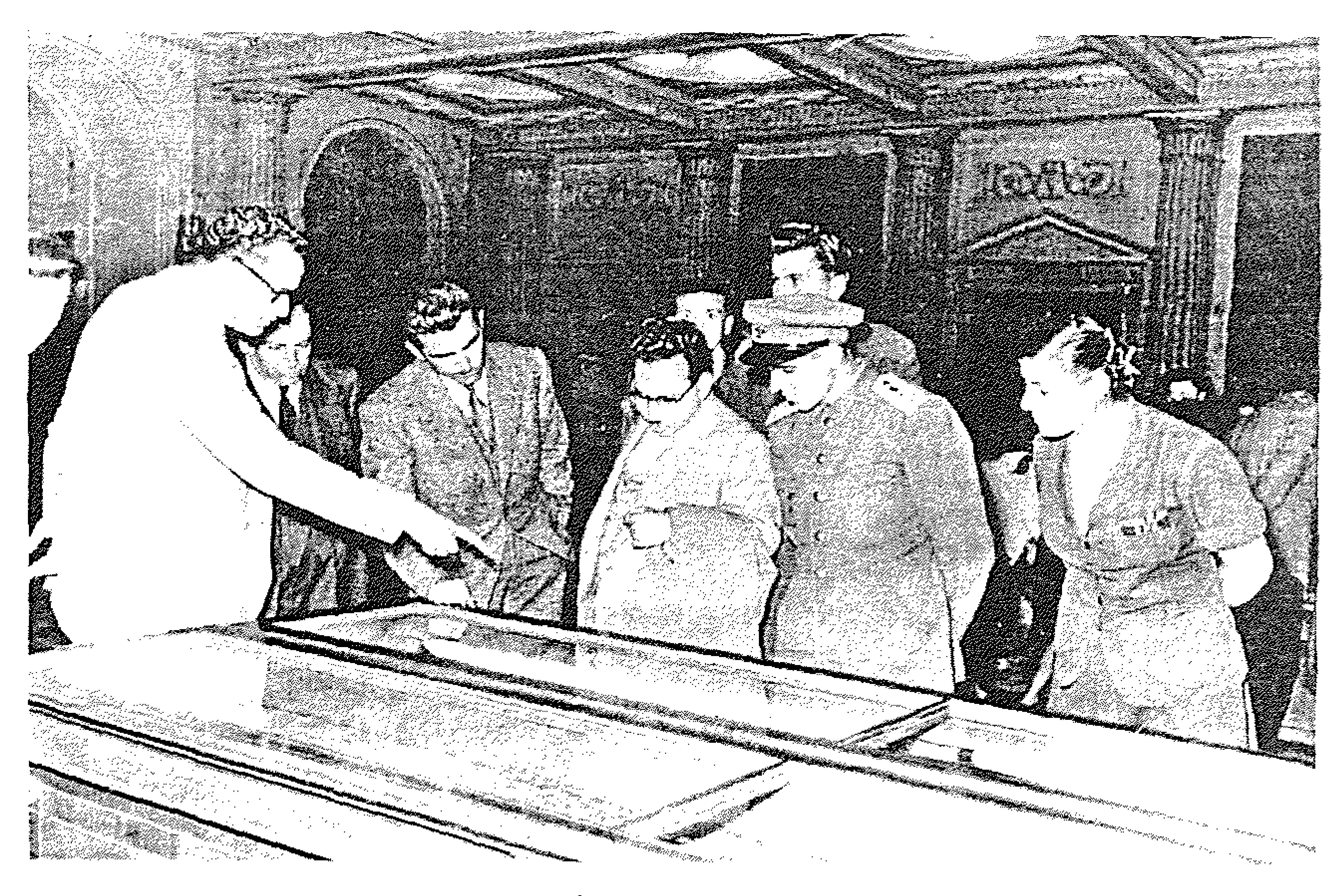
يورد أمثلة من الديانات القديمة عند اليونان واللاتين تشبه أسطورة المسيح هذه، وهنا قلت: من العجيب أن القرآن أشار إلى هذا المعنى إذ قال: يضاهئون قول الذين كفروا من قبل.

ومن الأمور التي حرصت على ذكرها لهم أن الإسلام ليس فيه كهنوت ولا رجال دين كما هو موجود في الديانة المسيحية، وما هؤلاء الذين يدرسون الدين بتوسع إلا ليفتوا الناس بما في دينهم دون أن يكون له حق الهيمنة على شؤون الناس.

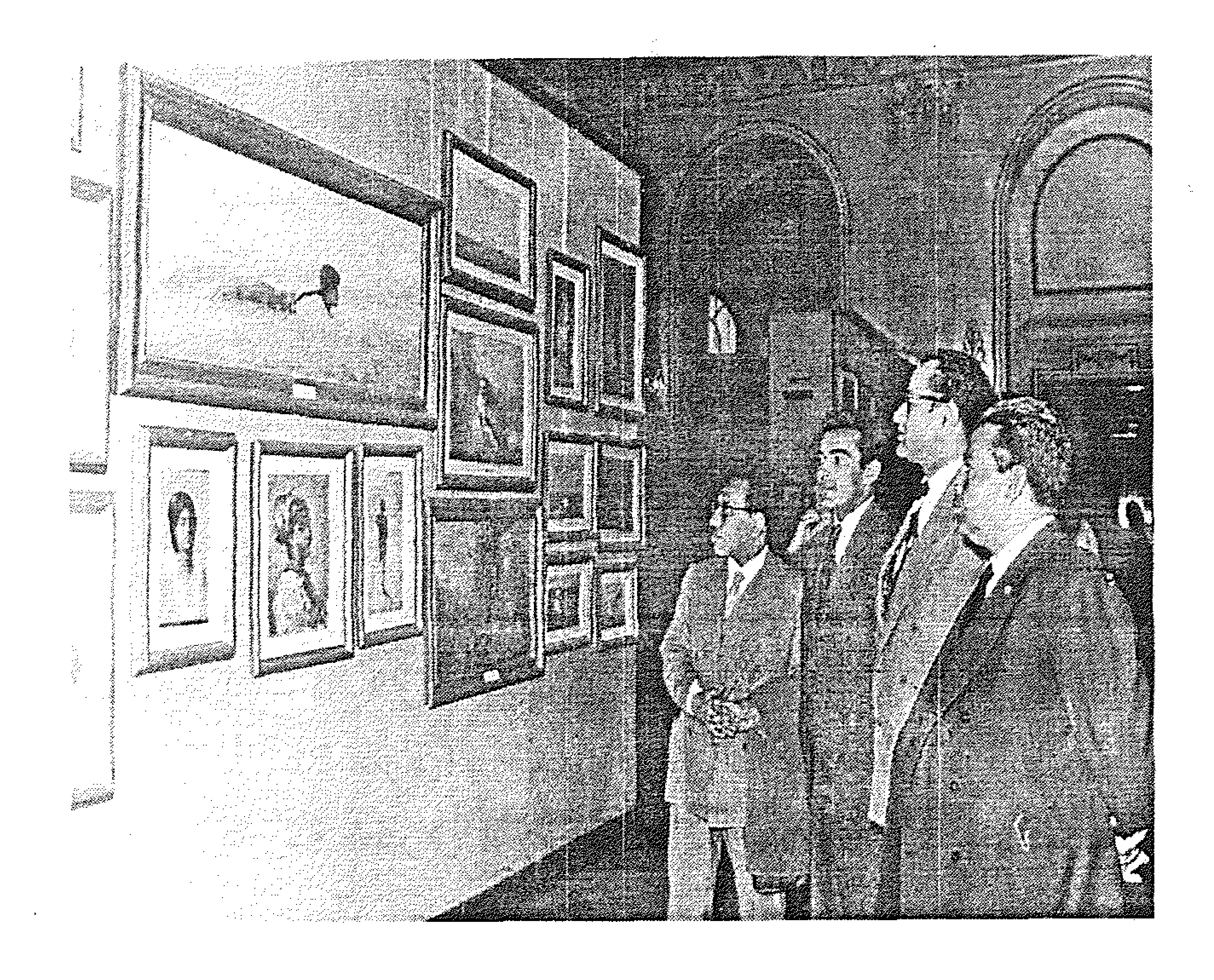
وحضر الوقت فخرجنا نحن الثلاثة جميعا وإذا الأخوان يريدان أن يقوما برحلة صغيرة إلى أختهما الكبرى المتزوجة، ولها أولاد في بلدة مجاورة فقطعنا انتظار القطار الذي سأستقله إلى بولونيا. وحاولت أن أعفيهما من الوقوف معي في المطر، فقالوا: يستحيل أن نتركك والقطار على كل حال قادم عما قريب وأقبل القطار فأحسست بألم شديد لفراق هؤلاء الأصدقاء الطيبين فصافحتهما مودعا وركبت قطاري. وأقبل قطارهما أيضا، فركباه والقطاران يتقابلان. فاستطعنا مدة أن يرى بعضنا بعضا من شباك القطار ونحن نلوح بأيدينا ومناديلنا ثم تحرك القطار فزدنا من تحريك مناديلنا إلى أن غابا عن نظري.

ووصلت بولونيا بعد حوالي ساعة فأسرعت أبحث عن القطار الذاهب إلى ميلانو خشية أن يفوتني كما فعل في الذهاب، فاضطررت إلى الانتظار ساعة ونصف الساعة في المحطة ومن حسن الحظ وجدت القطار سيتحرك بعد عشرين دقيقة فقلت الحمد لله هناك وقت

طويل. ثم تحرك القطار وكان معنا في المقصورة رجل عجوز سألته عن ميعاد وصول القطار إلى ميلانو لأني وجدت بيديه دليلا عاما فقال لي بتأفف. خذ الدليل، وابحث عنه بنفسك، فعجبت من خشونته ولكن تبين لي وللجالسين معنا أنه رجل منكوب، إذ وصلته برقية اليوم بوفاة ابنته البالغة ٢٢ سنة في حادث ترام، وقال بصوت متهدج : اعذرني ياسيدي إذ لم أستطع أن أثبت عيني في هذا الدليل، فقلت: سبحان الله لا ينبغي لأحد أن يتسرع بالحكم على الأشياء، أو الرجال حتى يَخْبُرَها أو يَخبرهم أولا، ووصلنا ميلانو في تمام الساعة السابعة فكانت المدة التي استغرقها السفر من بولونيا إلى ميلانو حوالي ثلاث ساعات أو ثلاث ساعات إلا ربعا.



باكثير والشرقاوي والعريان في زيارة أحد متاحف الفن في موسكو



وركبت الترام رقم ١ فأوصلني إلى قريب من شارع تورينو، وبدا في تلك اللحظة وأنا أسير وحقيبتى معي أن أقيم الليلة أيضا في غير الفندق الذي أقيم فيه، وذلك لأتمكن من الاقتصاد من نفقاتي فقد علمت من قبل أن هذا الفندق يؤجر الحجرة بـ ١٣٠٠ أو ١٤٠٠ لا أتذكر، ولكني لما سألت الإدارة اعتذرت بعدم وجود حجرة بسرير واحد فقررت أن أعود إلى فندقي دون تفكير في الاقتصاد من أجل هذا المبلغ الضئيل، وحاول صاحب الفندق أن يحمل عنى لي الحقائب الأخرى الثلاث، ولكنه لم يستطع لأن البواب مسافر في هذين اليومين،

ولعل الحقائب مُقفلة عليها عنده في أمانته، فقلت للقيم : لا بأس ياسيدي لا داعي لإحضارها الآن، ولا بأس من تأجيل ذلك إلى الغد.

وأخذت أتجول قليلا أروح عن نفسي، ولكن المطر نزل بغزارة، فقلت: خير لي أن أشرب فنجانا من الكاكاو في هذا المقهى، ثم رجعت إلى الفندق، وكتبت هذه المذكرات، ثم صليت، وأويت إلى سريري فنمت.

متثقفان من البحرين:

يوم الاثنين ٢٤ من نوفمبر ١٩٥٨م بعد الفطور تلقيت مكالمة تليفونية من الأستاذ كارلو، فأعطاني موعدا الساعة الثالثة لكي يحضر، ويجمعني بالأستاذ هنري أو الخبير الأدبي لم أتثبت من ذلك. ورأيت أن أتصل بشركة الطيران لتمديد موعد سفري فاتصلت بـ K.L.M فأخبروني أن الطائرة ستسافر من روما في يوم الأربعاء ١١/٢٦ في الساعة ٢٢,٤٥ أي الحادية عشرة إلا ربعا، وتصل إلى القاهرة في الخامسة صباحا وأن عليّ أن أسافر من ميلانو في الساعة التاسعة عشرة، أي السابعة بعد الظهر، واتصلت بشركة إيطاليا لتحديد موعد السفر من ميلانو إلى روما، فأشار عليّ بالرجوع بعد الظهر حتى يتمكن من تهيئة الأمر.

وبينما كنت واقفا في هذه الشركة إذ دخل رجلان عليهما سيماء العروبة، فانتظرت حتى تحدث أحدهما إلى الآخر فإذا هي بالعربية فسلمت عليهما، وتبين أنهما من البحرين، وأحدهما الأستاذ أحمد محمود الجابر والآخر الأستاذ علي عبد الرحمن الوزان، وقد قاما

بجولة طويلة في بلاد مختلفة في أوروبا وينويان السفر إلى روما يوم الأربعاء أيضا، ودعواني إلى احتساء القهوة، فجلسنا في مقهى قريب وذلك بعد أن كتبت لهما اسمي وعنواني بالقاهرة، فقالا مدهوشين : أنت إذن علي أحمد باكثير، إذن علينا أن نسلم عليك مرة أخرى. وجلسنا في المقهى فتحدثنا في شؤون شتى بعضها يتصل بالبلاد العربية وبعضها يتصل بالبلاد التي زاراها أو زرتها أنا في أوروبا، وتمنيا لو علما أنني جئت من موسكو لو أمكنهما الذهاب إليها فقلت لهما: بعد سنة أو سنتين سيكون في وسعكما زيارة موسكو وغيرها فضحكا وأشادا بأسبانيا وجمالها وملاءمتها لزيارة العرب. وكذلك شكرا بلاد المغرب، أما تونس فقالا: إنهما زهدا في زيارتها بعد حادثة أبو رقيبة[1]. وتوقعا سقوطه من الحكم عما قريب، وحدثاني عن البحرين فقالا: إنها تعتبر النقطة الحساسة في بلاد الخليج، فالثورة ضد الاستعمار التي قامت فيها منذ قريب كانت هي الشرارة التي أوقدت الثورات في عُمان ومُسقط، وكذلك فإن الإنجليز يشتدون في الضغط عليها لإرهاب الباقين، بينما ليست كذلك الكويت فإن الحكم الداخلي كله متروك لأهلها ولما سألت عن السبب في الاختلاف في معاملة البلدين ذكرا لي السبب الأول لأن البحرين كانت أول ما احتلها الإنجليز قبل الكويت فهي التي تحملت الضربة الأولى وكانت شديدة بالطبع في عنفوانها.

(١) الحبيب أبو رقيبة: (١٩٠٣- ٢٠٠٠م) قاد الجهاد التونسي ضد المستعمر الفرنسي حتى تحقق الاستقلال سنة ١٩٥٦م وأعلنت الجمهورية سنة ١٩٥٧م.

ووجدت لديهما وعيا قوميا عربيا في غاية القوة حتى كان رأي الأستاذ الوزان في مسألة عبد السلام عارف[1] أنه على حق وأنه يدين بمذهب حزب البعث، وأن هذا الرأي سينتصر. فقلت له: ربما يكون تأجيل الوحدة مع مصر في الظروف الحاضرة أنسب حتى تستقر أمور الثورة أولاً في العراق، ثم تصير الوحدة بالتدريج. المهم هو التنسيق الكامل الذي يتم بين مصر والعراق فجمال عبدالناصر كان سعيداً بوصول عبدالسلام عارف إلى السلطة وقد تنفس الصعداء بعد زوال حكم عبدالكريم قاسم الذي سحل القوميين ونكّل بهم. فقالا: هذا صحيح لكن الظرف الآن أنسب الظروف لتحقيق الوحدة وإن لم تحقق الآن نخشى أن لا تتحق بعد ذلك.

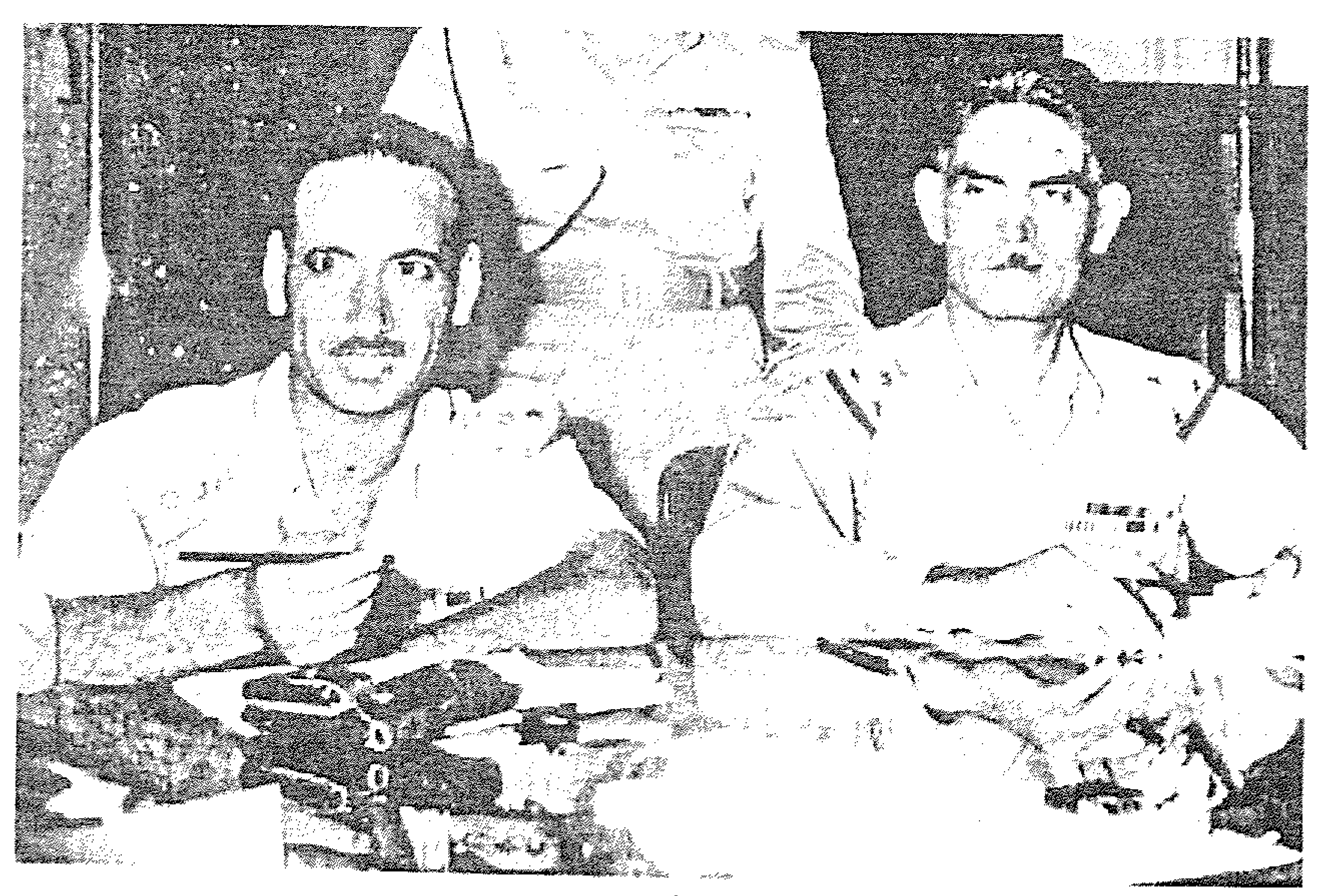
وقالا لي: إن الدول الاستعمارية اضطرت إلى الاعتراف بحكومة العراق الجديدة كأمر واقع في وقت قريب، وكذلك اعترفوا بانقلاب السودان، فكل ما يقع من التنظيمات والثورات اليوم يعترف بها في الحال كأمر واقع ولكن لا نضمن أن يستمر هذا الحال، فربما يتغير الوضع في المستقبل فيكون من الصعب على العراق فعلا أن ينفذ الوحدة كأن يرتبط بمعاهدات واتفاقات مع دول أجنبية... إلخ.

هذا قليل من الوعي القومي الموجود لدى هذين السيدين في البحرين، والواقع أن ذلك يبشر بخير كبير، ونهضت من المقهى فدعواني إلى تناول الغداء معهما في مطعم عرفاه يدعى Papido

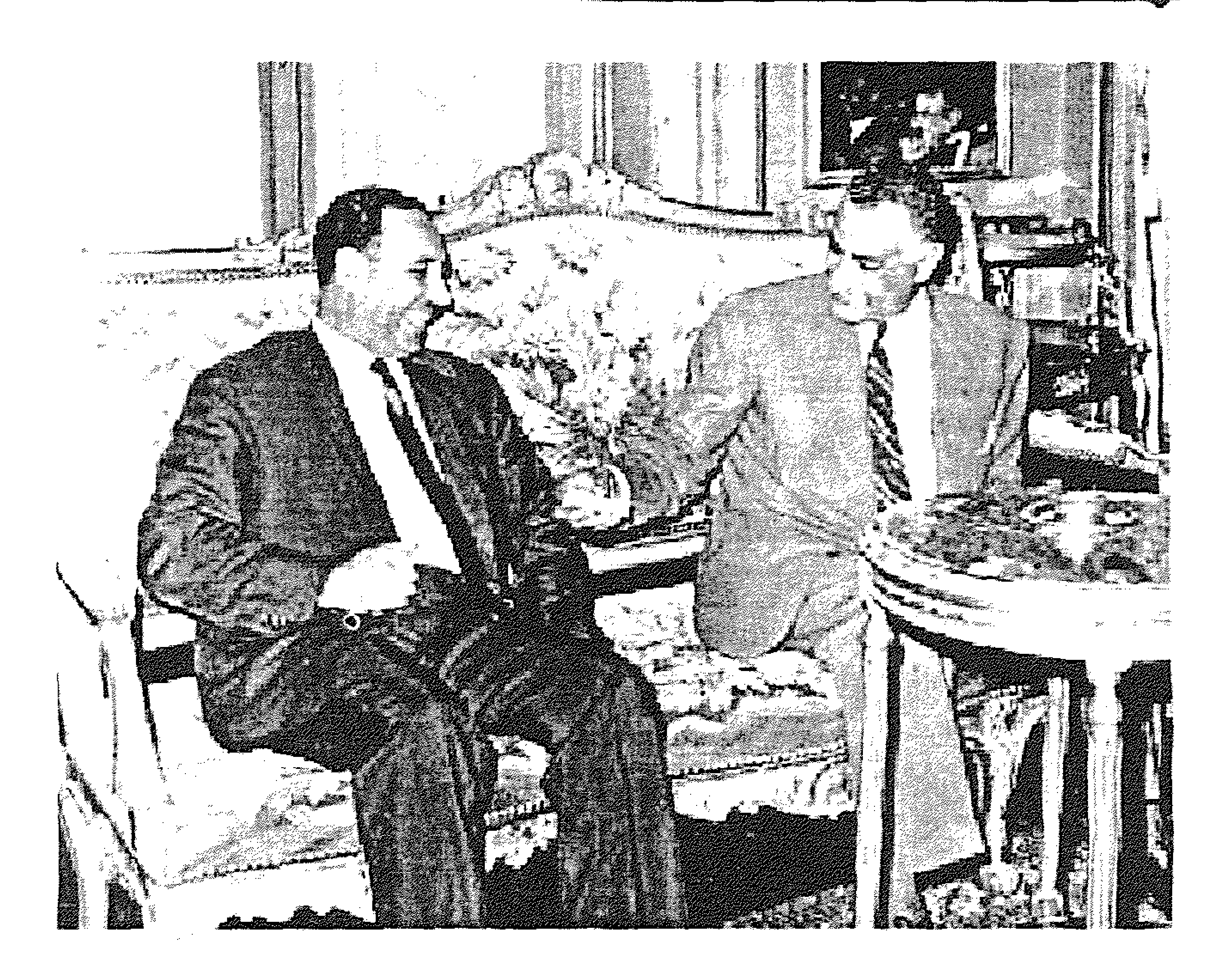
---

(١) عبدالسلام محمد عارف: (١٩١٧ـ ١٩٦٦م) أسهم مع عبدالكريم قاسم في ثورة ١٤ من يوليو ١٩٥٨م، واختلف معه فأبعد عن منصبه وحكم عليه بالسجن، وحينما نجحت ثورة الجيش في ١٤ من فبراير ١٩٦٣م أصبح رئيساً للجمهورية.

فاعتذرت في أول الأمر حتى لا أثقل عليهما ولكنهما ألحا عليّ ولم يقبلا لي أي عذر. قلت: أنا على موعد مع أحد الإيطاليين في الساعة الثالثة. قالا: لا يزال على الموعد وقت كاف، فنحن الآن في الساعة الثانية إلا ربعا فما وسعني إلا أن أذهب معهما إلى ذلك المطعم الفخم الذي تجنبت أمثاله من زمن بعيد نظرا لقلة النقود، فما كنت أغشى إلا المطاعم المتواضعة، وأكلنا شربة خضار وسُتيك من لحم العجل وسلطة خس وفاكهة. فحمدت الله إذ ساق إليّ هذين العربيين الكريمين، وأنا أحوج ما أكون إلى رفقة أمثالهما.



كان جمال عبدالناصر سعيداً بوصول عبدالسلام عارف إلى السلطة وقد تنفس الصعداء بعد زوال حكم عبدالكريم قاسم الذي سحل القوميين ونكل بهم



ونهضت من الفندق في حوالي الساعة الثالثة إلا ربعا فأسرعت إلى الفندق، وقطعت الشارع الطويل شارع تورينو في دقائق معـــدودة، وأنا أهرول خشية أن يتصل الأستاذ كارلو بالتليفون فلا يجدني. ومـــن حسن الحظ أنه تأخر في مكالمته حتى عن موعده في الثالثة إذ كلمنـــي في الساعة الثالثة والنصف فاعتذر عن تأخره عن موعـــده قـــائلا: إن الأستاذ هنري اتصل بي وهو يأسف لاضطراره إلى التأخر اليوم فـــي لوجانو بسويسرا، وأنه لن يتمكن من الاتصال بي إلا غدا في الـــصباح فقلت: لا بأس. قال أما أنا فإني سأتصل بك في الساعة الخامسة اليوم، موافق؟ قلت: موافق.

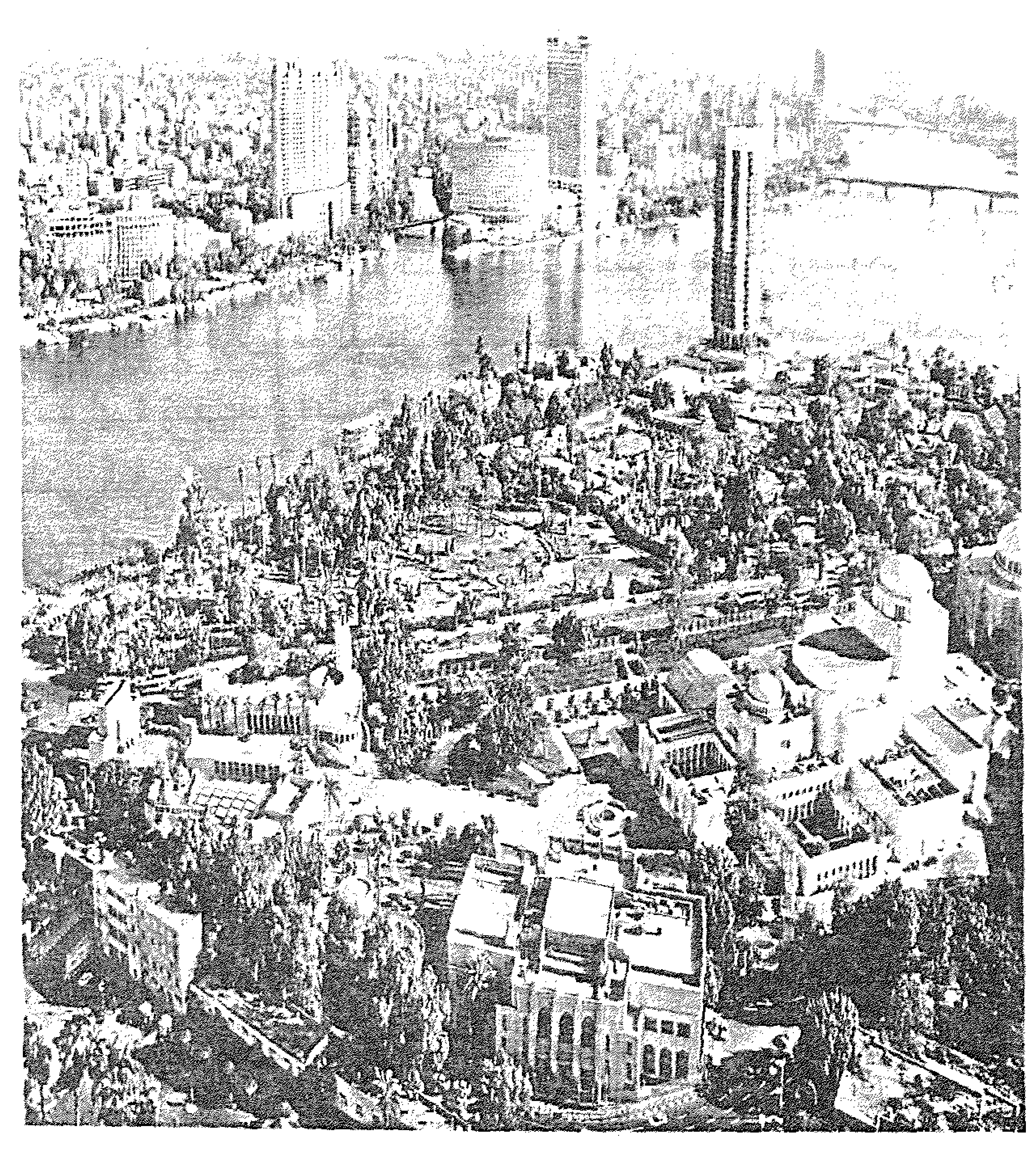
وفي الساعة الخامسة حضر، وأهديته عصا من موسكو ففرح بها، كما قدمت له علبة صغيرة من موسكو أيضا ليحملها إلى صديقه الأستاذ هنري كتذكار للقائنا الجميل وقلت له: ليس عندي ما أهديه لكم إلا هذا القليل الذي لا يذكر. وفي المقهى القريب جلسنا قليلا حيث سلمني مبلغ خمسة آلاف ليرة كسلفة. وذكر لي أنه على موعد مع حبيبته الجميلة التي عرفها من زمن طويل وهو يلقاها وهي تعمل مانيكان وأبوها غني ، وقد عرضت عليه الزواج فعندها دوقة كبيرة ولكنه قال لها : لا أرغب في الزواج ولا تطمعي فيه فإني لا أفكر فيه الآن. فقلت له: إذن انطلق إليها واتركني لأذهب إلى شركة الطيران، فقد طلبت مني أن أعود بعد الظهر وتواعدنا.

لم تعطني شركة الطيران تأكيدا بحجز مكان لي يوم الأربعاء في KLM وقالت لي: عليك أن تنتظر في الفندق حتى نكلمك بالتليفون لنجزم بالنتيجة، فأشفقت ألا أجد محلا فأتأخر أكثر مما تأخرت، ونمت بعد أن صليت وأنا يساورنى القلق.

العـــودة إلى الوطـــن

يوم الثلاثاء ٢٥ من نوفمبر١٩٥٨م استيقظت مبكرا وصـــليت الفجر، ثم هممت أن أغتسل ولكني آثرت تأجيل الاستحمام إلى الليـــل حتى لا أتعرض لأخطار البرد، وكانت قد جاءتني مكالمة تليفونية من الشركة تدعوني للحضور فوراً، فانطلقت إليها تواً، وبعد أن كان الرد بالقبول فرحت كثيرا وازداد شوقي إلى الوطن، إذ سنغادر ميلانو غدا إن شاء الله في الساعة السابعة حيث نصل إلى رومـــا بـــإذن الله فـــي الثامنة أو بعدها تعليل، وننتظر في مطار روما حتى الساعة الحاديـــة عشرة إلا ربعا فنطير من روما صوب القاهرة حيث نصلها بحول الله وقدرته فـــي الـــساعة الخامـــسة مـــن صـــباح الخمـــيس ٢٧ مـــن نوفمبر١٩٥٨م، رزقنا الله السلامة وحسن المنقلب.

وأسرعت بالرجوع إلى الفندق انتظارا لموعد الأستاذ كـــارلو فوجدته اتصل بى بالتليفون قبل وصولي ببضع دقائق، فانتظرت فـــي الحجرة قليلا حتى اتصل بى للمرة الثانية، فإذا هو يقـــول: يجـــب أن أقابلك في الحال لأني مسافر الساعة الواحدة إلى هولندا، قلت: ســـفرا مفاجئا هكذا؟ قال: نعم، وتواعدنا على اللقاء في المقهى القريـــب مـــن الفندق، فأخبرني أن الأستاذ هنري يعتذر آسفا لعدم استطاعته الوفـــاء بوعده في مقابلتي اليوم لأنه الآن في هولندا وقد طار إليها مـــسرعا إذ فوجئ بهبوط في البورصـــة كبير فاضطر إلى السفر مع عشرين من



تطهرت من أدران تلك البلاد استعدادا للنزول في القاهرة
أرض الوطن الطاهرة..

من مستشاريه في الحال، وهو يهديني التحيات. ثم قال: إنه كلفني أن أبشرك بشيء ستفرح له هو أننا مسافرون إلى مصر في منتصف ديسمبر القادم، حيث قرر الأستاذ أن يفتح مكتبا هناك أو شيئا كهذا. فقلت له: هذا والله يسرني جداً، ولعلك قادم معه؟ قال: نعم، سأكون معه. فالأصوب الآن أن تعد الكتب التي تراها مناسبة لتسليمها إليه وهو في مصر. ورأيت أن أذكره بالمبلغ الذي طلبت إقراضه لي خاصة بعد أن أخبرني أنهم قادمون إلى مصر، ففي وسعي أن أرده إليهم بسهولة. فقال: لمَ لم تقل لي ذلك من قبل، لقد ظننت أن الخمسة الآف ليرة تكفيك، وأنت قلت للأستاذ: أربعة آلاف ليرة فقط، والأستاذ سألني اليوم: هل سلمتها إليك، فأجبته بالإيجاب، فسر. قلت له: ما كنت أظن أنك ستسافر بهذه السرعة، وبحث في جيبه فلم يجد غير ألف وخمسمائة، فأعطاها لي وهو يأسف جدا، والوقت ضيق لا يكفي لتدبير المبلغ من مكان آخر، فعليه أن يذهب إلى المطار الآن، ثم قال: عندي صديق سأتصل به الآن تليفونيا لعلي أجده فاتصل به من المقهى ولكنه لسوء الحظ لم يجده فبقي متحيرا ماذا يصنع لي؟ قال لي: ألا تستطيع أن تكتفي بهذا المبلغ؟ قلت: إني عملت حسابي على مبلغ خمسة آلاف أخرى، ولكني لما رأيت حيرته وأسفه قلت له ، هون عليك فسأدبر نفسي إن شاء الله. قال: كل ما أستطيعه الآن أن أتصل مرة أخرى بصديقي من المطار قبل إقلاع الطائرة فإن وجدته جئتك بالمبلغ إلى الفندق. قلت: شكرا لك. هذا يكفيني منك. ونهضنا فودعته إلى اللقاء في مصر بإذن الله وقد كتبت له وصلا بالمبلغين الأول والثاني.

وعدت إلى الفندق أحسب ما بقي عندي من نقود فوجدتها ناقصة قليلاً. والمهم هو دفع أجر الفندق وهو ١٢٠٠ ليرة، وأجر الأتوبيس إلى المطار، والتاكسي إلى مقر الشركة، فهذا موجود ولله الحمد، ولكني بحاجة إلى نفقات الطعام اليوم ونهار غد إلى الساعة الخامسة، فمن أين لي بذلك؟ وفتشت محفظة نقودي فوجدت الجنيه المصري الوحيد الذي بقي عندي، فقلت: أكتفي به، وعسى أن أستطيع به أيضا أن أرسل برقية إلى مصر.

وعضني الجوع، فخرجت ألتمس شيئا أرخص من الرخيص وهممت أن أغشى المطعم المتواضع لأقتصر على طبق من المكرونة، ولكني استحييت، فصرت أطوف على محلات الطعام فوجدت دكانا يبيع سمكا مقليا ونظرت فوجدت السمك الصغير الذي يقال له عندنا: الباري، يباع الدرهم منه بمائة وعشرين ليرة وحررتهما في الورق وأدخلته في جيب البالطو الواسع فلم يظهر له أثر حتى خلوت بغرفتي فبسطت مائدة شهية لولا أن لا ملح له. فوددت لو كان مملحا، ولكني أكلته على كل حال، وبذلك وفرت ٥٠٠ ليرة ولله الحمد. ثم أخرجت قليلا من الشيكولاته المهداة لي من موسكو فحليت به ودخنت سيجارة من النشرفيلد الذي بقي عندي مما اشتريته من الطائرة التي أقلتني من فيينا إلى ميلانو بسعر ٦ شلنات العلبة وقد ندمت على أن لم اشتر منها أكثر، فالعلبة من هذه السجائر تباع هنا بحوالي ثلثمائة وخمسين ليرة أي أكثر من الضعف.

وقد خطر لي أن أغادر الفندق الذي أنا فيه لأنزل في فندق أرخص يكلفني في الليلة الباقية ١١٠٠ ليرة فأوفر مبلغ ٤٠٠ ليرة، ولكني خشيت من النفقات غير المنتظرة، فقلت: ما أعرف. خير مما لا أعرف، وتذكرت الصديقين العربيين من البحرين اللذين قابلتهما أمس، ولكن أين هما الآن؟ وظللت أستحضر في ذهني اسم الفندق الذي نزلا به فخيل إليّ أنه فندق (ترمينوس) فسألت عاملة التليفون في الفندق هل يوجد فندق اسمه ترمينوس قالت: نعم، إنه في جوار المحطة العمومية. قلت: تلفني للفندق واسألي عن فلان وفلان. ففعلت. فقيل لها: نعم، إنهما ما زالا هنا ولكنهما الآن غير موجودين قد خرجا من الصباح ولم يعودا. قلت: أعطيهم رقم تليفون فندقنا فإذا حضرا فيتفضلان بالاتصال بي. وحتى ساعة كتابة هذه المذكرات لم أتلق منهما أي تليفون.

خرجت بعد الظهر، بعد أن استلقيت قليلاً، وأنا بملابسي في حجرتي بالفندق، فذهبت إلى مقر الشركة لأستوثق من السفر ولأسألهم عن البرقية التي ينبغي أن أرسلها إلى مصر، فإني خشيت أن تكون باهظة الثمن فلا أستطيع دفعه، ولم أستطع أن أجد منهم جوابا شافيا بخصوص ذلك إلا أنني يمكنني الاقتصاد فيها على ذكر شركة KLM ورقم الطائرة المسافرة ٨٥٣، وهذا كاف دون حاجة إلى ذكر ساعة الوصول إلى القاهرة لأن ذلك عرضة للتغير، وجلست أكتب صيغة البرقية أقصر ما يمكن، وجعلتها تحتوي على عشر كلمات.

ولا أدري كم تكلف الكلمة الواحدة، وكنت قد سألت الصراف عن قيمة الجنيه المصري بالليرات الإيطالية فأراد أن يعطيني به ألفا وسبعين ليرة فقط، فعجبت من هذا التدهور العجيب للجنيه المصري، ولم أوافق على السعر، بل رأيت أن أؤجل صرفه حتى أرى البنوك الأخرى التي كانت قد أقفلت في تلك الساعة فإن يكن هذا هو سعر الجنيه فلن يبقى معي حتى ظهر الغد غير ٦٩٠ ليرة وهذا إذا صمت عن الطعام طول النهار إلا عن رغيف عندي وتفاحتين، وذلك أني اشتريت وأنا راجع إلى الفندق نصف كيلو من الكاكي بـ ٣٠ ليرة، وهذا كل ما تموّنت به لهذه الليلة وللغد. والحمد للّه على كل حال.

وقد تأسفت إذ اشتريت بعض الهدايا وكان ينبغي ألا أشتريها حتى أستوثق من وجود المال عندي، ولا أعتمد على وجود الأستاذ كارلو فهاهو قد اضطر إلى السفر فجأة وبغير سابق إنذار. إذن لما وقعت في مثل هذه الورطة التي شغلت ذهني كثيرا وحين رجعت إلى الفندق مبكرا في الساعة السابعة تقريبا.

رأيت أن أغتسل فكان للاغتسال أثر جميل عندي، إذ شعرت كأني تطهرت من أدران هذه البلاد استعدادا للنزول في أرض الوطن الطاهرة. وبعد أن صليت المغرب والعشاء جلست أحزم ما بقي من أمتعتي استعدادا لسفر الغد والحمد لله.

علي أحمد باكثير

ميلانو ـــ ٢٥ من نوفمبر ١٩٥٨م

الفهـــرس

رقم الإيداع: ٢٠١٠/١١٤٦٧
الترقيم الدولي: 5-1652-11-977

يوميات علي أحمد باكثير

هذا الكتاب

عاش على أحمد باكثير حياته مُسافرا فى الزمان، مُترحلاً بين العصور والحضارات، كما سافر فى أعماق التاريخ والأساطير.

فى سنة ١٩٥٦م ترأس وفد الأدباء المصريين، وزار الاتحاد السوفيتى ورومانيا، وفى أكتوبر ١٩٥٨ زار الاتحاد السوفيتى والنمسا ورومانيا... وكان الجزء الرسمي من الرحلة إلى موسكو والجمهوريات الإسلامية التابعة للاتحاد السوفيتى. وشارك فى مؤتمر أدباء آسيا وأفريقيا فى المقشند، ثم غادر المؤتمر مُنفردا إلى النمسا ورومانيا...

كتب هذه اليوميات لنفسه كشىء من تزجيته الوقت وليس للنشر فلم يكتبها بلغته الأدبية العربية الرقيقة السهلة.

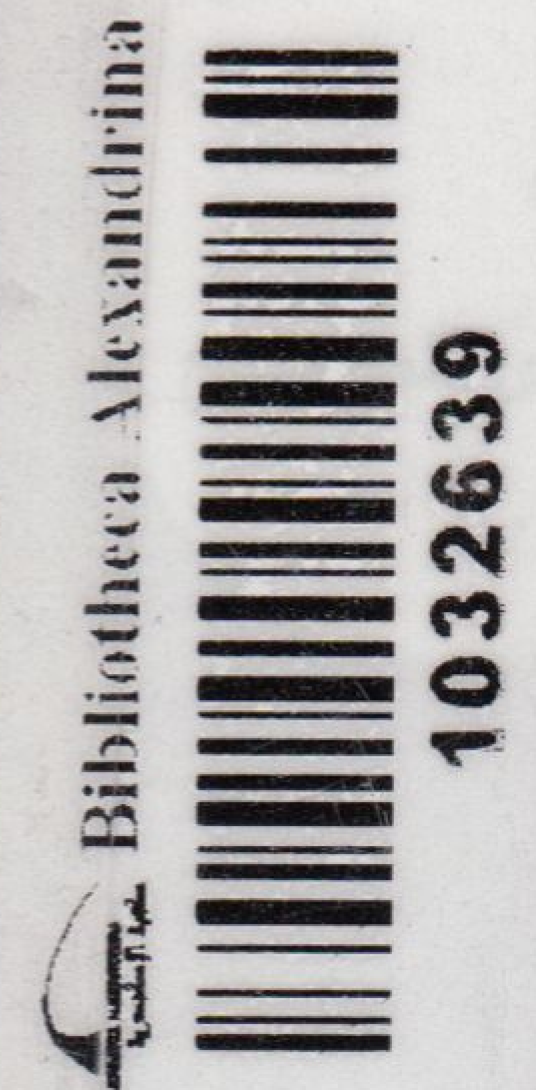
بدأت الرحلة الثانية فى ١١ من أكتوبر ١٩٥٨ وزار جمهوريات : طاجستان بدعوة من الحكومة بعد أن شُفيى من وعْكة بْرد.

تحدث باسم الأمة العربية- سبعين مليون يومزاك. وقضىّ فى " براغ" يومين فى طريقه إلى النمسا حيث قام برحلة حول " فينا " وأحبّ بهاءها فى الليل، وشاهد آثارا للمصرين وأمجادا.

كما زار إيطاليا، وزار بولونيا وأحس دوره كمسلم فاهم للدين دراسا للعقيدة حافظا للقرآن الكريم.

ثم بدأت رحلة العودة إلى مصر فى ٢٥ من نوفمبر ١٩٥٨م.

مزكرات شخصية ينبغى أن يقرأها كل من يحب على أحمد باكثير ذ... الجادة الصارمة لم تمنعه من إبداع أدب هزلى "كوميدي" ساخر راق...





سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة
تليفون: ٢٥٩٠٨٩٢٠

